

كروان السكري

جوديا و ساريا

جوديا وساريّا

(رواية)

كروان السكري

إصدارات إي – كتب

لندن حزيران – يونيو 2016

Jodia & Saryia
By: Karawan Sukkari
Copyright: The Author
Published by E- Kutub.com & Google Books
ISBN: **9781780582115**
* * * * *

الطبعة الأولى، لندن، حزيران- يونيو
المؤلفة: كروان السكري
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024

يمكنك الكتابة الى المؤلفة على العنوان التالي:
karawansukkari@yahoo.com
تصميم الغلاف: لين كركوكي

عندما يتشظى ماضيَّ وحاضري ومستقبلي بجنونكَ،

عندما تحرقني روحاً وجسداً،

عندما أتشوه بكَ،

عندما أذرف دمعي منكَ وعليكَ،

أنا زجاجة كُسرت، لا تحاول لملمتي.

سأدميك بحوافي المدببة.

هذه القصة حدثت في المستقبل

الفصل الأول

كثيراً ما كانت أمي تناديني، عندما كنتُ صغيراً، "يا طفليَ الشفاف". كانت تسألني وهي تراني أتأمل النجوم طويلاً في الليل من نافذة غرفتي، "أتحب النجوم؟" فأهزُّ رأسي وأقول "أرسم بها أشكالاً". كنت أرى مجموعات النجوم داخل عينيَّ في شكل حصان لامع أو رأس زرافة أو فراشة أو شجرة عيد ميلاد مضاءة بالأنوار أو وجه إنسان أو أي شكل آخر. أحسستُ دائماً أن شيئاً ما في داخلي يطير إلى السماء السوداء ويقفز من نجمة إلى أخرى بحثاً عن سر هذا الكون العظيم. سحرتني رؤية شهاب لامع ينطلق بسرعة كبيرة في سماء ليلة صافية ويهبط فوق الأرض، فأتوق لرؤية المكان الذي حطَّ فيه وكيف أصبح شكله، ظناً مني أنه يبقى مضيئاً، مثل قطعة جمر لها ذيل مضيء قادمة من الفضاء، وأن الملائكة هي التي تطلق تلك الشهب أثناء لهوها في القبة السماوية فتسقط على الأرض، على غرار الألعاب النارية التي اخترعها الإنسان وذهل الناس عندما أضاءت السماء لأول مرة. كانت أجمل لحظاتي، عندما كنت طفلاً، أن أستلقي على الصوفاية الطويلة في شرفة منزلنا بدمشق في ليلة صيفية وأنظر إلى السماء، فأرى القبة المتلألئة قريبة مني تكاد تغمرني، وكأنها تهبط إليَّ أو أرتقي إليها، وأبي وأمي يتجاذبان أطراف الحديث بصوت خافت ظناً منهما أني على وشك الإغفاء، فيما أنا غارق في البريق

يغمز لي من بعد بين الفينة والأخرى، أعدُّ النجمات أو أنتظر سقوط شهاب. وعندما أراه أنهض فرحاً وأصرخ ببهجة "انظرا، الملائكة تطلق ألعابها النارية". فيضحك والداي وينظران إلى أعلى طويلاً متأمليْن الفضاء المزركش، وأعود للاستلقاء منتظراً شهاباً آخر. ويتألق عرس البريق مع توسط البدر كبد السماء بين النجوم، فيتراءى لي القمر باسماً سعيداً، وله عينان وأنف وفم ووجه مستدير يحمل طيبة ووداعة. ثم أغفو على صورته المنيرة وهمْسِ أبي وأمي وأصوات بعض المارة ووقع أقدامهم على الرصيف وأحياناً ضحكاتهم في سكون الليل. كان هذا الغمر السماوي يزيدني اطمئناناً وعشقاً لبيتنا ولتلك الشوارع والزوايا والأرصفة المستلقية في حضن ذاك المكان والزمان اللذين سأحرم منها في قادم أيامي. وتشير أمي إلى الأعلى مرات قبل أن أستسلم للنوم قائلة، "شايف النجمات المصفوفة متل حرف السين.. هي الدب الأكبر.. وهناك قريباً منها الدب الأصغر". فأسألها عن سبب تسميتها بالدب الأكبر وهي لا تشبه الدببة في شكلها فتجيب أنها أساطير قديمة من خيال القدماء، "هيك تخيلوا شكلها". وسرعان ما تشير بإصبعها إلى نجم القطب اللامع وتقول "هذه النجمة البراقة بنت عم القمر وهي لامعة لأنها قريبة منه". وأعود في تأملي لأرسم من الدب الأكبر غيتاراً ومن الدب الأصغر شبكة تلتقط الفراشات ومن نجم القطب كرة مضيئة تقفز فوق كفّي.

عندما كبرتُ، صارت أمي تطلق عليّ "قارئ الأفكار" وأحياناً "كاشف الخبايا". لم يهتم أبي أو يرى بي ما تراه أمي. بل كان يقول لها ببرود "كفِّي عن هذه الخزعبلات.. حسبي الله ونعم الوكيل.. ". فتجيبه وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة جميلة "والله إنك

لا تفقه شيئاً". ولعلَّ هاتفاً في أعماق أمي أوحى لها، حين أنجبتني، أن تسميني "نمير"، ويعني الماء العذب والرقراق. وكأنها كانت تعلم، بحدسها الداخلي وطبيعتها الرقيقة وعينيها الناعستين العميقتين، أنني سأكون على قدر من الشفافية يسمح لي أن أخترق الحجب، فتتكشف أمامي كستارة رقيقة أرى ما خلفها. منذ كنت في الثانية أو الثالثة من عمري، استطعتُ أن أرى تلك الطاقة المحيطة بالأشخاص والأجسام. كانت أمي تخبرني أنني كنت أبكي بشدة عندما أرى شخصاً غريباً في بيتنا جاء للزيارة. ومهما كان لطيفاً أو حاول احتضاني لا أتوقف عن البكاء حتى يغادر. وفي أوقات أخرى كنت أشعر بالاطمئنان والراحة لزائر آخر يضمني ويتودد لي فأبتسم بسعادة، وأبقى في حضنه أتأمل وجهه بهدوء. ولم تكن أمي تجد تفسيراً لذلك. كنتُ في واقع الأمر أرى هالة حول الشخص، فإذا ما شابهت هالة أمي وأبي بلونها وشكلها، شعرتُ بالارتياح، وإذا لم تكن كذلك، كنت أبكي بشكل متواصل. وتحكي لي أمي أنني في سنوات عمري الأولى كنت أهرب وأختبئ خلف الستارة في كل مرة أطلَّت فيها عمتي من باب البيت، إذ كنت أرى هالتها بشكل ولون مختلفين عن هالة والديّ بما يوحي لي بالضجيج والسرعة والاندفاع، خاصة عندما تهرول متظاهرة بالبحث عني ثم تكشف الستارة وتقول بصوت أشبه بالصراخ "شفتك.. شفتك، يا خروفي الصغير" وتحملني بين ذراعيها وأنا أرفس و"ألبِّط" بساقيَّ الصغيرتين محاولاً التملص من بين يديها، ثم تقبِّل وأحياناً تعضُّ ذراعيَّ الغضَّين وفخذيَّ الممتلئين، وكنتُ سميناً وموفور الصحة حينها، قائلة لأمي "ابنك متل الخروف الصغير الطري.. بدي آكله شي يوم متل صحن الشاورما الشهي".

عندما أسمع أنها ستأكلني أرتجف وأعود للاحتماء بالستارة أو خلف أمي.

حينما صرت تلميذاً في المرحلة الابتدائية، كثيراً ما كنتُ أُحجِم عن رفقة زميل في المدرسة، أو أتملَّص من آخر بسبب طاقة، غير مريحة لي، تحيط به. وكانت أمي تعجب لتصرفي، فأقول لها "إنني لم أرتح له، أو إنه حسود، أو لا يحبني". في تلك المرحلة من حياتي كان صديقي "ثائر" الأقرب إلى نفسي. اعتدنا أن نجلس معاً على عتبة في زاوية من باحة المدرسة خلال فترة الاستراحة بين الدروس نأكل السندويتشات ونتحدث طويلاً عن أحلامنا، وثائر ينظر في وجهي باهتمام منتظراً مني تعليقاً على بعض الطلاب والأساتذة، وقد وثق بقدراتي ووجد متعة في الكشف عن الحالة المزاجية للأشخاص حولنا. إنما كنت أحياناً سبباً في نشوب عراك حامٍ بينه وبين بعض الطلاب المشاغبين خاصة أن ثائر كان حيوياً وسريع الانفعال. وأذكر مرة أننا عندما كنا في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية، كشفت له أن سامر وإيهاب لا يكنَّان له ودَّاً وأني على يقين أنهما أخفيا دفتره قبل حصة العلوم، الأمر الذي أسفر عن تلقيه تعنيفاً قاسياً من الأستاذ وعقوبة الوقوف إلى جانب الحائط لحصة كاملة. وكنت رأيتهما يقهقهان وينظران بطرف أعينهما إلى ثائر متغامزينْ قبل دخول الأستاذ. وما أن انتهى الدرس حتى تحولت باحة المدرسة إلى ساحة معركة بينه وبين سامر وإيهاب، اضطررتُ للمشاركة فيها مع طلاب آخرين مؤازرة لصديقي ثائر، فيما هرع طلاب آخرون لمساندة سامر وإيهاب. وفي وسط الجلبة والصراخ واللكمات التي كانت تنهال على الوجوه والرؤوس والأجساد من كل مكان، بحثتُ عن ثائر

فوجدته يتدحرج على الأرض مع طالب آخر، وعندما هممتُ بالإسراع لمساعدته تلقيتُ عدة لكمات من طالب أكبر مني سناً وحجماً، فسال الدم من أنفي وشفتي وتنحيت جانباً متألماً وحانقاً. وصل مشرفا المدرسة مسرعيْن، ووضع أحدهما منديلاً على أنفي، قبل فضِّ الشجار الشرس الذي كان الأول من نوعه في حياتي، وشكَّل في ذاكرتي صورة عن هذا الكائن البشري الذكوري الذي تمت صياغة شيفرته الوراثية على قاعدة الميل للعنف والاقتتال منذ نعومة أظفاره، وعرفت يومئذ كيف أن الشر يستميت من أجل أن ينتصر. وفي قادم الأيام سأكتشف شروراً أعظم وألماً أكثر وجعاً عندما يُقتل صديقي ثائر برصاصة قناص في بداية الأحداث في سوريا خلال مشاركتنا في إحدى التظاهرات امام مدخل الجامعة بدمشق. كان ثائر في سنته الثالثة بكلية العلوم، مات بين ذراعي والدم ينزف بغزارة من رأسه. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، قال جملة واحدة عاشت في ذاكرتي إلى الأبد "سامحني يا وطني.. تركتك في بداية المشوار" ثم أغمض عينيه. بكيت فراقه طويلاً وسكنت طيبة قلبه وبراءة ملامحه بين جوانحي. ولايزال موته جرحاً قابعاً في أعماقي لن يندمل ما حييت.

بعد ذلك العراك تم حجزنا في المدرسة بعد الدوام واستدعيَ آباؤنا بناء على طلب المدير، الأستاذ سعيد. حُشرنا في ممر بجانب أحد الصفوف مثل قطيع الخراف، ووقف المدير مع معلميْن عند مدخل الممر بانتظار وصول آبائنا. كانت عيوننا تقفز وتتنقل بين وجوهنا ووجه المدير، بعضها يحمل خوفاً والبعض الآخر شماتةً وأخرى ابتسامات متوارية. ورأيت ثائر ينظر إليَّ بطرف عينه

ويغالب الضحك بصعوبة. كان ثائر طفلاً ممتلئ الجسم قليلاً، مستدير الوجنتين كتفاحتين لوحتهما الشمس بلمسة حمرة جميلة، عسلي العينين والشعر، وكنت أعجب لتماثل اللون فيهما. بسيطاً محبباً إلى النفس، لا يضمر شراً بل يصدِّق ما يسمع لصفاء في سريرته وثقة بالناس، سريع الانفعال وردود الفعل، وسريع العودة إلى الهدوء والمرح، وحتى عندما أصبح يافعاً ظل جزء فيه طفلاً يأبى أن يكبر، ولازمته تلك الصفات طوال حياته القصيرة. كان يقول لي إنه يعتبرني مثله الأعلى دون أن أعرف سبباً لذلك. لا أذكر أننا دخلنا في جدال أو عراك كأطفال إلا مرات نادرة.

في الممر المكتظ، ظل ثائر يزمُّ شفتيه ليمنع ضحكة من الإفلات، وفجأة لم يعد قادراً على أن يتمالك نفسه فتدفق الضحك من فمه قهقهة متقطعة مثل ماء يتدفق على دفعات من صنبور معطل، وأصابتني العدوى مع طلاب آخرين فقرقعت ضحكاتنا كمفرقعات صغيرة. هنا صرخ المدير بصوت هزَّ المكان وبعينين تهيأ لي أنهما خرجتا من محجريهما "اخرس أنت وياه.. فعلاً.. هي قلة أدب.. بيحق لكم تضحكوا.. لازم تبكوا على حالكم.. طلاب آخر زمن.. ما بدي اسمع ولا صوت.. فهمتوا.. وإلا بتضاعف العقوبة.. ".

عندما وصل أبي إلى المدرسة دخل مكتب المدير وراح ينظر إليَّ شزراً وأنا أقف مثل سجين بين القضبان أمام المحكمة، فيما الأستاذ سعيد يتحدث بعصبية ودون توقف، وصلعته تبرق وتنطفئ تحت الضوء المثبت فوق مكتبه في السقف مع اهتزازات جسمه، وحاجباه الكثيفان اللذان تداخل في سوادهما الشيب الأبيض وكانا أشبه بعريشة مهملة، يرتفعان وينخفضان، ثم يلوِّح بإصبعه

مهدداً، يطول ويقصر، يرغي ويزبد، ينهض قليلاً عن الكرسي ثم يستقر، وأنا أرى هالة مبعثرة تنتشر حوله فأرتعد. راح الأستاذ سعيد يتحدث عن الشغب الذي قمتُ به مع الآخرين وبأنه لن يسمح بعودتي إلى الصف ما لم يتعهد أبي بأني لن أكرر هذا العمل الشائن مرة أخرى، وإذا حدث فسيكون مصيري الطرد من المدرسة نهائياً مع كل المشاغبين الآخرين. كان هذا التهديد مصيرياً. وقرر المدير طردنا جميعاً ثلاثة أيام.

قادني أبي إلى البيت يقبض على كفي بقوة ويسحبني بشدة مثل بائع متجول يجر حماره الحرون، وأنا أتحسس شفتي وأنفي مهرولاً وعاجزاً عن اللحاق بخطواته. يهزٌّ يدي بين الفينة والأخرى ويتكلم بسرعة، فأنظر إلى أعلى وأرى منكبيه العريضين يغطيان الأفق، والنظارة الطبية على عينيه تهتز، ووجهه الأبيض يحتقن مع اندفاع الكلمات من فمه كالرشقات، وذقنه تتحرك إلى الأعلى والأسفل مع حركة شفتيه تنغلقان وتنفلقان، مردداً دون أن ينظر أسفلاً إليَّ، فيتهيأ لي أنه يخاطب المارة "شيء ما في عقلي يقول إنك السبب يا نمير.. لعنة الله على الشيطان.. أعرف أنك السبب في هذا الشغب الذي حصل بالمدرسة. وهل يُخفى عني هذا الأمر.. فأنت مثير للفتن.. أعرفك.. انتظر عقوبتك في البيت.. انتظر وسترى". فأحني رأسي وتدمع عيناي وأنا أرسم في عقلي سيناريوهات العقوبة المنتظرة وأتمنى أن يطول الطريق لكي لا نصل إلى البيت أو أن يحدث أمر جلل يجعل أبي ينسى قصتي فأنجو من العقاب. في البيت تهرع أمي لتعقيم جرحي قائلة: "ما الذي حدث؟ ما هذا الجرح في فمك، يا حبيبي؟ من هو اللئيم الذي فعل بك هذا؟". فيقول أبي

بغيظ: "ابنك هو السبب في كل ما حدث.. كفي عن تدليله.. هو رأس الفتنة.. وسينال عقابه مني. لن يذهب إلى المدرسة.. سيبقى حبيس غرفته لمدة أسبوع.. وهو محروم من التلفزيون والألعاب".

تصمت أمي لبعض الوقت، وعندما يعود أبي إلى هدوئه في آخر النهار، تشفع لي عنده وتقول له بنظرة استعطاف تأسر لبَّه: "ولاد.. بيغلطوا.. لازم نسامح.. بوعدك ما يعيدها مرة تانية وما يدخل بمشاكل.. سامحه يا أبو نمير.. الله يخليك".

كان أبي يحبها كثيراً ولا يرفض لها طلباً، وظل هذا الحب عامراً في قلبيهما حتى وصلا إلى سن الشيخوخة، تحنو عليه ويرعاها، يتكئان على بعضهما دون تأفف أو ملل على دروب الحياة بحلوها ومرها إلى أن فرَّقهما الموت، وكنت أنا الثمرة الوحيدة لهذا الحب اللامنتهي الذي ظلَّل بيتنا وعشت في كنفه على مر السنين.

يُطرق أبي ثم يهز رأسه وفي اليوم التالي يستدعيني ويأخذ مني عهداً بعدم إثارة الفتن أو الانخراط في المشاكل، ثم يقبِّلني في جبيني وينتهي الأمر بالغفران، فينزاح همٌ عن كاهلي، إنما همِّي الأكبر كان عدم قدرتي على الالتزام بما وعدتُ به والدي.

كنت أنا وصديقي ثائر نغرق في الضحك عندما أخبره أن الطاقة حول أستاذ العلوم اليوم تنبئ أنه في حالة نفسية سيئة وهو لم يحلق ذقنه ولم يكوِ قميصه وقد يشفي غلَّه بالطلاب ويجب اتخاذ الحيطة. وكان ثائر يقول ضاحكاً إن مدير المدرسة، الأستاذ سعيد، بدا غاضباً في الصباح وربما عنَّف بعض الأساتذة ومنهم أستاذ العلوم بسبب علامات الطلاب المتدنِّية في معظم المواد. كنا معاً ننظر خلسة من نافذة غرفة المدير، وكان ثائر قصير القامة

يتطاول للوصول إليها، لنرى ما يفعله الأستاذ سعيد الذي لم يكن له نصيب من اسمه ولم يكن سعيداً إطلاقاً، فنشعر برهبة المكان وبقشعريرة تسري في أوصالنا ونحن نتمعن في عقدة حاجبيه التي حفرت أخاديد وسط جبينه، وهو يراجع بعض الملفات والدفاتر أمامه على المكتب ويمطُّ شفتيه بين الفينة والأخرى قرفاً. لم نرَ ابتسامته قط، وكل ما عرفنا عنه إعطاء الأوامر وتقريع الطلاب المهملين والمقصِّرين واستدعاء ذويهم للمحاسبة. عندما يدخل من باب المدرسة في الصباح، يكتسح الصمتُ الضجيج وتنشطر الكتلة الطلابية في الباحة إلى جزئين للسماح بمرور موكبه الانفرادي، والأنظار معلقة بسحنته المتجهمة والعكاز المتأرجح في يده إلى الأمام والخلف، وكان يستعمله للوجاهة فقط، و"كرشه" الذي يتصدر المشهد، فيما حدقتا عينيه تدوران في كل اتجاه دون أن يحرك رأسه. وفي وسط الجمع أرى هالات مرتعشة حول الطلاب وعيوناً تحملق بوجل وأجساداً صغيرة تختبئ خلف أجساد، فتنتابني عدوى الخوف والارتعاش، وأشعر بالدوار خشية أن تصطادني عيناه، فتهرب عيناي سريعاً إلى الأشجار العالية المنتصبة على أطراف الباحة ثم إلى النوافذ الكثيرة المصطفة على جدران الطابق العلوي للمدرسة، ثم إلى شجرة الجوز الضخمة التي تتوسط الباحة بأغصانها الوارفة وأوراقها المكتظة. وأحاول إلهاء نفسي بالإصغاء إلى زقزقة العصافير متنقلة فوق الأغصان، لأهدئ من توتري وتشنج الأجواء الذي أثاره دخول المدير.

كنتُ أكره مادة الحساب، لم تكن لتتواءم مع أحاسيسي المرهفة وطبيعتي الحالمة البعيدة عن الأرقام الجامدة والعمليات الحسابية المعقدة والمحددة بأطرٍ ونظريات ثابتة ومتصحِّرة لا تنفتح على

امتدادٍ ذهني أو أفق واسع لا حدود له تنطلق روحي إلى فضائه. ولطالما شعرتُ بالعذاب وبركبتيَّ تهتزان، وأنا أتعثر في حلِّ مسألة حسابية على اللوحة البيضاء أمام الطلاب، وأستاذ الحساب يحملق بي منتظراً. يرفع أحد حاجبيه ويرخي الآخر ويزيد عينيه اتساعاً وهو يهز رأسه إلى الأمام والخلف، وأنا بدوري أحدق باللوحة فتبدو لي الأرقام متداخلة، بعضها يركب فوق بعض، ثم أحدق بوجهه فأرى طاقة سلبية حوله تنبئ بما يعتمل داخله من غضب سيتمخض عنه عقوبة الوقوف بجانب الحائط على مدى حصتين دراسيتين.

في طفولتي، استهواني رسم وجوه وأشخاص تحيط بهم هالات بألوان وأشكال مختلفة. وعندما تسألني أمي عنها، أجيب "هكذا أراه"، فلا تهتمُ للأمر كثيراً. وقد كانت لي حظوة كبيرة عند أستاذ الرسم لتفوقي وبراعتي في مادته. وكلما مضت سنوات من عمري واشتد عودي، وجدتُ متعة في هذا الكشف الذي تجلى في شكل رسومات ومنحوتات، قادت خطواتي في قادم الأيام نحو التخصص في فن الرسم والنحت ومن ثم التدريس في كلية الفنون.

وفي مرحلة الشباب رحتُ أدرب نفسي على رؤية الاهتزازات الكهرومغناطيسية حول البشر والأشياء بشكل أعمق. كانت أكثر اللحظات إثارة بالنسبة لي قراءة كتاب عن الكون والأرض وخاصية الطاقة فيهما، وعلاقتها بالوجود البشري على هذا الكوكب. كنت أتساءل في عقلي دائماً عن اللغز الكامن وراء هذا الكون، وكل ما فيه في حالة دوران مستمرة، من أكبر الأجسام إلى أصغرها، بما في ذلك الإليكترون الذي يدور حول الذرة المتناهية في الصغر. وكانت تساؤلاتي تقودني إلى تعزيز

الإحساس المرئي عندي، فأمكنني قراءة الذرات الكهرومغناطيسية حول الأجسام ببراعة، ومنها رحت أستقي معلومات عن الجسم الذي تدور حوله. صرت أكتشف مع الأيام أن بعض الناس لديهم طاقة ضعيفة بسبب حياتهم المادية البحتة التي تسيطر عليها أشكال شتى من المشاعر السلبية، مثل الحسد والغيرة والغضب وتأنيب الضمير والخوف والقلق. وهذه كلها تضع قناعاً يخفي طبيعتهم الإيجابية وبالتالي يضعف طاقتهم. أيقنت أنني من خلال معرفة الطاقة حول الشخص، يمكنني قراءة أفكاره حتى قبل أن يعبِّر عنها، وأنه لا يمكن لأي أحد التحكم بتلك الطاقة لأنها هي بصْمتُه الروحية والنفسية. استطعتُ أن أضع الشخص على طاولة التشريح النفسي وأدخل إلى أعماقه وأقرأ ما يجول في خاطره إلى حدٍّ كبير. كنت أنصح أمي أحياناً بالابتعاد عن صديقة أو قريبة لها لأن ذراتها الطاقية تظهر عدم إخلاصها أو ميلها إلى الغمز واللمز، أو أن تفتح قلبها لأخرى وتمنحها ثقتها لاستنتاجي من رؤية طاقتها أنها إنسانة طيبة. وسرعان ما تكتشف أمي صدق حدسي بعد فترة، فيما لم يُعِرْ أبي اهتماما كبيراً لما أقول.

كانت جارتنا أم جابر تكثر من الزيارات لأمي لتنقل لها أخبار الحي والجيران، وكانت تدرك موقفي الرافض لتصرفها من خلال استقبالي الفاتر لها عندما تقرع جرس الباب أحياناً وتراني في وجهها. لم تكن تعبأ لجملة اعتادت سماعها مني "شو حاملة نميمة بجعبتك اليوم، يا أم جابر؟" فتردُّ: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله منك ومن كلامك". ومع ذلك لطالما تساءلتُ فيما إذا كنت أرى نفسي فعلاً أفضل من أم جابر، فكلٌ منَّا يزرع

الفتنة على طريقته. وتواصل أم جابر التي كانت في منتصف الأربعينات من العمر، عادتها في النمَّ ولا تقصِّر في قدح أو ذم معظم القاطنين في المنطقة. وتدخل، معظم الوقت، دون أن تنظر في وجهي خشية أن أنبش في عينيها اللتين زاد الكحل الأسود الكثيف حولهما من غرقهما داخل المحجرين، بجلابيتها المعرَّقة بشتى ألوان الورود وأشكالها ووشاحها السماوي اللون المسترخي على كتفيها ومنتصف رأسها تاركاً قسماً كبيراً من شعرها البني مكشوفاً، لتبدأ حديثها لأمي عن أبو اسماعيل الذي يسكن في بناية مقابلة لبيتنا وكيف أنه اشترى غرفة نوم وصوفايتين من بائع الأثاث المستعمل في الحي المعروف باسم "رائف كنبات" ولم يسدد له ثمنها كاملاً. وقد مرَّ أكثر من سنتين دون أن يتمكن رائف من تحصيل دينه وبعدها أنكر أبو اسماعيل المبلغ المتبقي. وكانت النتيجة عراكاً وشتائم أوصلتهما إلى مخفر الشرطة. وتنهي أم جابر حديثها بالقول: "حاول شفط المبلغ.. يا عيب الشوم.. والله عيب الواحد يشتري وما يوفِّي، مع أنه معه مو ما معه.. بيته فخم وعنده سيارة ".

وكان رائف كنبات، وهو لقب اكتسبه لطبيعة عمله، يبيع الأثاث المستعمل في محل استأجره منذ مدة طويلة في حيِّنا. يشتري الأثاث القديم بسعر زهيد أو من دون مقابل ويعيد تنجيده وطلاءه، لكونه يجيد النجارة، ثم يبيعه بسعر معقول. كان محله بجانب عدة محلات اصطفت على نسق واحد في شارعنا، منها محل الألبان، وأخرى لبيع الخضار والفواكه، ومحل الفراريج والريش المشوية على الفحم والتي غالباً ما كانت رائحتها الشهية تصل إلينا فيسيل لعابنا لها ويهرع أبي لشرائها، بناء على طلب أمي، لتكون وجبة

غداء لذيذة توفر عليها الوقوف الطويل في المطبخ لطهي الطعام وخاصة في أيام الجمعة

اعتدنا رؤية رائف كنبات كل صباح يحمل، مع فتى يعمل عنده ويدعى عدنان، قطع الأثاث الصغيرة من كراسي وطربيزات لينسقها على الرصيف خارج المحل وتحت المظلة بشكل أنيق لجذب الزبائن. وأما القطع الكبيرة مثل الخزائن والأسرَّة فيعرضها في الداخل. وكنا نسمعه ينادي بصوت عالٍ ضمن هذا الروتين اليومي "ياالله.. قرِّب واستفتح.. يا بلاش.. أرخص من الفجل.. عفش آخر موديل..". وسرعان ما يردد الصبي عدنان النداء خلفه بصوت حاد أشبه بصرير الأبواب الصدئة وأحياناً مصفقاً بيديه إلى الأعلى "قرِّب.. قرب، يا حباب.. هون عنا ما لذَّ وطاب.. قرب دوء".

فيخرسه رائف قائلاً: "ولك يا غبي.. أنت حمار شي؟ لا.. والله بدك ألف سنة لتصير حمار.. شو نحنا عم نبيع أكل؟ كم مرة قلتلك ما تصرخ وراي؟.".

فيردُّ عدنان، وهو ينظر إليه، إنما وكأنه ينظر إلى شخص بجانبه، وقد كان أحول العينين، مكشراً عن ضحكة قميئة تكشف عن أسنان صفراء تعربش بعضها فوق البعض الآخر "معلمي، مو أنت عم تقول أرخص من الفجل؟ ليش الفجل مو أكل؟ "

فيتميز رائف غيظاً ويصرخ في وجهه "استغفر الله العظيم.. لك رح ناولك مقلوبة تفش حنكك من عند هالصبح.. والله لو مو أبوك عاجز ومحتاج ما خليتك عندي ولا ساعة.. قال فتحنا محل حلاقة، استفتحنا بأقرع.. الصبر على هالبلاء.. يا الله ". ويواصل عدنان النظر إلى جانب معلمه مبتسماً ببلاهة.

اعتدتُ أن أمرَّ في صباحات، وأنا في طريقي إلى الكلية، قريباً من دكان رائف، فأرى عدنان واقفاً خارجه ينظر يمنة ويسرة إلى المارة، ويديه على جانبي خصره أشبه بطاووس مختال. وكنت أرى الطاقة حوله إيجابية مستقرة بما يدل على رضاه عن نفسه تماماً. وما أن يراني حتى يكشر عن ابتسامة تدخل القشعريرة إلى جسدي ويتهيأ لي أنه يحدق في شخص يمر بجانبي، ثم أتذكر أنه أحوَل فأوقن أنه ينظر إلي، ويلقي عليّ بالسلام "السلام عليكم، أستاذ نمير" فأرد السلام مسرعاً وأحث خطاي خشية أن يستوقفني كما يفعل دائماً مع سكان الحي للسؤال عن أحوالهم وأحياناً لعرض آخر ما في المحل من أثاث، ويسايره البعض على مضض، شفقة عليه، فيما يتملص البعض الآخر، وأنا واحد منهم، ويهرولون مسرعين. ولم أكن أدري فيما إذا كانت تلك سياسة لقنها له رائف أم أنه تصرف تلقائي.

كان نداء رائف الصباحي مع أصوات الباعة المتجولين في حيّنا وحركة الناس الدؤوبة والرائحين والغادين، تُدخل إلى قلبي الطمأنينة والأمان وتعمق من أُلفتي مع المكان، بل تحولت هذه الأصوات مع الزمن إلى إدمان لذاكرتي أبحث عنها لو لم أسمعها أو خفَّ ضجيجها في يوم.

أم جابر أخبرتْ أمي مرة أن الخضري الدرويش أبو غسان الذي يبيع الخضار والفواكه في "البرَّاكية" بزاوية الشارع ويحمِّل بضاعته على الدرَّاجة أو الحمار كل يوم في الغدو والرواح، هو ليس فقيراً البتة. قالت "بتصدقي، يا أم نمير، أنه عنده بيت بدمَّر وسيارة باجو.. ".

فتصححها أمي بالقول ضاحكة "بيجو.. اسمها بيجو يا أم جابر.. ".

وتتابع أم جابر دون اكتراث "ايه ايه بيجو.. يمكن ما تصدقي.. بس والله هيك الحقيقة، شافوه بعيونهم بيسوق سيارة.. يا أختي هيك ناس مخباية بتيابها.. بيتظاهر بالفقر والدَروشة منشان الناس تعطف عليه.. يا لطيف تلطف".

ثم تنتقل إلى جارتنا أم بكري في الطابق الرابع التي أجبرت ابنتها على فسخ خطبتها من الشاب الفقير الذي تعرفت عليه في الجامعة وزوَّجتها من رجل غني يعيش في دبي. وتنهي حديثها "لكان الناس شاطرة حبيبتي.. خدم وحشم.. وبيت متل القصر.. واطلب تعطى.. مو متلنا يا حسرة.. زوج بنتي عم يآئي ما يلائي.. أربع ولاد.. وآجار بيت وراتب قليل.. يا حسرتي.. يا ريتني ما عطيته هالبنت لتتعتر معه.. قال تزوجنا لننستر اسق الله أيام الفضيحة ".

ثم يقودها الحديث إلى أبو ياسين الذي اعتاد رشوة المقدم بفرع الشرطة في المنطقة بمبالغ مالية وهدايا وإسطوانات مدمجة يبيعها في محله، لكي يؤجل سحب ابنه الكبير ياسين إلى الخدمة العسكرية، وتعلق "هون حبيبتي بالواسطة والرشوة بتمشي أمورك.. طعمي التم بتستحي العين.. إذا الواحد منا ما بيعرف حدا بتجرُّه الكلاب، يا حسرتي".

تصعد أم جابر لاهثة من الطابق الأول حيث بيتها إلى الطابق الثاني حيث بيتنا، في المبنى الذي يضم أربعة طوابق وينتصب ضمن مجموعة كبيرة من البنايات التي تتخللها محلات مختلفة على طول الشارع الممتد في الحي الذي كان حديثاً لكنه شعبياً في

الوقت نفسه، وتعيش فيه عائلات من الطبقة المتوسطة تجمعها مظلة التآلف والمودة دون تمييز بين دين أو عرق أو مذهب.

وأحياناً تصعد أم جابر لاهثة إلى الطابق الثالث أو الرابع، وقد انقطعت أنفاسها، حسب برنامج زياراتها لهذا اليوم. إذ لا بد أن يتصبَّح الجيران بإطلالتها البهية كل يومين أو ثلاثة. وكان لدى أم جابر ابنتان زوَّجت الأولى منذ سنوات، والثانية لا تزال تدرس في المرحلة الثانوية، وأما جابر فكان الأصغر وفي المرحلة الإعدادية. ولطالما كررت على مسامعنا حزنها وحسرتها على صبي فقدته بعد ولادته، وتهمس لأمي أنه اختنق بثدييها الضخمين أثناء إرضاعه في الليل وهي غارقة في نوم عميق.

كنا نسمع صوت أبو جابر في بعض الأمسيات يلعن ويشتم دون أن نعرف السبب "تفو على هالزمن وعليكِ.. طالعة من القفة على أدانها.. بدي هج وأطفش من هالبيت شي يوم بسببِك ".

ننظر أنا وأبي إلى بعضنا متسائلَيْن ثم مندهشيْن لرؤية أمي تضحك كلما سمعت صوت أبو جابر يسب ويشتم، ولا نعرف السبب.

وفعلاً طفش أبو جابر خلال الحرب ولكن مع أم جابر. وهاجرا إلى تركيا مع أبنائهما.

في كل مرة كانت أم جابر تلتقي بي في خروجها أو دخولها إلى بيتنا، تراني أحدق في وجهها بإمعان، فتزمُّ شفتيها الممتلئتين وتحركهما ذات اليمين وذات الشمال بما ينمُّ عن عدم الرضى ثم تمضي مسرعة لتتجنب نظراتي الساخرة، وأنا أتابع مؤخرتها المكتنزة بكتل الدهون تهتز صعوداً وهبوطاً مع كل خطوة من خطواتها.

هذا الوميض الخفي الذي ينطلق من عينيَّ الرماديتين، كما تقول عنه أمي، منحني قدرة عجيبة على كشف ما يستتر خلف الظاهر وما تخفيه النفس البشرية. لكن تلك المقدرة أدخلتني في مشاكل كنت بغنىً عنها. فأم جابر لم تكن ترتاح لي بل كانت تتحاشى الالتقاء بي وكأنها تحس أنني أستطيع أن أقفز إلى داخلها وأنبش ما فيه، فطاقتها تظهر لي موجات سلبية أشبه بالدبابس المنتشرة في كل مكان.

وأما نَديَّة التي تربطها قرابة بعيدة بأمي، فهي قصة أخرى. كانت ندية "الحميراء"، كما يسميها أبي، حمراء الشعر والأهداب والحواجب. ذات بشرة بيضاء لامعة تشبه القشدة. يغطي النمش الأحمر أعلى وجنتيها فيزيدها جاذبية. قليلة الكلام كثيرة الابتسام. في منتصف الثلاثينات من عمرها. تسكن في بلدة "التل" القريبة من دمشق. كانت ندية، وهي ندية مثل اسمها، أرملة بدون أولاد توفي زوجها منذ سنوات وتعمل ممرضة في مستوصف البلدة. وتأتي لنا بالتين أو العنب أو التفاح في زياراتها الشهرية حيث تمضي معنا النهار ثم تعود إلى التل. لاحظتُ أنها في كل مرة يتحدث أبي إليها، يكتسي وجهها بغلالة احمرار خفيفة ويغلف حركاتها نوع من الارتباك. كثيراً ما كانت تشتكي إلينا وحدتها وتتحسر على أن "الله لم يجبر خاطرها بولد يشيل كبرتها.. ". وأسرَّت لأمي مرات أنها تبحث عن زوج، ولكن "ما في ولا ابن حلال طرق بابي منذ وفاة زوجي، خايفة أكبر وعجز وأنا على هالحالة" فتطمئنها أمي بالقول "لا تخافي.. أنت حلوة وطيبة.. ولا بد ما يجيكي ابن الحلال في يوم.. ".

فتقول يائسة "الرجال ما بيحبوا ياخدوا أرملة ولا مطلقة خاصة عنا بالبلد.. بعدين أنا بشتغل بالتمريض والناس بيشوفو الظاهر وبيفكروا الممرضة بتخالط وبتلاطف المرضى والدكاترة وفلان وعلان... يعني بيحكوا عليها بالعاطل".

تحدثت ندية عن "نعيم" الذي كان يتعالج من الكوليسترول والضغط في المستوصف حيث تعمل، وكيف أنه حاول التودد إليها ظناً منه أنها صيد سهل المنال بعد أن قدمت له المساعدة وعاملته بلطف وابتسمت في وجهه واستمعت إلى مشاكله كلما جاء إلى المستوصف، إلى أن نقر على بابها في منتصف ليل، وعندما فتحته وسألته عن غايته حاول الدخول عنوة وقال لها إنه يحبها ومولع بها ويريدها زوجة على سنة الله ورسوله، وتعجبت لرجل يعرض عليها الزواج في منتصف الليل وأيقنت أنه يريد أن يقضي منها وطراً. فراحت تصرخ بأعلى صوتها، واستنجدت بالجيران الذين هبوا لمساعدتها وطردوا نعيم شر طردة بعد أن استدعوا الشرطة التي قادته إلى المخفر وأخذت منه تعهداً بعدم التعرض للمرأة ثانية. لم تعد ندية تراه منذ ذلك الحين. رددت بحسرة "هذا حظي الزفت.. يا أم نمير.. هيك شكال بلاقيهم بطريقي.. ما في واحد محترم يدق بابي ".

لم تكن رواية ندية مقنعة لي وندية ليست بريئة تماماً وربما هي التي شجعت الدب على المجيء لكرمها. استنتجتُ ذلك بعد أن قرأت هالتها عدة مرات خلال زياراتها لنا وأثناء حديثها معنا، واكتشفتُ فيما بعد أن طاقتها تعكس ذبذبات جنسية ولديها جرأة خفية تنعكس بوضوح في عينيها إنما مغلفة بحياء ظاهري، وليس هذا فقط بل هي تميل إلى أبي وتحاول شدَّ انتباهه إليها وحتى

إغراءه، وأن أبي يبادلها نظرات مشكوكاً بأمرها، فنقلتُ لأمي ما رأيته وقلت لها إن عليها توخي الحذر. وكانت النتيجة معركة حامية الوطيس بين أبي وأمي، وتوبيخ أمي لندية لحماقتها وجرأتها وقطع دابر زياراتها لنا، ومن ثم تعنيفي من قبل أبي واتهامه لي بأنني لست قارئ الأفكار وإنما "خرَّاب البيوت العامرة". يومها هرعت إلى غرفتي وتكورت في سريري الذي أخذ يهتز مع اهتزازات جسدي وأنا أكتم ضحكي المتواتر.

لم أكن أعرف حينها أنني سأُحرم من كل ما تأففتُ منه وانتقدته بعيني الثاقبة في يوم، وأنني سأشتاق وأتوق لرؤية كل هؤلاء الناس البسطاء وللجيران والأهل والأقرباء والطلاب والبائعين وحتى النمَّامين والمنافقين والحاسدين، وسأشتاق للمكان والنداءات والضجيج والحياة بصخبها وهدأتها وحدبها وعطفها وقسوتها، عندما تلوح نذر مستقبل أسود حاملاً الحرب والموت والدمار لبلادي.

في الحرب تفرق الناس ونزحوا وهاجروا واختلفت الأماكن والمشاهد والوجوه. وقبل فرارهم إلى تركيا كانت أم جابر دائمة الشكوى من انقطاع الماء والكهرباء والغلاء المستفحل، وقلما تعاطفت مع أولئك القتلى والجرحى الذين يتساقطون كل يوم، بل كانت تردد "هي بلاد الموت ما عاد ينعاش فيها.. الأحسن نرحل من هون.. هذا عقاب من عند الله.. لأنه النفوس صارت بشعة يا لطيف". وبالفعل رحلوا ولم نعد نسمع عنهم. كنت أفكر فيما إذا كان ما يجري عقاباً فعلياً للناس، كما تقول أم جابر، بعد أن تحول معظمهم إلى المداهنة والنفاق والقبول بالخنوع من أجل مصالح شخصية بحتة والتباهي بما يملكون على حساب الفقراء والبؤساء

والمعدمين في البلاد. ولكن كيف أصبح هؤلاء البؤساء وقوداً لتلك الحرب الجهنمية بينما فرَّ الأثرياء وأصحاب النفوذ إلى الخارج؟ كنت أتساءل كيف يمكن أن تكون تلك عدالة السماء؟

وأما ندية فانخرطت في علاج الجرحى والمصابين ونسيت همها الأكبر وهو الزواج مقابل عمل أسمى تفانت في سبيله طوال سني الحرب ووهبت نفسها ووقتها لأولئك الذين كانوا يسقطون جرحى أو مشوهين أو قتلى.

رائف كنبات زاد أسعار أثاثه المستعمل أضعافاً بحجة ارتفاع الدولار. واختفى الخضري أبو غسان من زاوية الشارع. كما اختفى كثيرون غيره. وصارت الخضار والفواكه في المحلات المجاورة لبيتنا قليلة وقديمة ومعطوبة تشتكي جور الزمان، والفراريج المشوية بآلاف الليرات. فقدت الشام اسمها ووجودها، وعمَّ القتل المجاني الأرجاء وكانت رائحة الموت تزكم الأنوف، وأصوات القذائف والانفجارات تصم الآذان، والدمار والخراب يفقأ العيون. إنها بلد الموت حقاً.

أحداث متتالية أشبه بالكوابيس مرت في حياتي خلال الحرب وما بعدها، لكن أغربها كان تلك القصة التي قذفت بي في دوامة من الحيرة والضياع، ونسفت مفاهيمي ورؤاي عن الحياة، وتركتني تائهاً ما تبقى لي من عمر. قصة عجيبة تشبثت بتلابيب عقلي وسكنت ذاكرتي ولم تغادرها حتى هذه اللحظة. حاولتُ أن ألملم أحداثها من البداية وحتى النهاية، لأقصَّها عليكم. وقد أظهرُ حيناً وأغيب حيناً آخر ضمن أحداثها، حسب ضرورة السرد وأولية أبطالها الذين حوَّلتُهم في مخيلتي إلى شخوص صغتها

وشكلتها وفق انطباعاتي عن هؤلاء الأبطال وتحليلاتي لمواقفهم وآرائهم على أرض الواقع وما جمعتُ من وقائع عن حياتهم.

ماجرسان

حدثت القصة بعد الحرب بأكثر من عقدين من الزمن في مدينة تسمى "ماجرسان"، وتقع بين سلسلة جبلية مترامية تنتصب عند تخوم الحدود الفاصلة بين آسيا وأوروبا وتبعد نحو ثلاث ساعات عن البحر. كانت المدينة قبل عشرات السنين بقعة نائية لا اسم لها تكنَّى أحياناً بوادي الموت، تتقاسمها إداريا الدول المجاورة، خالية من السكان، عدا بعض القرى المتناثرة بعيداً عنها، لا يؤمها نادراً إلا من كان مولعاً بالاكتشاف أو مهتماً بدراسة الجيولوجيا والصخور وتركيبة القشرة الأرضية. كان الناس يتجنبونها بسبب وعورة مسالكها وصعوبة التنقل بين الجبال والوديان المنتشرة فيها وخاصة "وادي الموت" الذي اكتسب اسمه لعمقه السحيق، ولطقسها الشديد البرودة والثلوج التي تغطي جبالها فترات طويلة من السنة، ولوحشة تكتنف أجواءها، وكذلك لحكايا غريبة تناقلها المستشكفون عن اختفاء بعضهم أو موت آخرين في ظروف غامضة. ومع مرور الزمن أصبحت المنطقة موطناً لأعداد من اللاجئين الفارين من الشرق الأوسط، وخاصة من بلاد الشام، الذين التجأوا إليها هرباً من العنف والحروب الأهلية الدائرة في بلادهم والتي استمرت ردحاً طويلاً من الزمن. ولعل كلمة "ماجر" أخذت أصلاً من "مهاجر".

كان النازحون الأوائل، ومعظمهم نساء وأطفال، ممن تقطعت بهم السبل يقيمون في خيام مبعثرة على سفوح تلك الجبال بعد

رفض البلدان الحدودية دخولهم إليها أو الاعتراف بوجودهم. اشتغلوا بزراعة ما جادت به الأرض في البدايات، وذاقوا شظف العيش ومرارة الحياة القاسية بين تلك الجبال إلى أبعد الحدود. مات الكثيرون منهم بسبب الأمراض والأوبئة وعدم توفر العلاج، وأحياناً نتيجة البرد القاسي وتراكم الثلوج والرياح الزمهرير التي غالباً ما كانت تقتلع خيامهم وتتركهم في العراء، وتقضي على أعداد المواشي القليلة التي كانوا يقتاتون من حليبها ولحومها، دون أن يهتم لمعاناتهم أو وجودهم أحد. ومع مرور الزمن تأقلم النازحون تدريجياً مع الوضع، وبدأوا يبيعون للتجار في القرى القريبة وعبر الحدود السلع والمنسوجات التقليدية التي قاموا بصناعتها أو حياكتها يدوياً، وبادلوها بالسلع الغذائية والصناعية، ثم نقل بعض المهاجرين حرفهم ومعاملهم الصغيرة إلى ماجرسان وازدادت حركة التبادل وسرعان ما انتعشت تجارتهم وتوسعت. دبَّت الحياة في المنطقة واكتسبت ملامح جديدة مع توافد مزيد من الناس إلى المكان من أجل التجارة، وتحولت الخيام تدريجياً إلى بيوت صغيرة، والبيوت الصغيرة إلى منازل كبيرة انتصبت في معظمها فوق الجبال. انتشر العمران وظهر عدد من المصانع والمؤسسات، وافتُتحت المدارس والمحلات والمتاجر كما بنيت جامعة ضمَّت معظم الكليات. اتسعت رقعة المدينة فصارت أكثر امتدادا بعد أن شُق العديد من الطرق بين الجبال التي أصبحت تتلألأ بوميض النوافذ المضيئة في البيوت المنتصبة فوق أجزاء كثيرة منها، تنعكس سمات الحياة الشرقية بتنوعها وتراثها الزاخر في ثنايا شوارعها المتعرجة وأزقتها الحلزونية الزاحفة نحو الأعلى، وكأنها تشق طريقاً نحو السماء، يكتنفها غموض

المنعطفات والتعرجات الحجرية المتلاحقة وسحر القمم الشامخة البعيدة التي لا تلقي بالاً لمن يقيم عند أقدامها. امتزجت تلك السمات مع بعض الملامح الأوروبية نتيجة تداخل الثقافات فيها والاختلاط الحاصل عبر الحدود. فأصبحتَ تسمع الناس يتحدثون التركية واليونانية والبلغارية وأحياناً الألمانية في الوقت نفسه. حافظت المدينة على عزلتها وانفرادها رغم توافد القليل من السياح إليها لمنافع مادية أحياناً أو للاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة بين الجبال والوديان التي تضطجع ماجرسان في أحضانها بسلام. ووصل عدد سكانها إلى نحو سبعة ملايين. لم تكن المدينة تحبذ التعامل مع المستثمرين الأجانب إلا قلة منهم، وفضَّل سكانها الاكتفاء الذاتي ثم أقاموا حكماً ذاتياً بتشكيل مجلس حكومي خاص بهم، وكان همهم الرئيسي في البدايات النهوض باقتصاد المدينة لينعم الناس بالازدهار والرخاء، بعد ماضٍ سقيم ذاقوا خلاله أقسى أنواع البؤس والحرمان والشقاء.

لكن ماجرسان، مع ذلك، لم تكن المدينة الفاضلة كما كان الكثير يظن، فرغم التحوّل والغنى، ظل جيل الآباء والأجداد فيها يعاني من أحوال نفسية سيئة بعد تجربة التهجير والتشرد، ومعظمهم فضلوا الانزواء وعدم الاختلاط مع الآخرين فبنوا لأنفسهم بيوتاً فوق الجبال طلباً للتفرد والعزلة. وعُرف عن السكان عامة قلة الابتسام والتجهم والجدِّية الواضحة والصرامة وحتى العنف وكذلك عدم الترحيب بالغرباء وخاصة الغربيين منهم، حتى أن الجيل الأصغر تم تدجينه والتحكم بطريقة تفكيره على أسس الهوية الأولى والتقاليد في الوطن الأم وما حمله الآباء من ذكريات على طريق الآلام، فأصبح نسخة معدلة قليلاً عن الآباء، وربما أكثر

قسوة. كما أن البعض من هؤلاء الشرقيين تناسوا ما أوصلهم إلى تلك البقعة من الأرض، والجحيم الذي هربوا منه في بلادهم، والظلم الكبير الذي وقع عليهم من العالم أجمع. فعادت أمراض اجتماعية وسياسية للظهور، ومارس البعض التسلط بقوة المال والسلاح تيمُّناً بمن تسلطوا وأبادوا البشر في الأوطان المدمرة، وكان هناك من يجري الفساد في عروقه، وقد ورثه عن أجداده، يمالئ وينافق ويدوس الآخرين لمآرب شخصية. وظل قلة من الناس يعانون الفقر والإهمال ويقيمون في خيام على أطراف الدويلة غير قادرين على تغيير حياتهم وسط التنافس والتهافت الشديدين في الداخل.

وعلى غرار الكثيرين، سمعتُ عن ماجرسان وأتيتُ للتدريس فيها بكلية الفنون منذ عدة سنوات. وكنت بعد تخرجي من الجامعة في دمشق عملت أستاذاً في كلية الفنون أيضاً لنحو سبعة أعوام خلال الحرب. حين حفرت مشاهد الموت في روحي جروحاً لم يتوقف نزفها في يوم. تركتني الحرب مشدوهاً وتائهاً لا أدري في أي وجهة أسير، وموت صديقي ثائر رمى بي في خانة اليأس وجعل الدنيا تضيق وتصغر أمام عينيَّ. كنا جميعاً أحياء إنما مشاريع أموات. ما أصعب أن تعيش منتظراً الموت في كل لحظة!

نزح الناس بالملايين، وهاجر وفر الكثيرون هرباً من الموت. وبعد طول تفكير قررت الرحيل مثلهم، وأنا الذي أعشق الوطن وأترنم به في الصحو والمنام، فالأوضاع المعيشية باتت جحيماً لا يطاق وإلحاح والديَّ اللذين أرادا لي الخروج من أتون الحرب شجعني على اتخاذ القرار.

بعد رحيلي توفي أبي في الشام كمداً بأزمة قلبية. وكان دائما يدعو الله ويردد "لن أرحل.. ما بقدر أترك الشام يا رب.. خليني موت بوطني وأندفن بترابه.. يا رب لا تحرمني من أرض الشام". واستجاب الله لدعائه. ولم تقرر أمي اللحاق بي إلى ماجرسان رغم توسلاتي ورغم وعودها بأنها قد تغير رأيها وتلحق بي في يوم. وكلما طال الحديث بيننا على "الفايبر أو فيس بوك" كانت تقول إنها تفضل أن تموت في بيتها "هو جنتي وحياتي ومماتي.. كيف بدِّي غير حياتي ولاَّ بدك موت بعيد عن أبوك.. والله صعب.. أنتو الشباب لازم تشقوا طريقكم للمستقبل.. بس نحنا الماضي.. ما عاد منا فائدة.. بكرا بتخلص الحرب وبترجع أنت على وطنك وبتلاقيني بانتظارك".

كانت كلماتها تشحن الحزن في أوصالي فتشعرني أن جزءاً مات في داخلي عندما فرقتنا الحياة. وكان عليَّ أن أواصل، فمستقبلي ليس هناك في الوطن الذي لفظني.

كان أول ما لفت نظري عندما حطَّت أقدامي في ماجرسان، هو ذلك التمثال الضخم الذي يتوسط ساحة المدينة، ويمثل لاجئة بوجه متعب وثوب ممزق كشف عن أحد كتفيها وجزء من ساقها، تضم ابنها إلى صدرها بإحدى ذراعيها، وبالذراع الأخرى صرَّة ملابسها. انتصب التمثال أمام عيني شامخاً يعكس رمزية المكان وقدسيته، ويحمل أوجاع الماضي في ثنايا رخامه وحجارته ليظل ذاكرة وتذكرة للغادين والرائحين ولمن يريد أن ينسى. في كل زاوية من شوارع المدينة تحضرني ملامح الشام، وطني الأم أمام عينيَّ. وتتسارع دقات قلبي فتتفجر دماؤه شهقات دامعة عندما أرى أسماء المطاعم والمحلات الشامية والشوارع تتكرر دون

ملل. وكأن الناس حملوا الوطن الذي أدمنوه على ظهورهم وأتوا به إلى هنا. كنت أرى حجارة الشام وبيوتها المدمرة تقف أمامي ثانية مليئة بنبض الحياة، وكأن التاريخ أعاد بناءها من جديد هنا ونفخ فيها روح المدن المنكوبة هناك. المحلات والشوارع والباعة والبيوت، كلها عادت للحياة، إنما بوجوه وملامح تعكس حزناً دفيناً ووجوماً متأصلاً وكآبة تسري في كل شيء. كنتُ أشعر أن أرواح الناس ليست هنا، بل إنها لا تزال هناك معلقة بين بوابات دمشق وشبابيكها وحاراتها العتيقة. فلا ذاكرة لهم هنا. ذاكرتهم لم تندثر كما اندثر الوطن والناس، عبثاً يحاولون استبدالها. يتمددون في الحدائق ويجوبون المتنزهات هنا، فتتراءى لهم حدائق الشام المخضبة بالدماء والمهجَّرين الذين افترشوا أرضها والتحفوا سماءها هناك. يدخلون المطاعم ويتناولون الكبة المقلية والكبة اللبنية وورق العنب والتبولة والحلويات الشامية بأنواعها هنا، إنما وكأنهم يتناولونها وهم نيام، يغصُّون باللقمة تنزل في حلوقهم ناراً تكويها عذاباتُ الجائعين والمحاصرين والباحثين عن كسرة خبز تقيم أودهم هناك. يرفعون أيديهم بعلامة انتصارهم نهاراً، وينفضون الغبار عن هزائمهم ويعيدون ترتيبها في خزائن ذاكرتهم ليلاً. ومثلهم عشتُ في ماجرسان سنوات طويلة متلفعاً بصور الشام وعبق أنفاسها وشوارعها وأزقتها أينما توجهتُ. ولم تكن نفسي تجد نفسي إلا داخل الذكريات التي تشعلها المشاهد والأسماء من حولي، فأتوق للعودة. كنتُ أشبه بغيمة عابرة للوقت تجسد الذهاب الدائم والرحيل.

في بداية عهدي بالمدينة اعتدت ارتياد مطعم "أبو زاد" وهو أحد المطاعم الكثيرة المنتشرة في مركزها. ذهبتُ مرة لتناول

الفطور بصحبة جمال، زميلي في الكلية، وزوجته راما. طلبتُ تسقية بالزيت وطلب جمال تسقية بالسمنة وفضلت زوجته الفول المدمس الغارق بزيت الزيتون. كان جمال يأكل ساهماً وصامتاً إلى أن قال "هذه التسقية لا تقارن بتسقية المطاعم هناك.. طعمها مختلف.. لا طعم لها.. "

فقالت زوجته بصوت خافت ونظرة حزينة "خلينا نحمد الله.. يا جمال.. خلينا ننسى.. "

أحسستُ باللقمة توقفت في حلقي.

تابع جمال "نحنا هون ناس بلا هوية ولا جنسية. ناس بتشكلهم الغربة على هواها.. ناس وجودهم ووجوههم بدون ملامح.. وقت بتكون بلا ملامح أنت مخيف.. غامض متل شبح.. "

قصص كثيرة، سعيدة وحزينة، ظلت مخبأة في ذاكرة الناس في ماجرسان وستموت معهم في الأرض الغريبة. ولعلها كانت بلسماً أو مرهماً يرطب أرواحهم من جفاف راح يشققها. هناك عرفتُ أن ألم الفراق والغربة كان أصعب من الموت.

عائلة فريد الهاشم

كانت عائلة فريد الهاشم التي تدور قصتي حولها من أوائل الأسر الهاربة من الحرب. عاشت في تلك المدينة بعد أن نشطت الحياة فيها، وتمكنتْ من بناء مستقبل أفضل في ماجرسان، فنعمتْ بحياة جيدة وبحبوحة من العيش.

بدأت القصة في يوم من أيام أواخر صيف عندما كان فريد الهاشم عائداً من عمله حيث استرعى انتباهه جمع من الناس في الشارع الذي يضم بيته. وقف فريد بعيداً يفكر في كيفية الوصول إلى وسط تلك الدائرة البشرية لمعرفة ما يجري، تائهاً مشدوهاً والمكان يغلي بالجلبة والأصوات، وأناس يتراكضون للانضمام إلى الحشد، وآخرون يتدافعون ويتزاحمون لإيجاد فسحة بين الأجساد المتراصة ينقِّل عينيه بين التجمع وابنتيه جوديا وساريا تطلان من الشرفة وتحدقان بالناس دون أن تلفتا إليه. وجد فريد نفسه وسط الزحام، وإذا بفتى قصير القامة يندفع بين الحشد بقوة بغية الوصول إلى المقدمة ويضع رأسه بين الأرجل والسراويل ليفتح طريقاً لنفسه، ما جعل فريد ورجلاً آخر من الواقفين يفقدان توازنهما ويترنحان ومن ثم يصطدمان بالآخرين الذين اختلَّ توازنهم أيضاً نتيجة الدفع، فوقعوا فوق بعضهم بعضاً، وارتفعت الأصوات تقريعاً للفتى الذي ظهر في المقدمة وشعره مبعثر في كل اتجاه أشبه بقنفذ داهمه عدو فجأة فانتصبت أشواكه. ساد الهرج والمرج، إلى أن سمع الجمع صافرة سيارة الإسعاف فأفسحوا لها

المجال وفتحوا طريقاً لمرورها بصعوبة بالغة، والصافرة تلعلع دون توقف.

كان فريد يكذب حدسه بوقوع جريمة أخرى. لكن التدافع أنساه سبب مجيئه إلى المكان فراح يكيل الشتائم بصوت منخفض، للفتى المتهور الذي أصبح في المقدمة. وعندما اعتدل بوقفته لمح جاره أبو سليم. تبادلا التحية وسرعان ما سمع أبو سليم يقول "يبدو أنها جريمة قتل". تطاول فريد بين الرؤوس فرأى لدهشته رجال الإسعاف ينقلون جثة مغطاة بملاءة بيضاء عرف أنها لامرأة. تابع بعينيه الذاهلتين الجثة إلى أن استقرت في سيارة الإسعاف التي أطلقت صافرتها للتحذير مرة أخرى وتحركت مبتعدة، وسمع أبو سليم يردد " لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمها".

"إنها الجريمة الثالثة التي نسمع عنها وتذهب ضحيتها امرأة " قال فريد عابساً وهو يرقب جوديا تلتهم فطيرة اللحم بنهم ووجه جامد، ثم يجول ببصره بين الأطباق دون أي شهية للأكل.

قالت ساريا بصوت خافت "شيء مفزع ومريع. إنها ليليان جارتنا. حضرنا حفل زفافها قبل أسبوع".

تمتمت جوديا بشبه ابتسامة جافة ودون أن تنظر في وجه أبيها "كان منظركم مضحكاً وأنتم تقعون فوق بعضكم البعض.. "

"وهل الوقت مناسب لمثل هذا التعليق!" قالت ساريا بنظرة تأنيب إلى أختها. تعجب فريد في نفسه، فهو قلما يرى ابنته جوديا مبتسمة.

التزمت جوديا الصمت وعادت لوجومها تمضغ اللقمة بقوة وتركز بإمعان في وجه أبيها.

لم تعد ترى أساريره تحمل ذلك الغضب والقسوة اللذين زرعا الخوف في قلبها وقلب أختها في زمن مضى، بل اكتست وجوماً ومسحة ندم تتنقل من أحشائه إلى عينيه. وكثيراً ما تراءى للفتاتين بريق دمعات تغرق في سواد عينيه، في كل مرة وقف متأملاً صورة زوجته معلقة على الجدار المقابل للنافذة في غرفة الجلوس.

ازداد صمتاً وشروداً مع مرور الأيام وفضل الانزواء بعد موتها. كان يدرك أن الفتاتين لن تغفرا، وأنه سيحمل وصمة انتحارها حتى الموت. وكان يوقن أن حمم براكينه أحرقت كل شيء، ولم تخلف سوى الخواء والشحوب والنقمة داخل ابنتيه.

قالت ساريا وهي تتمدد في السرير وتضع الغطاء فوقها فيما جوديا تمر بالفرشاة فوق شعرها الأشقر أمام المرآة "يا إلهي، ليليان كانت فتاة رائعة، لماذا تُقتل؟ وقبلها رنا، الموظفة في الشركة التي يديرها والدنا. وربما كان هناك غيرهن لم نسمع عنهن.. لا أفهم الدافع وراء هذه الجرائم التي تحدث. شابات تزوجن حديثاً يُقتلن! لماذا؟"

قالت جوديا وهي تداعب خصلات من شعرها وتغرق بعينيها الزرقاوين داخل المرآة "شيء مخيف. لماذا يترصد القاتل هؤلاء أعني من تزوجن حديثاً؟"

رفعت ساريا شعرها البني الغزير إلى الأعلى قبل أن تضع رأسها على الوسادة متسائلة "ترى هل هو رجل معتوه أو مريض نفسي، وما أكثرهم هنا، ينتقم من النساء الصغيرات بعد أن مر بتجربة دمرت خلايا عقله؟ كأن يكون أحب فتاة ثم هجرته

وتزوجت من آخر! فراح يقتل كل من يسمع أنها على وشك الزواج؟"

"ربما" أجابت جوديا وهي تواصل التحديق في المرآة دون أن تلفت إلى أختها، ثم أردفت "قد تكون الفتاة التي أحبها بين قتلاه، ربما هناك عشرات القتلى.. أشعر بالخوف والقشعريرة.. "

كانت ساريا في الرابعة والعشرين من عمرها، أنهت دراستها الجامعية في كلية الحقوق وبدأت خوض غمار العمل كمحامية متدربة على أحد المحامين ممن لهم باع طويل في كسب القضايا الجنائية. وكانت أختها جوديا التي تصغرها بعامين، طالبة في السنة الثالثة بكلية الفنون التي أدرِّسُ فيها.

دأبت ساريا وجوديا على قراءة وجه أبيهما كل يوم مذ كانتا طفلتين، وكأنه بوصلة تحدد لها مسارهما نحو يوم عاصف أو آخر هادئ. لكن صفحاته اليوم صارت تبعث على الملل في نفسيهما، فجسده وملامحه وكل شيء فيه غارق في بئر صراعه النفسي. يتخبط داخل بحر متلاطم من المعاناة، غير قادر على الخروج منه، بما يوحي لابنتيه أنه سيغرقهما معه دون أن يشعر.

لم يكن يتصور يوماً أن يصل الأمر إلى حد الانتحار.

عندما تناولت نسرين الزرنيخ وأنهت حياتها قبل ست سنوات، كانت قد وصلت إلى خط النهاية. تضخم إحساسُها بعبثية العلاقة معه وعدم القدرة على التحمل، فوضعت حداً لعذاباتها بقرارها الرحيل إلى غير ما رجعة.

تحطم فريد بقرار انفصالها موتاً. كان انفصالاً مدمراً كاد يأتي على آخر أنفاسه، بعدما أطبقت حبال غيرته وشكوكه وعنفه على كل شيء. خنق نفسه والمرأة التي أحب، ولم يترك لها فسحة

تتنفس فيها، بل تمثل خوفاً متربصاً بها وبابنتيها. كان يفرِّغ حمْلَ هزائمه وأوجاعه الماضية القريبة والبعيدة، صراخاً وشتائم وهيجاناً، في سلَّة زوجة عاشت تكمر الحنين إلى الوطن والتوق للعودة إليه بلحن موجع ينبعث من أناملها إلى أوتار غيتارها، وتحدٍ مغلَّف بالصبر حيناً والمرح حيناً آخر.

أحبها إلى درجة الجنون وجلدها بسياط من نار فأحرقته بالرحيل. كان مطمئناً على الدوام أنها لن تقدر أن تخرج من دائرته الجهنمية، لكنها اهتدت إلى الموت سبيلاً للخروج. هزمته نسرين شر هزيمة وكان يعتقد أنه المنتصر، فإذا بها ترميه في برزخ ما بين الحياة والموت.

كان فريد يجد في وجه ابنته ساريا بعضاً من راحة لروحه المنهكة، فابتسامتها الخفيفة الدائمة، وقسمات وجهها السمحة، وعيناها العسليتان الناعستان اللتان تشعان بالوداعة والسكينة، وكلماتها الهادئة الرزينة، كلها كانت سلوى له في وحدته وعذابه، وربما رذاذاً يخفف أتون الجحيم المستعر داخل ضميره. لم تكن عيناها تحملان ذلك الحقد الأسود والغضب اللذين يضطرمان في عيني أختها جوديا.

كانت جوديا صورة من أمها تتكرر أمامه نسخاً متعددة، لكنها بغلاف واحد، رُسمت عليه عينان حارقتان كبحر أزرق مائج، يشتعل الجمر فوق لجته.

دأبت جوديا على تجنب الحديث معه، واكتفت على الدوام برمقه بتلك النظرة الحادة كالسكين تطعنه بها فتستصرخ جروحه نزيفاً، وتزيده انكماشاً وتقلصاً داخل ذاته.

لن تغفر. رسوماتها نيران تشتعل وعيون تحملق وأمطار سوداء تنهمر طوفان دموع. كل لوحة مداد أزرق يتطاير، وكل لون عقاب، وكل ريشة سيف يقطر دماً. في كل خلوة لها مع الأنامل والريش، هناك بركان يتفجر وعبث بالأشكال وتبعثر ألوان.

كان أبوها يراها تتحرك بروح أمها. وكان يشعر أن تلك الروح المعذبة تقمصت جسد جوديا فباتت عقاباً يلاحقه.

في الليالي الحالكة الظلمة كان يسمع الصدى يردد صوت نسرين تنادي جوديا، فينهض فزعاً من فراشه، يضيء المصباح ويتلفت حوله ثم يهرع إلى النافذة توقاً لرؤيتها. كم تمنى أن يرى شبحها حقيقة ليركع ويطلب الغفران علَّها تنهي عذابه. لكن كل شيء كان مجرد أصوات تتداخل وربما هذياناً يصل به إلى عتبات الجنون. اعتاد أن يسمع تلك الأصوات على فترات متباعدة بعد موت نسرين. كانت مجرد أصوات مبهمة وبعيدة سرعان ما تختفي لأسابيع ثم تعود لتتسرب إلى سمعه بشكل خافت أثناء النوم. لكنها في الآونة الأخيرة ازدادت حدة ووضوحاً.

مرات عدة وفي منتصف الليل قاده إحساسه بوجود شيء ما إلى فتح باب غرفته والإسراع إلى الطابق الأرضي حيث مصدر الأصوات، وعند وصوله إلى منتصف الدرج، كان يفاجأ بجوديا واقفة في وسط الصالة تحت ضوء خافت كتمثال من حجر، ووجهها لوحة صماء وعيناها تحدقان في الفراغ، وما أن تنتبه إلى وجوده حتى ترمقه ثانية بتلك النظرة القاتلة وتمشي ببطء باتجاهه دون أن تحيد ببصرها عنه، ثم تقطع السلم بلمح البصر وتختفي في غرفتها.

في تلك اللحظات كان يحس أن جوديا لم تكن هي جوديا، بل أنها نسرين تبدت أمامه شبحاً يطارده. ولطالما ترددت تلك الفكرة المخيفة في داخله فتنتابه قشعريرة ويكره قدوم الليل.

حاول التقرب من ابنته مرات، غير أنه اصطدم على الدوام بجدار صلد يمنعه من الاختراق إلى عالمها، أجبره على التراجع وسربله بخوف مبهم لا يعرف تفسيراً له. ولطالما تمنى أن يختفي بين تلافيف ذاكرة أخرى، متجرداً من ماضٍ يعذبه. لكن جوديا تمثلت سياط ماضٍ تثخن جسده وعقله بالجراح، وتشده إلى الوراء بقوة وكأنها صورة مضخمة لأمها تتأرجح في أفقه.

لم تكن نسرين امرأة عادية، استطاعت بصبر أن تستوعب غيرته مرات كثيرة، وأن تئد مشاعر النقمة في داخلها في بداية زواجهما، إنما لم تكن مستعدة للتخلي عن كبريائها وقناعاتها وميولها.

كانت ترتدي أجمل ما في خزانتها وتصفف شعرها وتعتني بزينتها في كل خروج أو مناسبة. وروحها المتوثبة تسبقها أينما حلت خلال الزيارات وبين الأصدقاء. شعر فريد على الدوام بتلك القدرة الكامنة فيها على ترك بصماتها في كل مكان. امرأة عشقت الموسيقى وأحبت الشعر وطالعت الكتب واقتحمت الحياة ولفتت الأنظار بما تملكه من موهبة وتميز. كانت على عكس زوجها تعوض خسارة الوطن والأهل، وتطفئ جمرة الغربة الحارقة بإبداعها الموسيقي ومحاولة التأقلم مع الزمان والمكان. وأدرك فريد أن عليه رفدها بالسلام والمساندة، لكنه استسلم للنقيض المعشعش داخل نفسه. فتشتتَ بأوهامه ووساوسه. قبل أي خروج لا بد أن يتفحص وجهها وملابسها ويتمعن في مظهرها "خففي

من هذا الماكياج.. ما في حاجة تلفتي الأنظار. ". تتظاهر بمسح أحمر الشفاه، وتترك معظمه. تتفنن في تسريحة شعرها وملابسها. فيتوقف فريد عند باب البيت قبل الخروج "غيري هالفستان.. لا يتلاءم مع أجواء المناسبة"، وتبدله نسرين بفستان أكثر إثارة فيمضي حانقاً. وعليها أن تنتبه لحديثها وكلماتها وضحكتها بين الناس. قابلت نسرين إملاءاته بالصبر أحياناً وبالتمرد أحياناً أخرى. أي نظرة من رجل إلى زوجته تشعل فتيل الغيرة وتحرق الود وتقلب الحياة جحيماً. أي كلمة إطراء أو مديح من قبل شخص للأنغام الحالمة المتسربة من أناملها إلى أوتار غيتارها خلال المناسبات، هي تعبير سافر، في رأيه، عن رغبة جنسية مفضوحة. لم تكن تدري أتضحك، أم تبكي وتصرخ؟ وهي تراه فجأة وراءها في المطبخ أثناء غسلها الأطباق، في الشقة التي كانا يسكنان فيها بداية زواجهما، ينقل بصره من خلال نافذته بين نوافذ الجيران في البنايات المقابلة، عله يرى رجلاً كانت نسرين تحدثه عن بعد، فرذاذ الماء على زجاج النافذة دليل في عقله على أنها كانت تشير بيديها المبللتين لأحد ما. أي ضحكة عابرة أو تعليق منها، كثيراً ما كان فريد يفسره محاولة لجذب انتباه الرجال الحاضرين. وكان على نسرين أن تدافع عن نفسها فهي في قفص الاتهام وحسب. توارى حبها له خلف مرارة مستشرية وحزن مكبوت. بدأت تكتشف أن غيرته تحولت إلى مرض مستعصٍ، ومع ذلك لن تتخلى عن طريقتها أمام طوفان غضبه، ولن تغير أسلوب حياة أحبته خشية براكينه، حتى أنها أحياناً كانت تثير غيرته عمداً. أضحت مع الأيام مرجلاً يغلي تنبعث منه أبخرة الحقد والغضب، وبدأ ينشأ في داخلها إحساس بالضياع واليأس

من مستقبل بدا قاتماً. أرادت الخروج من دائرته، لكن حصاره كان مقيتاً. راحت تفقد مع الأيام الدافع الجميل للحياة. تركها بأوهامه نهباً لأحاسيس مرهقة أدركت من خلالها أنها لن تحصد من هذا الزواج سوى التعب وتدمير الأعصاب، فمرضه لا شفاء منه. وكانت تحتاج إلى جرأة كبيرة لكي تقرر كيفية الخروج، فأولئك الذين يدخلون الحياة باندفاع وجرأة يخرجون منها باندفاع وجرأة أيضاً. كان موتاً سريعاً صاعقاً بلا أنين أو دموع، تركه مذهولاً وحائراً ومصدوماً ما تبقى له من العمر.

ماتت نسرين في سريرها هادئة الملامح، باسمة الثغر، شعرها الأشقر مستلقٍ بوداعة إلى جانبها يعانق كتفها ويسرد قصة الجمال الراحل، بثوب أزرق اللون، ممسكة بكتاب في إحدى يديها وبغيتارها باليد الأخرى كلوحة جميلة لامرأة قررت المغادرة بصمت، في أجمل حلة، محتضنة الحياة التي أحبت.

كسرتْ قلبه وهشمت ابنتيها. ركعت ساريا عند سريرها، تضم كف أمها إلى صدرها وتبكي بحرقة، والأب ينظر ذاهلاً، وجوديا تصرخ صراخاً هستيرياً وتخبط رأسها بقوة على الجدار المقابل لسرير الموت إلى أن أدمته بشدة، والأب والأخت يهرعان لتهدئتها فتشير بإصبعها إلى أبيها وعيناها تتقدان ناراً "أنتَ قتلتها.. أنت قتلت أمي.. أنت المجرم يا أبي.. "

الفصل الثاني

كانت قاعة المرسم هادئة في ذلك اليوم. بعض الطلبة منشغلون بنحت مجسم أمٍّ تحمل طفلها، والبعض الآخر انتشروا خارج المبنى لرسم الحديقة بأشجارها الباسقة وشتلات الورود المنتشرة في زواياها، وفي خلفيتها الأبنية المتراصة والشارع الذي يعج بحركة السير.

تنقلتُ خلف الطلاب أتأمل رسوماتهم وأعطي توجيهات لبعضهم، لكنني توقفتُ فجأة خلف جوديا أنظر بعمق إلى لوحتها، إذ استرعى انتباهي اختفاء الورود فيها، والأشجار التي تحولت أغصانها إلى ثعابين ضخمة بعيون واسعة، بعضها يلتف حول البعض الآخر، والبعض امتد ليصل إلى الشارع ويلتف حول رقبة أحد المارة. والحشائش لونت بالأزرق القاتم، والأبنية تطاولت في شكل ناطحات سحاب سوداء.

"أهكذا ترين المنظر؟"، قلتُ.

صمتت جوديا طويلاً تنظر إلى لوحتها، قبل أن تجيب بصوت خفيض:

"أجل، أستاذ نَمير".

"لكني طلبت أن يُنقل المنظر كما هو، وليس كما يريد أن يراه كل واحد منكم".

"لا أستطيع أن أراه سوى هكذا" قالت جوديا وهي تنظر بثبات في وجهي، ما جعلني متردداً وحائراً.

كنتُ أدرك أن جوديا تعاني صراعاً داخلياً، وحاولتُ مرات سبر أغوارها بالحديث أو الجدل حول ما تخطه ريشتها، ولم أستطع الوصول إليها. كانت سراً تكشف رسوماتها بعضاً من خفاياه فتزيدني فضولاً. فضول راح يتحول إلى انجذاب لا تفسير له، وكل ما فيها يوحي بسلبية لا تشجع على الاقتراب، لكنه ذاك الدافع المعتمل في داخلي دائماً، للكشف ومعرفة طوية الآخرين وطريقة تفكيرهم ومواقفهم من الحياة. كنتُ تعديتُ منتصف الثلاثينات من عمري في تلك المرحلة من حياتي بعد أن أمضيتُ نحو أربعة عشر عاماً في تدريس الرسم والنحت. قدَّمتُ معارض مختلفة وحازت على إعجاب النقاد والجمهور. كانت قدرتي على تحليل كل شخصية ألتقيها، وقراءة ما خلف الوجوه والملامح من خلال الطاقة تنعكسان فناً إبداعياً في لوحاتي ومنحوتاتي. غير أن ما أذهلني في جوديا هو تلك النظرة التشاؤمية الصادمة في أعمالها، رغم تميزها، والتي تقلب الأمور رأساً على عقب. ما زلتُ أذكر مجسم الحب لرجل وامرأة متعانقين، نحتته جوديا بطريقة فنية رائعة، إنما حولت يديّ المرأة إلى حبلين يلتفان حول رقبة الرجل وعيناه شاخصتان ذعراً. لطالما تساءلتُ فيما إذا كانت تحمل حقداً دفيناً على الرجال أم على النساء. فمرة تعكس أعمالها رجولة شريرة وأخرى أنوثة مرعبة. كانت جوديا، لي، جميلة وقبيحة في آن ولم أتمكن من تحديد موقف منها.

كثيراً ما رحت أرقبها من بعيد تجلس بين زملائها في كافيتريا الجامعة، تتكلم قليلاً، وتتحدث باقتضاب، مكتفية بإيماءة من رأسها نفياً أو إيجاباً أو بابتسامة عابرة وأحياناً ضحكة غير مكتملة.

أحسستُ أنها غالباً لا تركز تماماً فيما يقال بل تغيب عن الحاضرين، وعيناها تسبحان في ملكوت آخر. في صباحات تطل مشرقة باسمة، بتسريحة جذابة وتنورة ضيقة تفصِّل مفاتن جسدها النحيل، وحذاء بكعب عالٍ يزيد من رشاقة قوامها. وفي صباحات أخرى تهمل شعرها وتعقصه بفوضى إلى الخلف، كأنها لم تمرر الفرشاة فوقه بعد استيقاظها، عيناها منتفختان ووجهها شاحب، ترتدي بنطالاً فضفاضاً وحذاء رياضة. تدخل المرسم بملامح يكسوها عبوس وقلق، وتنزوي متجنبة الحديث مع الآخرين. يوم في غاية البهجة وآخر غاضبة عصبية.

احترتُ كيف أفسر هذين الوجهين المتناقضين جداً في جوديا. كنت أسمع همهمات من هنا وهناك بأنها فتاة صعبة المراس. ونقل لي أحد زملائي في الكلية أن بعض الطلاب يصفونها "بالفتاة المعقَّدة". لم تكن تسمح لأي زميل أن يتجاوز معها حدود الحديث عن المواد المقررة واللوحات والرسومات. وكان الجميع يدرك ذلك بما فيهم زميلها جواد الذي أحس بميل جامح إليها ورغبة في التقرب منها، لكنه كان حائراً كيف يمكن له أن يتقدم خطوة باتجاهها وهي التي لا يصدر عنها سوى الجفاء. أحستْ بنظراته تلاحقها كيفما اتجهتْ، إنما لم ينمّ عنها سوى تجاهل تام له وأحياناً نظرة ازدراء خفية أقضَّت مضجعه. كان جواد يتحدث دائماً عن جوديا بإعجاب أمام صديقيه منير وعلاء ويتمنى أن يحظى بحديث عابر معها في يوم ليبثها لواعج قلبه، فهي بالنسبة له أشبه بحلم يراوده في الصحو والمنام، لكنه حلم مستحيل. نصح علاء صديقه بالابتعاد وقال إنها فتاة عصيَّة على الفهم، ويتوقع ألاَّ تكون لها أي علاقات عاطفية، وقلبها مغلق دون الرجال. فعقَّب منير قائلاً

"أقسم أنك غارق حتى أذنيك في حب جوديا، يا جواد، ولو كنت مكانك لجثوت راكعاً أمامها أخطب ودها، وبعدها سترى كيف سيكون رد فعلها.. ".

ضحك الأصدقاء الثلاثة وجواد يردد "إنها مهمة مستحيلة.. إنه الحب المستحيل".

في معظم الوقت كانت جوديا تتجول في حديقة الكلية مع صديقتها المقربة ناهد تتحدثان في أمور شتى ومشاريع قادمة. ذكرتْ ناهد مرة أنها تنوي أن تقيم معرضاً للوحاتها بالتعاون مع زميلها مروان فهو يملك استديو أنيقاً في وسط المدينة، ثم سألتها فيما إذا كانت تودُّ المشاركة ببعض اللوحات، فردت جوديا أنها ستفكر في الأمر.

كان الطلاب يعرفون أن جوديا وناهد صديقتان حميمتان، ويلاحظون أنهما تفضلان عدم الانخراط في النشاطات المختلفة التي ينظمها الطلاب في الكلية، بل حتى أنهما تتجنبان الأحاديث المطولة معهم.

كان جواد يختلق مناسبة للتحدث إلى جوديا، مرات بالثناء على لوحاتها ومنحوتاتها والإشادة بها، فترد جوديا بكلمة شكر عابرة. ومرات أخرى بإطراء مظهرها وطريقة اختيارها للألوان والموديلات أو تسريحة شعرها، فلا يلقى سوى مجرد نظرة طويلة فارغة ترنو بها إليه ثم تمضي غير عابئة. وكأنها ترضي نزعة ما في داخلها لدى رؤيتها للشباب يلاحقونها بنظراتهم وتقابلهم بعدم الاكتراث. إنما لم يكن ممكناً معرفة كنه هذه النزعة وما وراءها. تجرَّأ جواد مرة وأفضى بما يكنُّه لها من إعجاب خلال وجودهما في كافيتريا الكلية، قال لها "أنت فتاة متميزة

وجميلة.. وأنا أحمل لك مشاعر منذ زمن ويبدو أنها لم تعد مجرد إعجاب، بل هي أكثر من ذلك، يا جوديا، أكثر بكثير.. ". نظرتْ في وجهه طويلاً ثم قالت محتدة "هكذا إذن؟ قلتَ إنك تريد التحدث بشأن مشروع يخص لوحاتي، لم أكن أظن أنك جئت إلى هنا وطلبت محادثتي من أجل غاية في نفسك، وأنا أعتبرها غاية دنيئة. اسمع! لا فائدة من محاولاتك.. إياك أن تقترب مني بعد اليوم أو تلاحقني بنظراتك. لن يحصل خير.. أنا لا أريد أن أجرحك أكثر. يكفي.. لم أعد أطيق حصارك لي.. ابتعد هذا أفضل لك، يا جواد".

تلقى جواد صدمة متوقعة. جرَّب أن يسلك الطريق المعتاد والطبيعي الذي يمكن أن يوصل شاباً إلى قلب فتاة عن طريق الإفضاء بما يحمله لها في قلبه، رغم معرفته أن جوديا ليست كالأخريات والطريق إلى قلبها وعرة وصعبة.

ليس فقط جواد من أحبط، فأنا ما زلت أذكر يوم انفجرت جوديا غاضبة، وكانت في سنتها الجامعية الثانية، وراحت تكيل الشتائم لطالب آخر يدعى "سيف". كان جريئاً، لاحقها وتغزل بها وطلب منها موعداً للتعارف، وكانت النتيجة شتائم وإهانات. وشهد الطلاب كيف "مسحت به الأرض" وأجبرته على الهروب مائة سنة ضوئية بعيداً عنها، بعد أن وجهت له صفعة مدوية على وجهه رمته أرضاً وهي تصرخ "أيها المتطفل الطفيلي.. هل تظن أن بإمكان كائن مثلك أن يلفت نظري؟. سأفصفص عظامك وأرميها للكلاب قبل أن يحصل هذا.. ". هرع الطلاب لمساعدته على النهوض، فيما هو مذهول ومتفاجئ وغير مصدق أنَّ صفعتها كانت على درجة من القوة جعلته يدور مرة حول نفسه قبل أن يسقط على الأرض. نهض يصرخ وقد استشاط غضباً

"أنت إنسانة مجنونة.. معقدة.. لا تستحقين أي مشاعر طيبة.. يجب أن تكوني في مصحٍّ عقلي.. ". استمرت المشادَّة بينهما لنحو عشر دقائق والطلاب حولهما إلى أن تدخلتُ وطلبتُ من جوديا أن تهدئ من روعها وتتوجه إلى قاعة الدرس، ثم اصطحبتُ سيف إلى كافتيريا الكلية لتناول الشاي ومعرفة ما حدث. قال إنه استوقف جوديا وطلب لقاء معها إنما لم يتوقع مثل رد الفعل هذا. ثم شرح لي أنه أراد التقرب منها منذ بداية العام الدراسي لكنه فشل، وزاد أنها فتاة عجيبة فقد كان يرى عينيها تغزلان الحب والكراهية في نفس الوقت فيتعذر فهمها. لم يكن يدري أكانت تشجعه أم تحذره إلى أن بات في حيرة من أمره. طال الحديث بيننا ثم أخذنا إلى حياته الشخصية ووجدتُ متعة كبيرة في الاستماع إليه. حكى لي كيف فقدَ أسرته في الشام، أمه وأباه وأختيه خلال الحرب، سقط برميل متفجر فوق بيتهم في ضاحية قرب دمشق، وكان هو الناجي الوحيد بعد أن انتشلوه من بين الأنقاض. تربى عند بيت عمه الذين فرُّوا إلى ماجرسان منذ سنوات طويلة وكان في الرابعة من عمره. نفرت دموع من عينيه مسحها سريعاً بيده قائلاً "أصبح كل شيء مجرد ذكرى.. ذكرى كاوية للنفس. ما بقي في ذاكرتي رجال يصرخون وهم يسحبونني من الركام، وجدران إسمنتية تكومت فوق بعضها بعضاً وطوابق أصبحت كتلة واحدة أشبه بالجبل.. وجثث وأشلاء غطاها التراب. بتُّ طفلاً يخشى الموت.. يكرهه.. لا أرى سوى صوره المخيفة.. كنت أرتجف وتصطك أسناني كلما سمعتُ دوي انفجار أو قذيفة.. ".

صمتَ طويلاً ثم تابع "لطالما تساءلتُ لماذا يموت الناس، تخيلتُ أن الموت عقوبة تنزل بالبشر لأنهم عاشوا الحياة حتى وإن

كانت بائسة، وكأن الأقدار تقول لنا.. لا تحبوا الحياة لأنها لا تستحق.. لأنها تنتهي بالموت.. لم تعد حكايا الجنة والنار تثير مخيلتي.. بل صرتُ أؤمن أننا نموت كأي جيفة نافقة ونوارى الثرى ونختلط به وينتهي الأمر.. نحن لم نكن موجودين أصلاً قبل ولادتنا.. كنا عدماً.. لا شيء.. وننتهي عدماً وتراباً.. ومع ذلك تظل فكرة أن الأغنياء والملوك والحكام والمتنفذين سيموتون مثل الفقراء والبؤساء تماماً، تواسيني كثيراً وتشفي غليلي. لا أحد يبقى أو يمكن له أن يهرب من الفناء.. نحن أمامه سيَّان.. جيفٌ مدفونة في التراب.. إنه الجزء العادل من الموت الذي أرفع القبعة وأنحني له رغم كراهيتي له.. أتذكر عذابنا وهروبنا.. رحلة البحر المرعبة والقارب المهترئ يتأرجح بنا في عرض البحر.. أحلامي مفزعة.. ما زلت أرى نفسي في الحلم طفلاً في الرابعة من العمر ملقىً على شاطئ بودروم التركية بعد غرق المركب وعلى وشك أن أفارق الحياة، أو أنني أحاول إيجاد منفذ للخروج من بين الحجارة والكتل الإسمنتية.. ووجهي معفَّر وثيابي متسخة.. أكاد أختنق.. وأحاول أن ألتقط أنفاسي بصعوبة ثم أستيقظ على صراخي المكتوم.. ".

صمت سيف قليلاً ثم أردف "عمِّي فقدَ عينه في الحرب.. هو دائم الشرود.. ما زال يتحدث معي عن الماضي.. لا يستطيع أن ينسى.. يحكي عن بيته الواسع المطل على متنزه جميل، ويعدد غرفه ويصف أثاثه ويعرِّج على الجيران والباعة والأسواق.. ثم يقول القذيفة فتحت حفرة في جدار بغرفة مكتبه وأصابت شظية منها عينه.. ".

توقف سيف عن الكلام مرة أخرى واجماً ثم قال "زوجة عمي تمشي مثل شبح في البيت لا تتكلم إلا نادراً.. ماتت ابنتهما ناديا في الحرب.. لم يبق سوى ابنهما أحمد.. هو في كلية العلوم هنا.. حاولتْ الانتحار عدة مرات.. أعني زوجة عمي.. حاولت مرة رمي نفسها من الشرفة وأخرى قطعت شرايين معصميها.. ولكنها أُنقذت.. وهي تعيش الآن على المهدئات وحبوب الاكتئاب".

صمت سيف ثانية. وأحسستُ بسكاكين تنغرز في قلبي دون أن أعلق.

واصل سيف الكلام "عانيتُ اليتم والوحدة.. أنتظر أن يحدث شيء يغير هذه الحياة.. كانت جوديا حلماً من أجل التغيير.. ".

عاد سيف يشرح موقفه في أنه لم يكن يريد أن يبدو متطفلاً أو أن يسبب لها إزعاجاً، وقال إنه منذ أن شبَّ عن الطوق كان يبحث عن صديقة أو شريكة تشاطره أحلامه وآلامه، وعزم تقديم باقة زهور لها. قال متأملاً فنجان الشاي أمامه "لقد سئمتُ الوحدة، ولكن ليس من السهل معاشرة الناس هنا.. إنهم انعزاليون.. لا يظهرون وداً ولا محبة.. حتى أنهم عدائيون.. وخاصة الفتيات.. كأنهن فقدن خاصية الحنان والرقة التي تميز الأنثى.. النساء هنا لا يتلهفن إلى الجنس الآخر، بل يحاولن تجنبه والابتعاد عنه. قاسيات في ملامحهن وتصرفاتهن، وجوديا لا تختلف عنهن.. غريبة الأطوار.. فوجئتُ بردة فعلها الهمجية.. ".

تمتم قبل أن ينهي حديثه بالقول "إنها غير طبيعية... يا إلهي.. لا أصدق كانت صفعتها صفعة ملاكم شرس وليست صفعة فتاة".

منذ ذلك اليوم لم تعد جوديا تعني شيئاً بالنسبة لسيف. بل كان يتجنبها، ويترك مسافات بينه وبينها في حال تواجدهما في نفس المكان.

كنتُ أرقبها طوال الوقت بطرف عيني دون أن تلحظ، يتوالد في داخلي إعجاب بها وميل ينمو تدريجياً وحيرة كبيرة، فأعود إلى بيتي حاملاً أسئلة جمة.

جافاني النوم في ليلة، فمرَّت في خاطري لوحة جوديا المزعجة. نهضتُ من سريري وتوجهت إلى مرسمي. أمسكت بالريشة ووقفت أنظر في الصفحة الكرتونية الفارغة فوق الحامل لدقائق، وبدأت أخط وجه جوديا. أعبث بالألوان قليلاً، ثم أمزق الصفحة وأضع أخرى، غير قادر على تحديد ملامح ذلك الوجه. توجهتُ إلى المطبخ لتناول كأس من الحليب علَّه يساعدني في أن أترك الرسم وأخلد إلى النوم، إنما أحسست بعدم الرغبة في ذلك، فوضعت القهوة على النار، وأنا مدرك أنها ستزيد من أرقي. عدت إلى المرسم حاملاً فنجاني، ورحت أرشف منه قليلاً متأملاً الصفحة الفارغة، ثم سرعان ما تحركت ريشتي بسهولة فوق الفراغ الكرتوني، مخترقة عمق العينين الزرقاوين بقوة. خططتُ الشفتين المكورتين، وتركت ألواني تسبح داخل الشعر الأشقر المسبل، حول الوجه. استغرقتُ في العمل لأكثر من ساعتين، تشحذني انطباعاتي ورؤاي عن الفتاة اللغز التي أدخلت الحيرة إلى عقلي.

في اليوم التالي، رأيتها تدخل الكلية متأنقة باسمة. درستُ تفاصيل وجهها من جديد، وهي جالسة تتمعن في كتاب، دون أن تلحظ "لا شيء يوحي بالوجه الآخر فيها اليوم".

ما زلت أذكر تلك الرحلة الطلابية إلى الشاطئ. كان الطقس صيفياً بديعاً. تجمع الطلاب يومها في ساحة الكلية استعداداً للانطلاق. بحثتُ بعينيّ عن جوديا فلم ألحظ لها أثراً. صعد الطلاب إلى الحافلة، وسط جلبة وضحكات، حاملين أدواتهم وحقائبهم، وأنا أتلكأ في الصعود، وأنظر حولي لعلِّي أرى جوديا قادمة، وقد حلَّ انقباض في صدري خشية ألاَّ تكون عازمة على الذهاب، إنما وبعد نحو عشر دقائق رأيتها من بعيد راكضة، تحمل حقيبتها وأدواتها وتلوح بيدها لكي تنتظرها الحافلة. صعدتْ لاهثة تعتذر عن تأخرها، فأحسستُ بارتياح.

انطلقت الحافلة بنا نحو البحر مارة على مدن وقرى كثيرة وسط امتدادات لسهول خضراء تعج بالكروم وأشجار الفاكهة والزيتون، تتبدل إلى اللون الأصفر مع انبساط حقول القمح بين حين وآخر. والنسائم القوية تمشط السنابل وشعر جوديا الذي سرق منها لونها أثناء اندفاع الريح من نافذة الحافلة. كانت تتأمل المشاهد وترسم صوراً في مخيلتها كعادتها، وقد انسلخت تماماً عما حولها من ضجيج وأحاديث وضحكات. لم تصحُ إلا بعد أكثر من ساعتين عندما هتفت صديقتها ناهد بجانبها على المقعد "جوديا، انظري هناك.. البحر يلوح في الأفق.. ". ظهر البحر كشريط أزرق يمتد من بعيد ويزداد اتساعاً كلما شقت الحافلة مسارها مقتربة منه، بين طرقات ضيقة متعرجة، تحفُّها أشجار تكاثف فيها الاخضرار، وتعانقت أغصانها العالية في شكل أقواس فوق ممرات موغلة في الفيء والغموض، إلى أن انتهت بانفراج مضيء، فظهر البحر ممتداً ومسترخياً كسلطان يعلن احتلاله الأرض والوجود. تتراقص الشمس في لجته فتنتثر فوقها سبائك ذهب وبريق.

ترجل الطلاب من الحافلة عند وصولنا إلى مطعم يطل على البحر. ازدحم معظمهم لبعض الوقت على الشرفة الواسعة للمطعم لرؤية المشهد البانورامي، ثم تحلقوا حول الطاولات لطلب الطعام. ظلت جوديا واقفة منفردة على الشرفة تتأمل سحر الطبيعة والجبال المنتصبة على الجانب الغربي من البحر، تحتضن فوق قممها ووسطها أشجاراً مائلة إلى الخارج، بما يوحي أنها على وشك السقوط لتطاولها عكس الجاذبية.

كنتُ أقف في الخلفية أنقِّل نظري بين الجميع، وأثبت عينيَّ بين الفينة والأخرى على جوديا، ووجهها إلى البحر وظهرها لي، غارقاً في سحر شعرها الذهبي المسترسل إلى منتصف ظهرها يتطاير مع النسمات كأجنحة طيور شاردة، أو ومضات شعاع يظهر ثم يختفي.

كنت أسمع صمتها يرحل عائداً إلى ما قبل أكثر من عشر سنوات عندما قدمتْ إلى البحر آخر مرة مع أمها وأبيها وأختها في عطلة لثلاثة أيام. أمها تسبح لبعض الوقت ثم تخرج وتلف جسمها بالبرنس، وتمشي باتجاه أبيها الذي كان جالساً باسترخاء في كرسي على الشاطئ تحت المظلة ويضع نظارات شمسية على عينيه. هي وأختها تلعبان بالرمال وتحفران أخاديد تتسرب إليها مياه البحر. يخلع فريد نظارته، وينظر عابساً باتجاه نسرين تقترب منه، ثم يقول:

"لماذا لم تطلبي مني أن آتي لك بالبرنس لتضعيه على جسمك قبل خروجك من الماء ووقوفك شبه عارية بملابس السباحة على الشاطئ؟ ألم نتفق على ذلك قبل نزولك إلى البحر؟".

تنظر الطفلتان الى أبيهما بعينين خائفتين، والأم تجلس دون أن ترد سوى ب "نسيت.. لا تحوِّل الأمر إلى دراما من فضلك".

امتعض واشتعل بركان في داخله فراح يرغي ويزبد ويلومها لعدم المبالاة وعدم الاهتمام بما يقول، بل واتهمها بمحاولة عرض مفاتنها أمام الناس. كانت نسرين تنظر إليه صامتة لا تريد أن تفسد الرحلة وتحوِّل سعادة طفلتيها إلى حزن وخوف. بكت ساريا فزجرها الأب وهزَّها بعنف طالباً منها أن تسكت. جوديا لم تبكِ بل واصلت حفر الرمال بقوة دون أن تنظر إلى أحد.

وكما في كل مرة، تنتصر العاصفة، وفي داخل نسرين نار تتأجج، إلى أن صرخت بعد لأيٍ:

"كفاك.. توقف لقد أفسدت حياتنا ورحلتنا". صفعها بقوة فلفت أنظار الرواد في المكان، وأطاح بالكؤوس والزجاجات على الطاولة فتناثرت في كل مكان، وقرر العودة وإنهاء الرحلة.

عادوا بقلوب اختلطت نبضاتها بالكدر، وفي قلب جوديا الصغيرة وعقلها حُفرت أخاديد رمال عميقة، لا تزال تتسرب إليها مياه سوداء ودموع.

تتداعى الذكريات قاتمة، وتحدق جوديا في جوف البحر فتستشري ملوحة في فمها وأعماقها ويكتسي وجهها عبوساً. لم تشأ أن تلتفت إلى الخلف لكي لا يرى الآخرون وجومها، بل ظلت عيناها تسبحان لفترة طويلة داخل اللجة الزرقاء، تدفع بأمواجها إلى الشاطئ دون توقف أو كلل. الحزن يتضخم في صدرها كما البحر يتجشأ أمواجاً تتضخم وتنتفخ وتعلو لتغدو جبالاً مائية هائلة، سرعان ما تنفجر كفقاعة وتنفلج عن رذاذ وصفائح مائية تهبط وتنسحب مبتعدة، وتعود الأمواج لتتضخم وتعلو أكثر وأكثر

وتقترب منها فتحس بالدوار وبدوران الأرض. يبتلع تسونامي الماء اليابسة والناس وكل شيء. الناس يصارعون داخل الأمواج، وهي مغمضة العينين ومستسلمة للغرق داخل اللجة بهدوء، تتنفس ماء مالحاً. الجميع يلاطمون الموج من أجل الوصول إلى شاطئ بعيد يتراءى لهم مثل سراب أو حلم. تتمايل قوارب الموت. تترنح. تكاد تنقلب. لا تعرف عن البحر سوى قصص الهاربين من جحيم الحرب بحثاً عن حياة أخرى. ثمة قوارب تبحر إلى المجهول. البحر يهبهم موتاً آخر. قبراً آخر. البحر أيضا قرر أن ينهي مسيرة حياة ويقلب الزمن، مثله مثل الطغاة يغيِّرون التاريخ، مثل أبيها الذي دفن أمها، مثل كل الرجال الذين يقتلون الحياة. في تلك اللحظة أيقن الغارقون في الوهم أن الولاء للماء وأن الإقامة جبرية بين أحضانه. الماء ينتظر ليحمل جنائزهم على أكتافه الحريرية ويهدهدها. كان صراخهم يخيفها ويتدحرج داخل أذنيها مثل حمم حارقة أو طلقات نار سمعتها تخترق نوافذ البيت في حمص. تصغي إلى هدير الأعماق وهدير المحرك. لسعت الريح والرذاذ وجهها، وهبطت السحب فوق الماء فاختفى الأفق والسماء وأطبق اليم متغولاً فصار الكون ماء. صوت أبيها يصرخ في أذنيها " لا تخافوا.. لا تخافوا.. رح ينقذونا.. ".

صُنع الخوف العظيم خصيصاً لنا. صُنعت الغربة القاتلة خصيصاً لنا. صنع الألم الجبار خصيصاً لنا. أمام الكاميرات على الشاطئ مجرد صور وتقارير "كيف أنت يا صغيرتي الجميلة؟". ردت على حامل الكاميرا براءة سنواتها الأربع "كنا حنموت لا سمح الله..".

"جوديا، ماذا ترغبين أن نطلب لك؟ هل تفضلين السمك؟" قال أحد زملائها وهو يقترب منها.

حاولت تجنب النظر إليه لكي لا يرى عينيها المحتقنتين ثم هزت رأسها إيجاباً.

جلس جواد منفرداً وغارقاً في الرسم. لم يعد يلاحق جوديا بنظراته، بل تعمد تجاهلها وتحاشيها على الدوام لكنها تركت ندبة في داخله، فسَّر موقفها تعالياً واستكباراً، وراح يحلل في عقله أنها ربما تتطلع إلى رجل ثري يغدق عليها الأموال والعطايا مثلها مثل سائر الفتيات الشرقيات اللواتي يولين جيب الرجل ورصيده البنكي أولوية على سائر مزاياه الأخرى. ومثله مثل باقي الرجال عندما يحللون النساء. كان يجهل التركيبة التي تشكلت منها جوديا والتي جعلتها كائناً مختلفاً عن بني البشر. إنه يرى نفسه وسيماً وموهوباً، وكثيرات يتمنين صحبته في الجامعة. ويعجب لقلبه الذي قذفه في مرمى جوديا وأذاقه الذل. يريد أن ينتقم، ولكن كيف؟ بالتعرف على فتاة أخرى لمكايدة جوديا وإثارة غيرتها؟ هذا جنون. هو لا يميل إلى أيٍّ من الفتيات حوله. وماذا لو أوقع نفسه في هذا المأزق ثم لم تُعِرْ جوديا أي اهتمام للأمر؟ يغرق في التفكير فيداهمه منير وعلاء بالمزاح والتعليقات محاوليْن التخفيف من أثر الصدمة عليه كما هو دأبهما دائماً. قال علاء "تعيش وتاكل غيرها". ويكمل منير قائلاً "ياما حطم الحب قلوباً، لا يأتي من الحب غير وجع القلب".

ومع ذلك هناك وجه آخر للمسألة في عقل جواد. لعل رفْضَ جوديا محاولات أي طالب التقرب منها كان يخفف بعضاً من خيبته، وكان عليه بالتالي أن يستسلم في عقله لحقيقة أنها لن تلتفت

إليه أو لغيره، وربما لن تكون لرجل في يوم. ومع ذلك ولَّد رفضها حقداً ورغبة في الانتقام داخله. إنما لا يدري كيف ينتقم حتى الآن.

وقفتُ أتأمل الشمس الراحلة بخجل، وقد تلفعتْ بوشاح برتقالي محمر، وحولها بضع غيمات صغيرات تعانقت مع خيوط حمراء مذهبة الأطراف كأيدٍ تلوح بالوداع. نظرتُ باتجاه جوديا ورحت أتأملها طويلاً منهمكة بالرسم، انعكست أضواء الأصيل القانية على وجهها الجميل، وتطايرت خصلات من شعرها مع النسائم الحانية، تلامس وجنتيها حيناً ثم تعود لتحلق بحرية حيناً آخر. زاد جمالُها المنظرَ جمالاً وألواناً، وزادني إعجاباً وافتتاناً. شعرتُ فجأة بالرثاء لحال جواد وفكرت كيف له أن يئد تلك المشاعر التي يحملها لجوديا، ويكمل مشواره الجامعي كأن شيئاً لم يكن، وكيف أني بدأتُ أحمل نفس المشاعر مثله تماماً ولنفس الفتاة دون أن يكون بمقدوري الاقتراب أو التعبير، فأنا أستاذها ومن المفترض ألاَّ أُبدي مشاعر أو ميلاً لأي طالبة في الكلية. رفعتْ جوديا رأسها عن اللوحة فرأتني أرنو إليها بعينين هائمتين. تعانقت نظراتنا طويلاً وتسارعت في صدري دقات قلبي. اخترقتُ هالتها فوجدتها شفافة رقيقة تضوعت في أجوائها رائحة الكهرمان والعنبر، ورأيت ما يشبه سريان تيار مكبوت في أوصالها تمخض عن ابتسامة مترددة حالمة، لكنها سرعان ما عادت للتركيز في لوحتها عابسة تتساءل عما يجري في داخلها. نظرتْ إليَّ ثانية بتردد وعادت ثانية للرسم. اقتربتُ وتأملتُ ملياً في لوحتها فدهشتُ. الشمس قطعة جمر ملتهبة، والهالة البرتقالية حولها تحولت إلى بقعة دماء واسعة تتساقط منها قطرات إلى البحر الذي اكتسى بلون أزرق غامق أميَل إلى السواد، اختلط مع الدماء المتساقطة.

والغيوم الصغيرة الوادعة أصبحت طيوراً جارحة فاتحة أفواهها بشكل مقيت، وأشخاص على الشاطئ اندلعت النيران بأجسادهم. وقوارب مقلوبة وجثث طافية فوق سطح الماء.. أحسستُ بقشعريرة وقلت:

"لماذا تحولين كل جمال إلى قبح؟".

رنتْ إليَّ بعينيها الزرقاوين طويلاً ثم قالت بابتسامة خفيفة:

"القبح فيه من الجمال أيضاً. الأمور نسبية... وليس كل قبح قبيحاً تماماً، أليس كذلك؟".

صمتُّ. وعدتُ أنظر في اللوحة ثانية، وقد أثارت في نفسي انزعاجا. إنما لم أواصل الحديث، بل تابعتُ جولتي على الطلاب.

اقتربتْ مني جوديا فجأة بعد أن رجعتُ إلى مكاني على الشاطئ لأتأمل الغروب من جديد، وسألتني:

- أستاذ نمير، ألا ترى في لوحتي أي لمسة جمال ألا ترى فيها ما يثير الانتباه؟

- بالتأكيد هي مثيرة للانتباه وحتى الخوف. إنها ريشة فتاة دخلت في حرب مع الحياة.

قالت وهي تجول ببصرها في المناظر الممتدة وتشير إليها بالريشة في يدها:

- انظر هناك بعيداً.. الأشجار.. الرمال.. البحر الطيور.. كلها كائنات وديعة وساكنة..

توقفت قليلاً ساهمة وكأنها تنظر في الفراغ ثم تابعت:

- ولكن يمكن للشمس أن تدمر سكينتها وتحرقها.. يمكنها أن تنهي هذا الكوكب مثل أي قوة أخرى.

ـ جميل أن تعبري عن نفسك وأحاسيسك من خلال الرسم، لكنني أتمنى فعلاً أن أرى ريشتك تخط الجمال في يوم. فأنت إنسانة جميلة ووجهك رائع وريشتك مبدعة، ويؤلمني أن أرى قبحاً وصراعاً في داخلك.

التزمت جوديا الصمت ثم قالت بحدة خفيفة:

ـ الوجود صراع والحياة معركة. فكيف تبحث عن جمال داخل معركة؟ الأجدى أن تبحث فيها عن الدماء والموت والخوف ولا شيء غير ذلك... ومهما أسبغت عليها من صفات جميلة ولونتها بريشة الفنان فإن حقيقتها واحدة. إنها صراع مرير من أجل البقاء، بكل ما في هذا الصراع من تهافت وجشع واقتتال وتدمير وموت".

توقفتْ تنظر إلى اليمِّ طويلاً ثم استدارت لتنظر إليَّ، فشاهدتُ ما يشبه الشرر في عينيها وهي تقول:

ـ انظر! ألم يقتلونا؟ ألم يهجِّرونا من بلادنا؟ ألم يدمِّروا وجودنا؟ هل نسيتَ ما حدث؟ هل تستمع إلى أبيك أو جدك يحكيان قصصاً مرعبة أشبه بالأساطير تفوق في بشاعتها حكايا جنكيز خان وتيمورلنك وهتلر وموسوليني وستالين ولينين وكل المجانين من الرجال الذين حكموا الأرض؟ الرجال الذين يدمرون الأرض.. ثم، هل اختلفنا هنا؟ هل صرنا أناساً أفضل؟ نحن بقايا من ماتوا.. من كانوا هناك، ولا يمكن للبقايا أن يكونوا أفضل من الأصل.. هل بنينا المدينة الفاضلة؟ لا.. ما زلنا نحن.. تباً لنا ولعجزنا.. تباً لكم أيها الرجال الغارقون في تفاهات الحياة.. يا من قتلتم الحياة.. تباً

لرقصكم على الجثث.. تباً لتهافتكم وجشعكم.. تباً لي ولصمتي وبكائي..

تهدجتْ كلماتها الأخيرة فابتلعتْ معظمها. نظرتُ في وجهها وعينيها الدامعتين طويلاً ثم قلت:

ـ يجب أن ننسى ونواصل، يا جوديا،.. ومهما كان موقفك من الحياة، فإن الوجه الجميل الآخر لهذه الدنيا موجود، سواء اعترفتِ بوجوده أم لا..

توقفتُ قليلاً ثم أردفتُ بتردد:

ـ لا يمكنني أن أرى القباحة فقط، مثلك.. أنا أبحث عن الجمال قدر ما استطعت.. أنبش خلف الشر لعلِّي أرى خيراً.. ليس هناك من شر كامل.. أحاول أن أكتشف الوجه الآخر للأشياء المختفي خلف ضباب الأيام.. لطالما تمعنتُ في وجهك. سامحيني إذا قلت إني أرى فيه براءة، وفي الوقت ذاته حقداً وغضباً. حتى أن ملامحك أثارت فضولي فبدأت برسمها حسب ما تخيلتها، إذا لم يكن عندك مانع.

أجابت بنوع من البرود ودون أن تنظر إلي:

ـ لا أرى ما هو مثير في وجهي..

ـ على العكس، وجهك يبعث على الرسم... ملامحك جميلة، ألا يكفي هذا؟ رغم الجانب الآخر في داخلك الذي أراه يتجلى بين حين وآخر.

حطَّ صمت لدقائق طويلة ثم قالت وكأنها تحاول شفاء لحظة وجع:

ـ هل أستطيع أن أرى الرسم عندما تنتهي منه؟

ـ بالتأكيد.

انسحبت جوديا وتركتني أحلل بصمت فلسفتها عن الحياة والوجود. كنت أكتشف يوماً بعد آخر أن الجميع في ماجرسان كباراً وصغاراً ومن جيل إلى آخر وفي كل مناسبة يرددون نفس الكلمات عن التهجير والتشرد والظلم. نُسجتْ ذاكرتهم على هذا الأساس ولم تستطع الحياة الجديدة محو الألم. ومن تلك الذاكرة الجامدة اكتسبوا صرامتهم وجديتهم.

انضمتْ جوديا إلى بعض الطلاب الذين انتهوا من عملهم وراحت تبحث بعينيها عن صديقتها ناهد.

قال أحدهم "هل تعلمون أن مروان وناهد سيعلنان خطبتهما قريباً.. انظروا هناك في زاوية الشاطئ. إنهما في حالة عشق..".

نظرت جوديا باتجاههما وأطالت النظر وقد اتسعت عيناها دهشة وتساؤلاً. عندما اقتربا من المجموعة قالت إحدى الفتيات "متى سنسمع الخبر السعيد؟"

ضحك مروان والتزمت ناهد الصمت. فقال مروان "هذا الأسبوع".

نزل الخبر على جوديا كالصاعقة. صديقتها الأقرب إلى نفسها عازمة على الزواج. ظنت على الدوام أن علاقة ناهد بمروان لم تتعدَ كونها صداقة زمالة سطحية. أخفت عنها سرها ببراعة، ولم تفصح لها يوماً عن هذا الحب، ولم تلمِّح إلى أنها تميل إلى مروان من قريب أو بعيد.

سرعان ما قذفت جوديا بكلمات غيبت الابتسامة عن وجه ناهد "زواج؟ هل تمزحين؟ الزواج أسر وقيود، والارتباط جنون".

ساد صمت ثقيل للحظات. فقال هُمام ضاحكاً وهو عرف بحبه للمزاح والفكاهة "ليس بالضرورة. الزواج فيه الكثير من التسلية

والتغيير. وهو شر لا بدَّ منه. يوم نكد.. ويوم سعادة ويوم جدل.. ويوم طفلك يضحك ويمرح ويوم آخر مريض وهكذا... يعني أن الحياة تصبح مليئة بالنشاط والحركة والتسلية وكذلك بالهمِّ".

كانت جوديا تنظر بثبات في وجه صديقتها التي حاولت تحاشي النظر إليها، ثم في الوجوه الأخرى، وستار من العبوس أسدل فوق وجهها، والجميع منهمكون بالحديث عن الاستعدادات لخطبة الصديقين ثم زواجهما. اقتربت منها ناهد وقالت هامسة "سنتحدث فيما بعد".

حدقتْ جوديا في مرآتها طويلاً وخواطر تتلاطم في عقلها "كيف قررت ناهد الزواج؟ ألم تعقدا العزم معاً على ألا تقدما على مثل هذه الخطوة في يوم؟ ولماذا أخفت عنها هذا الأمر؟ تجنباً للتقريع أو اللوم منها؟".

كانت ناهد عازفة عن الارتباط بعدما شهدت فشل العلاقة الذريع بين والديها وانتهاءها بالطلاق. وعلى غرار جوديا، اعتبرت أن الزواج اغتيال لحرية المرأة واعتداء سافر على حقوقها وشخصيتها ووجودها. فكل منهما ترى فيه سقوطاً داخل دائرة محكمة الإغلاق بسلطة رجولية كاملة. فما الذي قلب هذه القناعة رأساً على عقب؟ ولماذا تبدلت الأمور؟

فُتح باب الغرفة. وقفت ساريا بالباب معاتبة أختها لعدم تحيتها لها لدى وصولها إلى البيت، فبررت جوديا ذلك بشعورها بالانزعاج لخبر خطبة صديقتها ناهد وتفاجئها به. فقالت ساريا:

ـ ما المفاجئ في الأمر؟ كثيرات يعبِّرن عن عدم الرغبة في الزواج أو الحب ثم سرعان ما يقعن في أحضانه. النساء يثرثن كثيراً، لكنهن يبقين نساء لا يستطعن العيش من دون الرجل.

فقالت جوديا:

ـ بل قولي يقعن في حبائله.. لا أصدق.. يتربع جنون في عقولهن عندما يباغتهن الحب وأنا لا أستطيع تفسير هذا الجنون.

ـ يظل الزواج قيداً تضعه النساء طواعية في أيديهن، وزنزانة يدخلنها باختيارهن. أنا مثلك وكما اتفقنا دائماً، لن أدخل هذه الزنزانة بأي ثمن. إنما من العقلانية أن نفكر أيضاً في أن المرأة قد تقع في الحب، وهذا قد يقودها إلى الزواج.

ـ إنه جنون.. الزواج هو اللاعقلانية والحب نزوة تتلاشى.

ـ لا تصبِّي جام غضبك ولومك على صديقتك، يا جوديا، قد يكون الأمر خارجاً عن إرادتها.

ـ يكفي أنها أخفت عني سرها، لأشعر بأنها كانت بعيدة عني تماماً.

بقيت جوديا عابسة تتأمل الشارع من نافذة غرفتها طويلاً، والنسائم تلفح وجهها وتشتد قوة، ثم سمعت خشخشة مفاتيح أبيها بعد عودته من العمل.

لفَّ الليل الكون بعباءته، ونشر سكونه في الأجواء والأنفس فاستسلم الأنام للكرى. دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل واشتد عصف الريح في الأشجار والبيوت، فكان صفيرها عويلاً يخترق النوافذ وآذان النائمين، على غير عادتها في مثل هذا الوقت من أواخر الصيف.

نهض فريد من فراشه فجأة، وكأن طائفاً مر عليه فأيقظه، على وقع أصوات وصرخات بعيدة تملأ الدنيا. إنها تلك الأصوات ثانية، كانت نداءات مبهمة يرددها الصدى، واستطاع تمييز صوت نسرين بينها تنادي جوديا ويتداخل مع أصوات أخرى. هل

هو يهذي؟ لا يدري! يغمض عينيه محاولاً العودة إلى النوم، فيعود ويسمع صوت نسرين بوضوح هذه المرة ينبعث من الطابق الأسفل. نهض مذعوراً وتلفت حوله في الغرفة، ثم فتح الباب سريعاً، وهرول إلى الطابق الأرضي، قاطعاً السلم كالبرق. رأى جوديا واقفة في منتصف الصالة تحدق في الفراغ من دون حراك. اقترب منها، وصرخ "جوديا.. جوديا، ماذا تفعلين؟ ماذا هناك؟". نظرت إليه بحدة، مشت ثم صعدت الدرج بلمح البصر وكأنها تطير فوقه واتجهت ببطء إلى غرفتها دون أن تلتفت إليه، عاد للصياح يتبعها بعينيه "أأنتِ التي تصدرين هذه الأصوات؟ من أين تأتي هذه الأصوات؟ قولي.. انطقي!". لكنها لم تجب. دخلت غرفتها بهدوء وأغلقت الباب.

عاد إلى غرفته منهكاً. الأصوات اختفت إنما لا تزال تتردد في عقله بقوة. قذف بنفسه على السرير. إنه يخشى النوم. بات يكره النوم. عندما يغفو ستعود الأصوات. هو واثق أنها ستعود. ستوقظه من جديد وستذهب بعقله. هو متأكد أنها نسرين تعود في كل مرة من الموت لتقوده إلى الجنون.

ساريا تبتسم وتكتفي بالقول "إنها أوهام وتهيؤات"، وتؤكد له أن جوديا لا تغادر غرفتها ليلاً، وأن ما يراه ليس سوى حلم مزعج، أو ربما وهم من صنع عقله.

لمن يشكو وكيف؟ هل يذهب إلى طبيب نفسي وماذا يقول له؟ هل يخبره أن روح زوجته تجوب المنزل ليلاً؟ حتماً سينعته الطبيب بالجنون. لا أحد سيصدقه. كثيرون سيقولون إنه فقد عقله. ماذا يفعل؟ إنه وحيد في هذا العالم.

كلما غفت عيناه قليلاً، عاد وفتحهما بقوة وتلفت حوله. يغفو قليلاً وسرعان ما يفتح عينيه ثانية. ظلَّ على هذي الحال إلى أن انبلج الصبح فاستسلم لنوم عميق.

الفصل الثالث

كما في كل مرة، وعقب مثل تلك الليلة كان فريد يستيقظ في الصباح متعباً والصداع مطرقة تدب في رأسه. ينهض ويبحث عن قدميه فلا يعثر عليهما، فتدور به الغرفة والأثاث. تبدلت حياته وصار يتوق إلى هجعة عميقة وطويلة حُرم منها منذ زمن. باتت فكرة رؤية طبيب نفسي تسيطر عليه بعد أن عجز عن فهم ما يحصل له.

كانت ساريا تشعر بما يكابده، ولم تكن تدري كيف تخفف من معاناته أو تقدم له العون. قالت لأختها في صباح وهما تستعدان للخروج "هيا أسرعي، أبي ينتظرنا خارجاً، ليقلَّني إلى العمل وأنت إلى الجامعة". سكتت قليلاً ثم تابعت "لم ينم جيداً الليلة الماضية، هكذا قال. وجهه متعب ويبدو مرهقاً".

سألت جوديا "ما به؟ نفس الترَّهات؟".

"أجل"، أجابت ساريا "يسمع أصواتاً.. يقول.. إنه يسمع صوت أمنا تناديك.. ".

أجابت جوديا بلا اكتراث، وهي تتناول حقيبتها "إنه مجنون.. إنه رجل فقد عقله.. وأظن أن القدر يعاقبه لما اقترفه بحق أمي..".

اعتادت ساريا أن تجلس بجانب أبيها في السيارة، فيما كانت جوديا، وكما هو دأبها دائماً، تقعد في المقعد الخلفي على الدوام دون أن تنبس ببنت شفة طوال الطريق. وعندما تصل السيارة قريباً من مبنى الكلية تترجل وترمق أباها بالنظرة الحادة نفسها

فيدير رأسه إلى الجهة الأخرى. وقلما غادرت ساريا دون أن تطبع قبلة على وجنته.

كانت ساريا تتدرب على يد كبير المحامين محمود السامري الذي اشتهر في المدينة ببراعته واستقامته ومقدرته على كسب قضايا مختلفة في المحاكم. وكانت معجبة بطريقته الفذة في تفنيد الوقائع والدلائل لكشف ملابسات ما يعرض عليه من ملفات جنائية أو أحوال شخصية. تميز السامري بهيبة في شخصيته تفرض في حضوره جواً من الاحترام على الآخرين، فحاجباه السوداوان الكثيفان وصلعته الخفيفة ونظرة عينيه العميقة وطريقته الهادئة في الكلام تعكس ملامح رجل واثق ومطَّلع، أمضى عمراً بين كتب القانون والشرائع ومشاكل المجتمع ومعاناة الناس. كان بمجرد الاطلاع على ملف قضية ما، يحكم فيما إذا كانت ستنجح فيتابعها أم ستفشل فيعتذر عنها، مهما كانت الإغراءات المادية، على عكس كثيرين غيره ممن يعملون في سلك المحاماة. كان يردد أمام المحامين الجدد المتدربين عنده "إذا أردتَ أن تكون محامياً ناجحاً فيجب أن تكون صادقاً وأن تكون عوناً للمساكين لا للأقوياء".

انخرطت ساريا مع السامري في العمل على قضية تتعلق بجريمة قتل مدير شركة أجنبية في منطقة تجارية وسط المدينة. كانت منهمكة في عملها عندما تقدم منها، محاولاً استنباط أفكارها ومعرفة طريقة تداولها للمسألة بالقول:

"إن الصعوبة في هذه القضية هي أنها ستَترِكُ للقاضي سلطة واسعة لتقدير قيمة الأدلة المعروضة، وسيأخذ من الأدلة ما يطمئن إليه وجدانه. كذلك فإن شهادة الشهود ستكون مهمة جداً".

قالت ساريا:

"ولكن يُخشى أن يخضع بعض الشهود لإغراء مادي أو إكراه معنوي، كالتهديد أو الابتزاز".

أجاب:

"لهذا لا بد من الاعتماد على الأدلة المادية إلى حد كبير".

"سأحاول أن أجمع أكبر قدر من الأدلة بمساعدة المحامي وائل".

"أنت محامية لمَّاحة، وأنا واثق من قدراتك".

جلست ساريا تتمعن بالملفات لبعض الوقت. اقترب منها المحامي وائل حاملاً ملفات أخرى، ودار نقاش بينهما حول القضية نفسها إلى أن قال "أرى أنك مهتمة جداً بهذا الملف".

فأجابت "تماماً، لأنني مصممة على الحصول على مزيد من الأدلة توصلني إلى القاتل".

صمت وائل قليلاً، ثم راح يتكلم عن ثقته بأن الشبهة تدور حول نائب المدير في الشركة "أشرف الحموي"، ربما طمعاً بأن يحل محله. فاعترضت ساريا بالقول "أشرف أثبت أنه كان في مكان آخر عند وقوع الجريمة، كما أنه ليس بحاجة إلى إزاحة المدير. فهو يعمل نائباً له ومركزه جيد وكلمته نافذة".

فقال وائل "لا أحد يعرف الدافع وراء الجريمة.. ربما أراد الاستيلاء على الشركة فعلاً.. أو ربما يعاني من حالة نفسية معينة حسبما سمعتُ.. يقولون إنه يكره الأجانب.. في معظم أحاديثه يعبر عن كراهيته للغربيين ووجوب تطهير المدينة وطردهم منها.. ويكرر أنهم سبب بلاء ما حدث ويحدث. وهناك شاهد، أعني موظف في الشركة أدلى بإفادته في هذا المضمون... ثم قد

يكون أشرف ارتكب جريمته وبعدها توجه سريعاً إلى مكان آخر ليضلل العدالة".

صمتت ساريا ثم أردفت "أعتقد أن هذا مستبعد فالمكان الذي أثبت أشرف أنه كان فيه عند حدوث عملية القتل يبعد نحو ساعتين، والجريمة كانت وقعت قبل نصف ساعة فقط عند اكتشافها".

عاد وائل ليقول "ربما استأجر أشرف شخصاً للقيام بالمهمة وليس من الضروري أن يكون قد نفذها هو بنفسه.. ".

كان أشرف الذي تدور الشكوك حوله رجلاً دقيقاً في عمله منتظماً يضبط الموظفون ساعاتهم على وقت وصوله وخروجه من العمل. في أواخر الخمسينات من عمره ولم يفكر يوماً في الزواج. كان الناس حوله يصفونه "بالمتوحش" الذي لا يمكن أن تعيش امرأة في كنفه بسبب طبيعته الغامضة وطباعه الجافة والخشنة. عرف بعبوسه الدائم وعدم الاختلاط مع الآخرين. سريع الغضب لا يتغاضى عن أخطاء تحصل في الشركة مهما كانت صغيرة، أو إهمال ولو كان غير متعمد. قيل إنه كان يخرج مع مدير الشركة المغدور جون ستيفنسون، وكان أمريكياً، لتناول الغداء أحياناً في مطعم مجاور للشركة، إنما لم تكن علاقتهما من نوع الصداقة، بل هي فُرضت بحكم الأمر الواقع. ولطالما دخل الجانبان في جدل حامي الوطيس بسبب خلاف في وجهات النظر. في آخر طلعة لهما إلى المطعم تحدث جون بلغته العربية الركيكة عن صفقة أسلحة يعدُّ لها منذ فترة، "هي صفقة سترفع الشركة إلى مستوى لم نكن نحلم به في يوم.. ستدر أرباحاً هائلة.. تم الاتفاق عليها مع عدد من المسؤولين هنا وحظيت بالموافقة.. ".

ردَّ أشرف واجماً "وهل نحن بحاجة إلى المزيد؟. عندنا ما يكفي.. سبحان الله، هل سندخل حروباً؟ ذقنا منها ما يكفي.." واسترسل مؤكداً أن الناس بحاجة إلى المساعدة في بدء مشاريع صغيرة تشغِّل اليد العاملة وتقضي على البطالة وأن المدينة ليست بحاجة إلى مثل هذه الصفقات. لكن جون كان كاسحاً في نقاشه، راح يتحدث عن الأرباح التي ستجنيها الشركة والتي ستساعدها في التوسع والتمدد إلى الخارج. ثم وصف أشرف بأنه رجل لا يمتلك طموحاً بل يقف حجر عثرة في طريقه ويخالف ما تم الاتفاق عليه في مجلس الإدارة. ونوَّه إلى أن السلاح ليس فقط للحكومة بل من أجل الأفراد أيضاً. علت نبرة أشرف وهو يقول "ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ الكثيرون باتوا يمتلكون أسلحة هنا.. أتريدون تحويلنا إلى مجتمع بوليسي؟".

وإذا بجون يرد بالقول "معظم الشعوب تتحول إلى مجتمعات بوليسية في الوقت الحاضر.. انظر إلى اسرائيل.. امريكا.. الغرب.. آسيا.. الإرهاب والجرائم في كل مكان.. الناس تريد أن تدافع عن نفسها.. ".

فقال أشرف غاضباً "إنكم تدمرون كل شيء.. حتى إنسانية الإنسان.. تشجعون الناس على امتلاك السلاح لتجني شركاتكم ومصانع أسلحتكم الأرباح من مآسي البشر.. دمرتم صغار الكسبة.. أنتم تزرعون الفقر هنا عمداً.. وتشفطون الموارد والعائدات.. إنكم.. "

قاطعه جون بعد أن تغيرت ملامحه واصفرَّ وجهه لكنه احتفظ بهدوئه كعادته قائلاً "بإمكانك أن تغادر الشركة لو شئت.. وسنشتري الأسهم القليلة التي تملكها فيها.. أو يمكنني أن أصدر

قراراً بطردك.. ما رأيك؟ أعتقد أنه الحل الأمثل". نهض أشرف فجأة وكأن سيخ نار دخل في مؤخرته. انحنى فوق الطاولة فانقلبت عدة كؤوس وقبض على عنق جون ممسكاً بياقته بقوة "سأقتلك.. سأنهيك.. قبل أن تنهيني.. سأحسب الله ما خلقك.. جرِّب وسترى إلى أي مدى سيكون انتقامي وسخاً".

كانت الشركة التجارية البريطانية المنشأ تلعب دوراً حاسماً في تشغيل رؤوس الأموال في ماجرسان واحتكار بعض من مصادر الثروة المهمة. تلاشى الكثير من الأعمال الصغيرة نتيجة عدم القدرة على المنافسة.

كان أشرف هذه المرة بصحبة زميله منذر يتجرع كؤوس النبيذ الواحد تلو الآخر في أحد الملاهي الليلية عندما راح يقول مقهقهاً وهو يترنح قليلاً على كرسيه ويرفع كأسه ويخبطها بقوة بكأس منذر حتى خيِّل لهذا الأخير أن زجاجها قد تفتت "نخب عودتهم يا صديقي.. ها ها ها رجعوا بوجوه أخرى أو.. أو.. أقنعة أخرى.. بابتسامات شيطانية ماكرة.. هم في كل مكان.. أينما التفتَ تجدهم أمامك.. انظر إنهم حولك ولكنك لا تحسُّ بهم.. يريدون تدميرنا هنا أيضاً.. أو تذكر الوطن المدمَّر هناك؟ أين هو؟. خراباً يباباً.. يبتسمون ويفركون يداً بيد تشفياً.. ابتساماتهم صفراء.. هم سبب البلاء.. نحن من ذاك الشرق التعيس.. ".

رفع صوته قليلاً ثم وقف وراح يصرخ فالتفت روّاد المكان إليه "لا تخافوا.. لا تخشوا شيئاً.. اسرائيل الآن بأمان.. كما خططتم تماماً.. ونحن على العهد من سبات عميق إلى سبات آخر أعمق. حكامنا، أولادكم النجباء.. يرفلون بمتعة السلطة القذرة.. السلطة التي رفست الوطن ورفستنا.. ركلتنا.. رحل الوطن عنا

ورحلنا عنه.. لأننا جبناء.. أيها الناس! اسمعوا! أنا أكره وطني وشعبي ونفسي والحكومات العربية والعرب أجمعين.. أنا أكره تلك الأوطان.. ها ها ها نستحق.. كنا كالبهائم نساق إلى مصير لم نختره.. أناس في القبور.. وأطفال تحتضر.. ونساء تلطم.. ورجال تبكي.. هُجِّرنا قسراً.. بتنا بلا هوية.. أولادنا بلا هوية.. بلا ذاكرة.. بلا شيء.. لحقوا بنا إلى هنا.. أولئك الشياطين.. يريدون بيع السلاح لنا لنقتل بعضنا.. ونحن في غفلة.. يثرون من دمائنا.. يتخمون شعوبهم من حماقتنا.. يحركوننا مثل أحجار الشطرنج.. أكرههم.. يجب قتلهم لكي نعيش.. سأقطع أقدامهم.. تلك اللعبة لن تستمر.. أؤكد لكم أنها لن تستمر.. ستنتهي.. إنها الخطوة الأخيرة في لعبتي.. كش ملك.. يا جون.. ".

صمت وائل قليلاً يفكر فيما سمعه عن أشرف ثم تابع "قد تكون شهادة منذر حاسمة في تلك القضية، فهو يعرف عن أشرف الحموي أكثر من غيره. لكن الأدلة هي الأهم. وماذا عن القضية الثانية هل اطَّلعتِ على الملف بشكل تفصيلي؟".

قالت ساريا "الأم تطالب باسترجاع ابنتها بعد أن أصبحت في الثالثة عشرة من عمرها، ولن تتراجع. والمرأة التي قامت على تربيتها منذ أن كانت في الثانية من عمرها عندما فُقد أي أثر لذويها تكاد تفقد عقلها ولن تتخلى عنها. وكانت تلك المرأة تطوعت لأخذها وحضانتها بعد العثور عليها تائهة بين اللاجئين الفارين عند الحدود التركية".

فقال وائل "كيف عرفت الأم أنها ابنتها؟".

أجابت ساريا "رأت صورتها بالصدفة على الفيس بوك عندما كانت في الثانية من عمرها مع تلك المرأة.. فراحت تتقصى عنها إلى أن عرفت مكانها فتقدمت بدعوى إلى المحكمة لاسترجاعها".

قال وائل "في حال استطاعت الأم الحقيقية إثبات أنها فقدت الطفلة عندما كانت في سنتها الثانية أثناء النزوح، وأبرزت الأدلة التي بحوزتها حينها يمكن أن تربح القضية".

قالت ساريا " ومع هذا أرى في الأمر ظلماً. وعلى القاضي أن يستمع إلى رأي الطفلة، ويترك لها حرية الاختيار، وحتماً ستختار المرأة التي قامت على تربيتها".

قال وائل " القانون هو الذي يحكم ويمكن أن يكون للقاضي رأي في هذه القضية "، ثم أردف ضاحكاً "إذا كنت ستقحمين العاطفة في قضاياك فستكون هذه مشكلة. على كل حال دعينا من كل هذا. هل تقبلين دعوتي على الغداء اليوم؟".

هزت ساريا رأسها إيجاباً، وانطلقا إلى كافيتريا قريبة من المكتب. تطرقا إلى أحاديث شتى، القضايا في المحاكم وغلاء الأسعار ثم الزواج ومدى نجاح هذه المؤسسة، إلى أن قال وائل إنه يفكر في الزواج ربما بعد عامين، عندما يلتقي المرأة التي يختارها عقله وعندما يصبح جاهزاً لهذه الخطوة الكبيرة، خاصة وأنه تعدى الثلاثين من العمر. فقالت ساريا وهي تغرز شوكتها في قطعة لحم صغيرة من صحن الشاورما أمامها:

ـ شهية هذه الشاورما.. طعمها لذيذ...

توقفت قليلاً ثم أردفت:

ـ لا أظن أني سأدخل قفص الزوجية في يوم. أرى الزواج مشكلة لأنه يتطلب حديثاً متواصلاً بين شخصين وتناغماً من

الصعب تحقيقه. لا بدَّ من الحوار لكي يحدث الاقتراب بشكل أكبر بين كائنين مختلفين. وللأسف أنا لست من النساء اللواتي يُجِدن الحديث على الدوام. أنا أميَل إلى الصمت، وعندما لا تكون لدي رغبة في الكلام لا أتكلم مهما كان الشخص الذي أمامي بحاجة إلى الحديث".

توقفت ساريا قليلاً لتضع لقيمات أخرى في فمها ثم تابعت:

ـ والمشكلة أن الرجال في البداية يعتبرون الحديث مع الزوجات قصيراً على الدوام. والمضحك أنهم في النهاية، يتحاشون الحديث مع الزوجة لأنه يغدو مملاً وغير ممتع بالنسبة لهم، إلى حد أنهم ينعتون الزوجة بالثرثرة، وهكذا.. هم لا يرسون على بر. برأي عندما يموت الحديث يموت الزواج وبالتالي يموت التناغم.

قال وائل مبتسماً:

ـ أنت لا تختلفين عن النساء هنا في ماجرسان.. كثيرات منهن عازفات عن الزواج أو مطلقات.. يقال إن نسبة المطلقات والعنوسة عالية جداً هنا..

قالت ساريا مقاطعة:

ـ لا تقل عنوسة من فضلك. بل قل نساء غير راغبات في الزواج بإرادتهن..

ـ تماماً.. أوافقك.. على كل حال المشكلة الرئيسية ليست في الحديث بين الزوجين كما تقولين، المشكلة تقع عندما يداهم الحب الأعمى قلب الشخص وعقله. عندها يتزوج لأنه لا يستطيع العيش بدون الشخص الذي تعرَّف عليه، وليس لأنه يتناغم أو يتفاهم معه.

عادت ساريا لتقول بلهجة معترضة:

ـ في الواقع من الصعب أن تختار الشخص المناسب تماماً، وأن تكون أنت نفسك الشخص المناسب له. فهذه جدلية عقيمة.

ـ صحيح أنتَ لك طريقك، وأنا لي طريقي، وأما الطريق الصحيح فلا وجود له، كما يقول أحد الفلاسفة. بالنسبة لي، من الصعب أن تؤثر امرأة على قناعاتي لأنني استخدمت عقلي في صياغة تلك القناعات. وعندما تستخدمين العقل لا تشعرين بالندم.

تأملته ساريا قليلاً ثم قالت بحدة خفيفة:

ـ يمكن أن تتغير القناعات مع تغير الظروف.

ـ لا أظن.

انتهى الحديث هنا وعاد الزميلان إلى العمل وكلاهما يفكر في الجدل الذي دار بينهما حول الزواج. لم يستطع وائل التوقف عن إعمال عقله في كل تصرفاته، وهو من الرجال الذين يُسكتون نبضات القلب عندما تخفق لامرأة لا تتناسب وقناعاتهم. وكثيراً ما كانت ساريا ترى فيه إنساناً جافاً ومتعجرفاً وحتى متحجراً، لا اخضرار في نفسه رغم أحاديثه الجدية وآرائه المقنعة حول الحياة والنساء.

أحستْ دائماً أن المسافة بينهما طويلة جداً رغم قصرها الظاهري، فكلاهما عاقل أكثر مما ينبغي، وكلاهما غير مستعد لعلاقة قد تفضي إلى رباط الزوجية. فكيف لوائل أن يخلق حباً عقلانياً لا تتحكم به العاطفة أو تسوقه في دروب المشاعر والاندفاع، فيلغي العقل ويصبح أسير تلك العاطفة يتصرف حسب إملاءاتها. ورغم معاشرته الجنسية لنساء، إلا أن أياً منهن لم تستحوذ على عقله، وسرعان ما كان يتملص تحت أعذار شتى. شعر في يوم مضى بعاطفة تجاه زميلته سهام في الجامعة، لكنه

تحكَّم بتلك العاطفة بعد أن اصطدمت مواقفه بمواقفها. هما لا يزالان على اتصال إلا أن العلاقة اليوم لا تتعدى حدود الزمالة. أحبَّ اندفاعها وجرأتها في التعبير عن آرائها بجرأة نادرة، وأحجم بسبب عنادها وانتقادها المستمر له ومواقفها السياسية. كانت سهام تنعته بالبورجوازي المتكبر الذي ينظر من علوٍّ إلى الطبقة الكادحة وخاصة باعتراضه المستمر على هجرة سكان الريف إلى المدينة والتي كان يعتبرها أحد عوامل التخلف. كانت سهام تؤمن بنظام اقتصادي يعتمد على التوزيع العادل للثروات والقضاء على التفاوت الطبقي وحق الفرد أن يكون في المكان الذي يريد أن يكون فيه. كانت تقف على منصة بين مجموعات الطلاب في الجامعة وتخطب بصوت عالٍ "لا تنسوا ما حدث لآبائنا وأجدادنا بسبب الاستبداد ونهب ثروات البلاد.. إنه الظلم والفقر واحتكار السلطة.. المساواة بين الناس لا تتم إلا بثورة الطبقة الكادحة ضد طبقة البذخ والثراء الفاحش.. لا نريد أن نكرر أنفسنا.. الحكومات القمعية هناك عمقت الفساد والتنافس والتناحر بين أبناء الشعب الواحد وانتهكت حقوق الإنسان.. هي السبب الرئيسي في اختلال توزيع الثروات.. عملقت رجال السياسة ومن يخصهم ومنحتهم حصة الأسد من المال العام رغم أن عددهم لا يتجاوز واحد بالمائة من الشعب، فتورَّمت بطونهم وأرصدتهم فيما بقية الناس يعيشون في شقاء وبؤس.. ".

رآها وائل مرة تلوح بيدها وهي واقفة على المنصة وتصرخ بأعلى صوتها "الرأسمالية ستنهار، إنها القاتل الاقتصادي المفترس.. إنها الفيروس المتحول عن الإقطاع.. ماجرسان كانت أفضل ألف مرة قبل سنوات وقبل أن يصل إليها وحش

الرأسمالية.. هذا الوحش التهم الطبقة الوسطى.. فئة ضئيلة تبتلع الثروات وأغلبية تعيش في الفقر كما كان حالنا هناك في وطننا الأم.. يجب أن توقنوا أن الشركات الكبرى العالمية هي الفيروس المتحول من النظام الرأسمالي القاتل.. إنها تقوم بإتلاف ملايين الأطنان من الطعام للحفاظ على الأسعار في الأسواق العالمية بينما يموت ملايين البشر في آسيا وإفريقيا جوعاً.. يرفعون أسعار البيوت لتصل إلى أرقام فلكية ويجنون أرباحاً بالملايين على حساب عشرات آلاف المواطنين الذين يعجزون عن شراء سكن.. لا نريد أن تكون ماجرسان نسخة متكررة.. نريدها مختلفة.. ماجرسان لن تسمح للسفلة بالكسب غير المشروع والسرقة من دم الشعب".

وبعد كل هذا الصراخ والجولة الخطابية العارمة، قُذفت سهام بحبات من البندورة من قبل مجموعة من الطلاب موالين للمجلس الحكومي، فتبرقش قميصها الأبيض بالعصير الأحمر وراحت تصرخ "جبناء.. خونة.. ما رح تنتصروا علينا.. لا تحلموا.. ".

وانتهت الخطبة العصماء ببحة شديدة أصابت سهام في حلقها وحبالها الصوتية لازمتها لأكثر من ثلاثة أسابيع. وكان وائل يحاول التخفيف عنها ضاحكاً ومقهقهاً وهو يراها تستخدم لغة الإشارة للحديث، فيما الكلمات تغور داخل حشرجة في حلقها عندما تحاول الكلام، فيقول "هيك أحسن وأنتِ بدون صوت.. صدقيني صرتِ أجمل وأهدأ.. "، فتتناول سهام أي شيء يصل إلى يدها حشية أو ريموت كونترول وترميه بها فيتلقفها بمزيد من القهقهة "ريحينا شوي من الصراخ والانفعالات والمحاضرات الله يخليك! شو فائدة الخطابات.. شوفي شو صاير فيكي.. هدا درس..

يا ريت يعم الخرس في كل مكان ويصير وباء معدياً ينتقل من شخص إلى آخر ونصير كلنا نحكي لغة البكم بالإشارات بس. لا صوات.. لا كلام.. لا صراخ.. لا جدل.. لا عنف لفظي.. لا أبواق. لا إعلام عم يلعلع.. لا كذب.. لا تلوث سمعي آه. يا ريت". ويواصل وائل القهقهة، فتنظر إليه سهام طويلاً وتنتقل عدواها إليها، فتأخذ في الضحك وسرعان ما يختلط ضحكها بالبكاء. وتظل تبكي ثم تمسح دموعها وتنف أنفها. فيقول وائل "طولي بالك يا سهام مو محرزة الشغلة ما بدها بكي.. مافي شي بيستاهل صدقيني.. "، فترد بحشرجة غير مسموعة لا يفهم وائل منها شيئاً "يا ربي ليش كلهم ضدي.. أنا مجنونة شي؟".

فيضحك وائل مجدداً وهو يسألها "شو شو عم تقولي ما فهمت.. شغلي ايديك" فتضحك وهي تبكي.

كانت سهام بشعرها الأسود القصير والمسبل حول وجهها مثل قبعة سوداء لامعة وعينيها "المشقولتين" إلى الإعلى من الجانبين وقد امتزج فيهما اللون الأخضر بالبني، أشبه بقطة شرسة جاءت من البراري للتو وتجد صعوبة في التأقلم مع بني البشر. تتحدث بأنفة وثقة، عنيدة لا تتراجع، وقرارها حاسم. وضعت حداً لعلاقتها مع وائل عندما قالت له "اخرج من حياتي.. لم أعد أطيقك.. " وغادرت.

كان قرارها الانفصال عنه راحة له وفَّر عليه حرج أن يقوم هو أولا بهذه الخطوة، إذ لم يعد قادراً على تحمل حماسها الزائد لما تؤمن به وعنادها الذي لا يلين.

كانت تريد مجتمعاً آخر أرحم لا يتحكم فيه جهاز لقمع البشر وسحق إمكانيات العيش العادل والكريم. وكانت تنفعل وهي

تتحدث عن أولئك الذين لا تشغلهم هموم الكادحين والعاطلين عن العمل والمؤجلة حياتهم بسبب صعوبات الحياة المادية. وتتهم وائل بأنه واحد من أولئك. كانت تنعتهم بالعدميين. لم تكن تؤمن أن الدين يجمِّل النفوس بل كانت تقول "ثمة من يتحلون بالأخلاق الجيدة ويشعرون بعذاب الآخرين رغم عدم إيمانهم بالأديان، وهناك حكام عرب مسلمون لكنهم مستبدون ودجالون وسارقون وفاسقون".

واصلت سهام حربها ضد الرأسمالية وأسست كتلة لترسيخ أسس المشاركة الاقتصادية وراحت تنادي بوجوب التصدي للفئة الحاكمة التي اعتبرتها مستأثرة بموارد المدينة وقذفتها بالشتائم ووصمتها بالعار والصفات المشينة. وقد سُجنت لفترة ثم خرجت وفشلت في تحقيق هدفها، فخبا حماسها بعد أن أدركت أن الدول غرقت في العولمة بقوة، وأن لا فائدة من حرق الأعصاب، فالشركات الكبرى تهيمن على الاقتصاد العالمي وأذرعها الأخطبوطية طالت ماجرسان النقية دون أن تتمكن المدينة من الإفلات.

لم تعد سهام تشغل حيزاً من تفكير وائل كما كان حاله في أيام الجامعة، لم تعد أكثر من ذكرى باهتة. وأما ساريا فكانت وجهاً آخر مختلفاً للمرأة بالنسبة له. كان يرى فيها الفتاة الباردة التي لا تعكس طبيعتها الهادئة ما هو مثير. بسيطة وعاقلة وطيبة القلب وليس أكثر من ذلك. لم يكن يعرف تفاصيل عن حياتها ولا ما يعتمل في داخلها من صراع دائم مع نفسها. كانت ساريا في واقع الأمر تحاول إيجاد أجوبة لأسئلتها الكثيرة. كيف لها أن تصيغ شراكة من دون عواطف؟ إنها تتحرق للمسة رجل، ونداءات

جسدها تؤرقها، إنما ليس لها أن تطفئ حرائقها الجنسية من دون عاطفة، وهي تدرك أن الحب دفق أحاسيس، لكنها ألغت تلك المعادلة من قاموسها منذ زمن بعيد، إيماناً منها بأن الحب لا يدوم. بل تهيمن عليه الطباع ثم تبتلعه، كما حدث في حالة أبيها وأمها. وهي مقتنعة بأن الحديث مع الآخر للوصول إلى تفاهم وانسجام حقيقيين سيبقى الأهم لكنها لا تريد أن تكون أسيرة هذا المكوِّن الزوجي من أجل الحفاظ على الشراكة. إنه تحدي العقول الذي لا يمكن أن يفضي إلى تلاقٍ بل إلى صدام.

وسرعان ما تنسى ساريا نفسها وصراعها الداخلي وتشعر بالأنانية لو لم تفكر بوالدها وأختها. حملت في داخلها دائماً مسؤولية التخفيف من معاناة أبيها المستمرة ومن سوداوية جوديا وحنقها وحزنها المتواصل. كانت تراهما متطرفيْن في مواقفهما من الحياة، وأنَّ عليها أن تعيد التوازن إليهما. وفي تلك اللحظات وهي في طريقها إلى البيت فكرت بزيارة أبيها للطبيب النفسي الذي قد يجد علاجاً لحالته. هاتفته فقال إنه في طريقه إليه.

كانت عيادة الطبيب النفسي في مركز المدينة. توجه فريد إليها بعد انتهائه من العمل غير واثق أن رؤية الطبيب قد تحل مشكلته. سرد بشكل مختصر ما يحدث معه ودوَّن الطبيب كل المعلومات اللازمة بعد أسئلة عديدة عن العائلة وأمه وأبيه وابنتيه، ثم قال "أستاذ فريد، أرى أنه يجب أن تخضع لجلسات تنويم مغناطيسي لنتعرف بعمق على أساس المشكلة".

عقب وصول فريد إلى البيت بدقائق، قُرع جرس الباب. فتحته ساريا فوجدت به محقق الشرطة الذي قال إن التحقيق جارٍ مع

جميع المدعوين الذي حضروا زفاف جارتهم ليليان، وكذلك الجيران من أجل التوصل إلى الفاعل.

سأل المحقق ساريا فيما إذا كانت تعرف ليليان منذ زمن طويل، فأجابت منذ نحو سنتين، وأكدت أنهم كانوا على علاقة طيبة معها، وكانت هناك زيارات بينهم في الأعياد والمناسبات. فعاد وسأل جوديا فيما إذا كانت تعرف إنْ كان للجارة أعداء، أو أن علاقة المرأة مع زوجها سيئة، فكان جوابها أنها لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر. ثم سأل المحقق فريد عما إذا كان يعرف المرأة جيداً، فأجاب أنه رآها عدة مرات ولا يعرف عنها الكثير. ثم سأله عن المنطقة وفيما إذا كانت آمنة أو حدثت فيها سرقات، فأجاب فريد بالنفي. عندما همَّ المحقق بالمغادرة، سأله فريد "هل هناك من تدور حوله الشكوك؟ أجاب المحقق "المشتبه به الرئيسي هو الزوج. وهو حالياً قيد الاعتقال".

غادر المحقق قائلاً " من فضلكم، لو سمعتم أي جديد أرجو أن تبلغوني"، وأعطى فريد رقم هاتفه.

انزوى فريد في غرفته. وغرقت الفتاتان كل في أفكارها أمام الشاشة الصغيرة.

عندما ذكرت ساريا أن فريد ذهب إلى الطبيب النفسي لم تلق أي ردة فعل من جوديا سوى نظرة عدم اكتراث وصمت طويل.

توجهت ساريا إلى المطبخ وصنعت بعض الفشار وأحضرته لأختها قائلة:

- ما رأيك بهذا الصحن الشهي من الفشار؟ أتتذكرين عندما كانت أمي تحضره لنا في الأمسيات الجميلة؟ كنا نستمتع بتناوله

ونحن نشاهد التلفاز ونعلق على الممثلين ونضحك كثيراً؟ كم كانت أياماً جميلة!

هزت جوديا رأسها ثم تمتمت:

ـ توقف الزمن منذ ذلك الحين... هو قتل كل شيء.

واصلت ساريا قائلة:

ـ ليت تلك الأيام تعود. بيتنا اليوم بارد وكئيب وشاحب كشحوب داخلنا.

قالت جوديا ساهمة:

ـ لا زلت أذكر كيف علمتني أمي الرسم والعزف على البيانو. كانت تمنحني من عطر أنفاسها حياة، ومن حبها للفن عالماً مختلفاً وجديداً. كانت ترسم معي حلُمي وأيامي.

ـ أتذكرين كيف أصرَّت على أن أتعلم العزف على الغيتار؟ وكيف أني لم أكن متحمسة لهذا الأمر فكانت تقول لي دائماً "ساريا، إذا لم تلمس أصابعك أية آلة موسيقية ستغدين حجراً. أصابعك هي سفيرة روحك إلى الجمال والإبداع. الحياة من دون موسيقى موت".. ما زلت أذكر كيف كانت تمضي أوقاتاً تبحث لي عن الكتب والقصص التي أحبها.

ـ زمن أمي كان الأجمل لأنها صنعته وكانت فيه، لكنه لم يكن الأفضل. عاشت فراشة جميلة مولعة بالتحليق إلى الحرية، وعندما جاء من يحاول إعادتها إلى شرنقتها ماتت. كان أبي زوابع غضب لا تهدأ، وكانت الفراشة الجميلة تتأرجح داخل هذه الزوابع، مرة تبتلعها وأخرى تقذفها.. كان يتقيأ غيرة صفراء ويدق مسامير الشك في نعشها كل يوم.. كان جلاداً لا يرحم.. وكنا ضحاياه.

سكتت جوديا قليلاً قبل أن تستأنف بعينين دامعتين:

ـ ساريا، داخلي يبكي، يا ساريا. توقف الزمن عندما توقفت أنفاسها، وتعطلت الذاكرة والمشاعر. قَتل كل شيء.. هو قتل كل شيء. أمي لا تزال بي.. لو أن أمي ما زالت على قيد الحياة، لكنَّا الآن مختلفتين. كنتُ أنا لن أكون أنا، وأنتِ لن تكوني أنت. أنا اليوم اثنتان، واحدة هي أنا، تختبئ خلف ستائر حديدية، وأخرى هنا تخربش الأيام وتمحوها وتعيد خربشتها لتمحوها مرة أخرى.

ـ لن يحلَّ الضياع في حياتنا، يا جوديا.. يجب أن نخط مساراً لكي نتابع دون ألم.. أكيد لو أن أمي ما زالت حية.. لرسمت لنا خطوطاً واضحة ولونت صفحات الغد، فليرحمها الله ويسامحها.. إنما لم تعد هنا، ونحن لم نعد صغيرتين ويمكننا أن نواصل.

ـ لا شيء يغسلني من لوني الأسود. لا أحد يوقظني من كابوسي المدلهم. لا أحد يعيدني إليَّ. لا أحد يعيدني أنا.

ساد صمت لدقائق فقالت ساريا بعينين حزينتين:

ـ ما زلت أذكر تلك الليلة.. عندما عدنا من السهرة في بيت ماجد وكان وجه أبي مكفهراً. وما أن أصبحنا داخل البيت حتى تلقاها بصفعة رمتها أرضاً وهو يصيح "كان ماجد يتغزل بك وبأناملك وأنت تعزفين". فصرخت أمي "إنك مجنون"، فراح يهزها من كتفيها بقوة ويصرخ بل "أنت الفاجرة" ويقول كلمات لم أفهمها حينها. لم يعبأ بوجودنا. كنا صغيرتين. كم كرهته. كم شعرت أني أمقته.. كم تمنيت أن يموت.

تمعنت جوديا في وجه أختها طويلاً وقد اكتسى وجهها بحمرة واضحة وتجلى احمرار في عينيها ثم قالت:

ـ لكنها هي التي ماتت.

نهضت وانسحبت إلى غرفتها تردد "لكنها هي التي ماتت".

لم تستطع الابنتان نبش الجذور المتعفنة داخل صدر فريد، وكل شيء حولهما هو نتاج وثمار تلك الجذور. إنما أمكن للطبيب فتح تلك الصفحات المهترئة في ماضيه بالوصول إلى أعماقه والكشف عنها من خلال التنويم المغناطيسي.

ـ أنت الآن نائم.. أنت الآن في الماضي.. غارق في الماضي البعيد.. أنت طفل في التاسعة.. تعيش مع أمك وأبيك في بيتكم.. تتحدث عنهما

يتكلم فريد بصوت ضعيف:

ـ أمي، أين هي أمي؟ لم أعد أجدها.. لم أعد أراها.. ابتعدت.. أمي تبتعد عني.. أمي تركتني وغادرت.. أحبها كثيراً، أشتاق إليها.. لكنها لا تحبني.. تركتني ورحلت.. قال أبي إنها تركته وهربت مع رجل آخر.. قال أبي إنها تحب الرجل الآخر أكثر مني.. تركتني لأجله.. قال لي "يجب ألا تحزن.. يجب أن تنسى أن لك أماً.. النساء خائنات ومخادعات"... أكرهها وأكره أبي..

توقف فريد عن الكلام فسأله الطبيب:

ـ لماذا تكرههما؟

ـ لا أدري.. أنا وحدي بين دفاتري وكتبي في الغرفة الكئيبة.. قلما يتسرب إليها شعاع الشمس.. أحس بالبرد وبقشعريرة في جسمي.. دائماً وحدي.. أبي لم يفرح عندما تفوقتُ في الدروس.. نظر إلى سجلي وقال "حسن" لم يقبِّلني.. أمي قبلتني ولم تفرح.. لم تحدثني في شيء.. لم تتحدث إلى أبي في شيء.. كانت تتجنبه، وتمضي وقتها في المطبخ وإعداد الطعام.. كانت تكره حياتها.. كانت صامتة وحزينة.. أمي هربت وتركتني وحيداً.. الطلاب في المدرسة يسخرون مني.. يضحكون.. أتضاءل.. يسألونني عن

أمي.. لا أدري ماذا أقول لهم.. أتضاءل.. أصبح قزماً مثيراً للسخرية.. أبكي في وحدتي. جدتي قالت لي إنها غادرت البلاد ولم تهرب مع رجل آخر.. لا أدري من أصدق.

قال الطبيب:

ـ لمَ هربتْ أمك؟ لمَ تركتْ أباك؟

ـ أسمعها تبكي في الليل وأبي يصرخ.. أسمع صوت النحيب والبكاء يعلو.. أبي يضربها.. أسمعه يشتمها بكلمات بذيئة.. ينعتها بصفات بشعة.. "نجسة وحقيرة.. غبية وفارغة العقل مثل الحيوانات.. شو عم تقدمي لي؟ الأكل؟ ما بدي آكل.. أنت بتكرهيني.. عيونك فيها كره إلي.. لا فائدة من وجودك.. لازم تموتي.. بدي أدبحك بإيدي هدول.. ولك أنا رجَّال وين بروح حالي؟ ليش تجوزتيني.. الله يلعن الساعة ياللي شفتك فيها.. يا ريت الله ياخدك لأخلص منك.. " يصرخ.. أسمع صراخه في الليل.. أرتجف.. أتكور في فراشي.. بارد يزيد من رجفتي.. لم أكن أستطيع مساعدتها.. كنت خائفاً.. أكره الليل.. عندما يأتي الليل أمي تبكي دائماً.. أسمعها تتقيأ في الحمَّام.. عندما كبرتُ.. عرفتُ أنها كانت تتقيأه بعد أن يغتصبها.. تكرهه.. أكرهه.. أحس أني أختنق والأوكسجين ينفذ من غرفتي.. لا أشعر بالأمان.. أنا مهمل.. وحيد.. أشعر بالإثم وأن عواقب سيئة تنتظرني.. نومي مزعج ومخيف.. أرى أبي في الحلم بأنياب طويلة وعيني ذئب.. أشعر بالتعب.. أفقد التركيز في المدرسة.. في الصباح وجه أبي مخيف.. أمي تداري وجهها عني لكي لا أرى آثار الضرب.. تغطي ذراعها لتخفي بقعاً حمراء وزرقاء.

ساد صمت طويل من جديد، فقال الطبيب:

ـ حسن، أنت الآن شاب في مقتبل العمر تجاوزتَ الطفولة منذ زمن بعيد.. أنت الآن تتحدث عن نسرين. من هي نسرين؟

يتحدث فريد بعد مرور بعض الوقت بصوت خفيض:

ـ نسرين هناك. أراها هناك.. تركب دراجتها في الحديقة العامة. ترتدي بنطالاً أسود وبلوزة بيضاء منقطة باللون الأسود. أرى شعرها الأشقر يتطاير مع الهواء.. أتابعها بعيني تجوب الممرات الحجرية بين الأشجار.. سحرها سرق مني المكان والبصر.. أسمع أصوات ضحكات في المدى.. فتيات صغيرات يلعبن حول البحيرة.. تتوقف نسرين وتتحدث إلى إحداهن.. تشير الصغيرة بيدها إلى أمها جالسة على مقعد تحت شجرة في الجهة المقابلة لمقعدي.

ـ من هي هذه المرأة؟ قال الطبيب.

ـ هي منال صديقة نسرين.. تجلس نسرين بجوارها تتحدثان وتضحكان.. تنظر نسرين باتجاهي، فتراني أمعن النظر فيها.. تبتسم لي، وتواصل حديثها مع منال لبعض الوقت ثم تغادران.. صورتها في قلبي.. أذهب إلى المتنزه كل يوم لأراها تجول فيه على دراجتها.. تبتسم كلما مرت بجانبي ورأتني أنظر إليها.. تجرأتُ في يوم وتحدثت إليها. كانت رقيقة مثل تويجات وردة. ندية كقطرات الندى.. مرهفة.. خجولة. تكررت لقاءاتنا في المنتزه. جاءت بقيثارتها يوماً، وعزفت لحناً جميلاً، ونحن جالسان على مقعد الحديقة.. حملني النغم إلى عالم سحري.. لم أتخيله.. أحببتها بجنون.. غرقتُ في العشق إلى حد العته.. أصبحت أتنفس من خلالها. أحبها.. أحبها.. أنا مجنون بحبها.. حبها نار يسري في جسدي..

راح فريد يهذي بكلماته إلى حد الصراخ، فطلب منه الطبيب أن يفتح عينيه، وعاد به إلى الوعي ليتابع في جلسة أخرى.

الفصل الرابع

وقفت جوديا تحدق في اللوحة بإمعان وابتسامة باهتة على شفتيها. نظرتْ إليَّ لوهلة، ثم عادت للتحديق في اللوحة. وسرعان ما تحولت ابتسامتها إلى عبوس خفي.

قلتُ "ما رأيك؟".

ظلت صامتة لوقت طويل، ثم قالت دون أن تلفت إليَّ، بل واصلت التمعن في اللوحة:

ـ أهكذا تراني؟

ـ إلى حدٍّ ما.

ـ هناك قبح.

ـ ألستِ أنتِ من قال إن في القبح جمالاً أيضاً؟

ـ أجل.

كان الوجه في اللوحة نصفين، أحدهما يعكس وداعة وعمقاً في العين الزرقاء وابتسامة طفولية على الشفتين وسماحة في التعابير، غابت في النصف الآخر من الوجه داخل صرامة وقسوة واضحتين، والعين الأخرى اتخذت شكلا طولياً مع لون أزرق محمرٍ داخلها، والشفتان انغلقتا على حقد وكيد، فانعكست على نصف الوجه الآخر ملامح شيطانية، استدعت انقباضاً داخل جوديا.

نظرتْ في عينيَّ وأنا واقف أتأملها مبتسماً، وقالت: "شيء جيد أنك ما زلت ترى بي جانباً إيجابياً على الأقل.. لأنني أنا نفسي لم أعد أراه.. ".

ضحكتُ وقلتُ "أكيد هناك وجه إيجابي فيكِ.. آآ على كل حال، وكما قلت لك من قبل، أنا لست مثل باقي الناس هنا يرون القباحة قبل الجمال، والسلب قبل الإيجاب ".

فتمتمتْ "أخرجتَ كل ما بداخلي".

عرضتُ عليها تناول فنجان قهوة عندي على الشرفة الواسعة المطلة على حدائق المنازل المجاورة. راحت تتأمل الأشجار التي تطاولت فلامست الطوابق العليا، وبعضها كان مثقلاً بحمله من الليمون والمشمش الهندي والخوخ. وامتدت العرائش تكشف في أجزاء من امتدادها عن عناقيد العنب تتدلى كالثريات تزين فضاء البيوت. أثنت جوديا على المنظر الجميل الذي غابت فيه أرض الحدائق داخل كثافة الأشجار وامتداد العرائش واللبلاب، وعبرت عن سعادة عميقة لتنشق روائح الياسمين والورود. راحت تتنفس بعمق وتغمض عينيها مع كل تنهيدة، وقالت إنها تحس، لأول مرة منذ زمن طويل، بأنها تطير بجناحين فوق تلك الحدائق الغناء. تركتُها غارقة في المشهد الجميل، وتوجهتُ إلى المطبخ لأعد فنجاني قهوة، وأنا أغبط نفسي على قبولها دعوتي.

كنت أتساءل عن سر حماستي وسعادتي لوجودها في منزلي. كنت أقاوم ذلك الشعور الذي بدأ يتملكني تجاهها وإحساسي بضربات قلبي تتسارع كلما رأيتها، وأحاول إخماد تلك المشاعر بسرعة. وكيف وأنا أكبرها بنحو ستة عشر عاماً. ولطالما رأيتُ الفتيات في سنها مجرد مراهقات يحتجن إلى سنوات طويلة للوصول إلى مرحلة النضج والعقل. لكنها مختلفة. إحساسي يراها مختلفة، وإحساسي لا يخطئ. إن ما تحمله من أعاصير داخلها يثيرني ويسلب لبي. أعشق كل ما هو مختلف. وأكره روتين

الأشياء وتكرارها. جوديا فتاة غير طبيعية. ذكاؤها لا ينتمي إلى هذه الأرض. فيها من ملائكة السماء وشياطين الأرض. إنها مجموعة اختلافات فوق عادية.

كنا نرشف القهوة بصمت وأنا أحاول ألا تفضحني عيناي فأتجنب النظر طويلاً في وجهها الجميل. تبادلتْ مُقلُنا ومضات لهفة سريعة ونظرات خاطفة مغلفة بالإحراج، ثم عدنا لتأمل الطبيعة في الحدائق هروباً من أحاسيس عشق في داخلي تكاد تتفجر ومشاعر مبهمة في داخل جوديا تحاول كبتها، فإذا بها تسألني فجأة "هل أستطيع الاحتفاظ باللوحة.. أعني هل يمكنني أن آخذها؟". هززت رأسي موافقاً.

عندما نهضتْ مودعة، أحسستُ بدافع قوي لأن أضمها إلى صدري وأتنشق عطرها وأغرق في أنفاسها، وفي داخلي حيرة وتساؤل عما يمكن أن يكون ردُّ فعلها لو أقدمتُ.

حملتْ جوديا اللوحة وانطلقت إلى البيت تفكر في المكان الذي ستعلقها فيه. وقررتْ تعليقها بجانب صورة أمها في الصالة.

في الجلسة الثانية من التنويم المغناطيسي كان الطبيب يستمع إلى ما يردده فريد عن عشقه لنسرين بتركيز. ثم سأله بصوت خفيض:

"كيف بدأ قلقك؟ وأين؟"

راح فريد يتمتم "الصالة تعج بالمدعوين.. نسرين ترتدي ثوباً أسود عاري الكتفين... شعرها معقوص الى الأعلى يحيط به تاج ماسي رفيع. يا إلهي كم هي جميلة.. فاتنة.. التفتَ الجميع إليها لدى دخولنا معاً... أرى رامز يتقدم ويلقي بالتحية... يكاد يأكلها بعينيه... يعرفنا على بعض المدعوين... تلعب أصابعها على

مفاتيح البيانو... تبتسم للتصفيق الحار.. تنساب الأنغام حالمة.. والهدوء يعم المكان وابتسامة نسرين الجميلة تطغى على كل شيء.. كانت أشبه بحورية هبطت من السماء فأذهلت الحاضرين.. سمعتُ أحدهم يتغزل بها وبأناملها وعزفها "إنك جميلة في كل شيء.. أنت جميلة شكلاً ومضموناً.. ".

شعرتُ بالضعف والاضمحلال ثم الحنق والرغبة في الصراخ في وجه الجالسين... أردتُ أن أوجه لكمة قوية للمتكلم، وأن أقلب الطاولات والكراسي فوق رؤوس الحاضرين، إنما تمالكت نفسي، وبقيت جالساً مكاني أتعجل العودة إلى البيت. كانت نسرين تلحظ تجهمي، لكنها تجاهلت وواصلت وكأنني لست موجوداً.. آه.. مرة أخرى نسرين على مسرح الأوبرا، تنقل أصابعها على أوتار الغيتار مع موسيقيين آخرين. المسرح يضج بالتصفيق ونسرين تحيي الجمهور. في نهاية الحفلة الموسيقية. كنت أنتظرها خلف المسرح، رأتني فغابت ابتسامتها.. كانت تحس بما يعتمل في داخلي من غيرة وقلق.. شاب يهديها باقة زهور ويقبل يدها.. أسحبها من يدها بقوة من بين الجمع وأنعتها بالفجور.. تسحب يدها من يدي وتركض بعيداً وهي تصرخ "أكرهك.. يكفي كل هذا.. " نار تشتعل في قلبي.. منعتها من الذهاب لإحياء حفل موسيقي في فرنسا.. تمرَّدتْ وسافرت.. تقول "إنني أقتل فنها.. وإنني أقتل روحها". عندما عادت لم أسمح لها بدخول البيت. قفلتُ الباب في وجهها، فذهبتْ للمبيت عند صديقتها منال. كانت منال أقرب صديقة إلى قلبها ومخزن أسرارها.. عرفتُ أنها شجعتها على التمرد كانت تقول لها "إياك والاستسلام لقوانين الرجال.. واصلي نضالك من أجل فنك الذي تهويْن. الفن والإبداع يستحقان

التضحية.. وعلى فريد أن يدرك أنك لن تتخلي عنهما مهما وقف عائقاً في وجهك".

ساد صمت لبعض الوقت فقال الطبيب:

"حدثني عن منال.. من هي؟".

يتابع فريد بصوت ضعيف:

"منال تكره الرجال. هجرت زوجها.. طلقته واحتضنت ابنتيها. منال على عكس نسرين الحالمة والرقيقة، منال شخصية قوية.. صبورة وعملية.. واقعية تحب المال وتعمل بجد من أجل الحصول عليه. تدرِّس اللغة العربية لطالبات الثانوي في مدرستين، كانت صديقة لنسرين منذ الصغر.. هاجرت مع زوجها وابنتيها من حمص إلى ماجرسان بعدنا بعدة سنوات فعادت صحبتها مع نسرين... تلتقيان دائماً وتخرجان معاً بصحبة الأولاد... كنتُ في غرفة مكتبي وسمعتُها تقول وهي تقف متكئة على البيانو ونسرين تعزف مقطوعة عندنا في البيت "تزوجتُه من أجل الأولاد وعندما حققتُ مرادي طردته من حياتي". توقفت نسرين عن العزف ونظرت إلى صديقتها صامتة. فتابعت منال "لا نحتاج إلى الرجال.. فقط يجب استخدامهم من أجل إنجاب الأطفال ثم رميهم مثل النفايات.. اليوم أتنفس حريتي بعمق حتى آخر ذرة من أعصابي.. جسدي وروحي مُلكي أنا وليسا ملكاً لشخص آخر.. اليوم أنا كيان متكامل بذاته وغير تابع لكيان آخر مولع بالسيطرة وفرض إرادته علي.. بل إلغائي.. ".

قالت نسرين مبتسمة "ولمَ كل هذا التعب؟ بإمكانك إنجاب طفل بالاستنساخ أو شراء طفل.. أعني أطفال الأنابيب والأجنة المجمدة.. أليس هذا أفضل؟".

"التكلفة عالية" أجابت منال ضاحكة "هكذا أرخص.. الرجل أرخص.. والأفضل أن يعرف الأولاد أن لهم أباً، أليس كذلك؟ ينفق عليك وعلى الأولاد لفترة ثم تطيحين به لأنه لا يستحق أكثر من هذا..... بيفوت باشا بيطلع وزير. يجب أن يكون الفطور والغداء والعشاء جاهزاً عندما يفيق أو بيشرِّف حضرته. وإذا ما كان كل شي حاضر بيعصب وبيطلع خلقه... وما دامت كل المسؤوليات فوق رأسي شو حاجتي إليه؟ أدرِّس في مدرستين أربعة أيام في الأسبوع وأوصل البنات إلى المدرسة... مشواري إلى الشغل طويل يستغرق أكثر من ساعة بالسيارة.. دائماً متعبة.. يجب أن أؤمن طلبات الجميع.. فلماذا أحتاج رجلاً؟ بدونه أرحم... أستطيع أن أعيش وأعيِّش بناتي... عندي راتب يكفيني والحمد لله.. ".

سكتت برهة ثم أردفت "متحكم بي.. لا يعجبه كلامي ولا ملبسي ولا تصرفاتي. إذن لماذا أحتاج زوجاً؟ ليستفزني ويحطم أعصابي؟. لا هكذا أفضل وأريح..".

تمتمت نسرين بصوت أشبه بالهمس وهي تعزف بصوت خفيض "لا حاجة للزواج ولا للأطفال أصلاً.. ليتني لم أنجب ساريا وجوديا.. جئت بهما للعذاب والخوف.. ستنتهيان كما الآخرين بالموت.. لماذا نستمر في التكاثر.. نتكاثر كالجراد.. لا نتوقف.. إنه عملية عبثية.. يجب أن نحدَّ من الحياة.. أن نقلصها.. نختصرها.. لا أن نرمي بمزيد من الأطفال في أحضانها فترميهم في الفقر والعذاب والمرض والهموم ثم الفناء.. سقطنا في تلك الحفرة الجهنمية التي اسمها الحياة.. فلماذا نتكاثر ونأتي بمزيد من الأطفال لنسقطهم في تلك الحفرة؟ ألسنا نأتي بهم إلى الموت؟ من

أجل أن يحملهم الموت ويطير بهم إلى مكان لا نعرفه.. ألسنا نجني عليهم بسبب أنانيتنا وشهوتنا ومتعتنا الشخصية؟. المهم ليس البداية.. بل النهاية.. من حفرة الحياة إلى حفرة الموت.. النهاية مؤلمة ومفزعة؟".

قالت منال "تماماً.. أنت تسمينها حفرة وأنا اسميها مصيدة.. أنجبت بناتي لكي لا أبقى وحيدة وأعرف أن هذه أنانية.. ولكن لا يهم.. المهم هو أنا.. كيف يمكنني أن آخذ قدر ما استطعت من الحياة ما دام قضي الأمر ووجدت على هذه الأرض.. خلقتُ وعلقتُ في المصيدة.. أصارع لكي أعيش عليها بأفضل شكل لأنها لن ترحمني ويمكن أن تدوسني إذا لم أسبقها وأدوس عليها.. وكما عشت هذا الصراع، ما الضير أن تعيشه ابنتاي؟".

كانت نسرين معجبة بمنال وبقراراتها وثقتها بنفسها وتتمنى أن تحذو حذوها إنما كان سأم يزحف إلى أعماقها تدريجياً فيصيبها بما يشبه الشلل. ومع ذلك بقيت عندها وتابعتْ حياتها من دوني.. لم تعبأ. بل واصلت تحديها لي. غابت لأكثر من شهرين عند صديقتها.. كدتُ أجنُّ.. ذهبتُ إلى بيت منال.. فتحتْ لي الباب ولم تخرج نسرين لمقابلتي. قالت لي عابسة إنها لن تسمح لنسرين بالعودة معي لأني أعذبها "أنت رجل عنيف.. وشكّاك.. وغيور.. لا يمكن لنسرين أن تواصل معك.. نسرين بتقول إنك رح تكون سبب بدمارها.. والأفضل أنك تخرج من حياتها.. يا أخي ما بدها ياك.. افهمها بقى.. ". غادرتُ خائباً محطماً. غيابها كاد يدمرني.. لا يمكن لي أن أعيش من دونها.. ساريا وجوديا تسألان عنها وتبكيان.. جوديا تنهض في الليل من سريرها وتبحث عن أمها في كل مكان من البيت.. أسمعها تبكي.. أعود بها إلى الفراش

وأجلس بجانبها إلى أن تغفو.. عدتُ ثانية إلى بيت منال وحاولت أن أقنعهما معاً بأني تغيرت، وسأسيطر على نفسي ولن أستخدم العنف من الآن وصاعداً. طلبتُ من نسرين العودة ووعدتُ ألا أقف في طريق طموحها. قلت لها "لك ما تريدين.. مارسي فنك الذي تهوين.. ولا تنسي ابنتينا ساريا وجوديا.. إنهما تنتظرانك.. لا حياة لهما من دونك". كنتُ غبياً أحمق، غير مدرك لفداحة خطئي الذي دمرها ودمر ابنتيَّ. وعادت.. عادت أكثر تحدياً وتمرداً.. وعدتُ أنا أكثر عنفاً وغضباً.. أكره كل هذا. أكره معجبيها.. أكرههم جميعاً... إنهم حمقى ومنحطون. أردتها أن تلتزم البيت.. أن تبقى حبيسة فيه... كنت أدرك أنني لن أشعر بالراحة ما لم تتخل نسرين عن فنها وتمارس حياتها كزوجة عادية. خروجها يحطمني... جمالها يدمرني. كيف لي أن أجد فسحة لنفسي داخلها. أجلس كالأبله.. كالمنبوذ في الحفلات الموسيقية... نسرين لي وليس لأحد أن يقاسمني إياها. في البيت صفعتُها بقوة ومزقت فستانها الأسود الجميل... صرختْ في وجهي، وقالت إنها تحتقرني وإنها لم تعد تحمل لي حباً. قالت "اعتقني لم أعد أريدك". لم تفهم حبي لها.. اعتبرته أسراً وسجناً".

الطبيب "هل فكرت أن تطلِّقها؟".

"لا.. لا يمكن أن أفعل هذا. أحبها بجنون لا تستطيع الخروج من حياتي سأقتلها قبل أن تفعل".

الطبيب "أكمل"

"الغيرة تأكلني. أشك في خطواتها ولفتاتها وكل ما تقوم به. كنت أتركها بعد كل صدام متعبة مذنبة حمقاء. كنت أتوقع بغباء أن تقرأ ما بذهني. لم أقدِّر يوماً إبداعاتها عمداً.. كنت سياجاً شائكاً

يحاصرها. كنت حبلاً يخنقها.. كنت عنيفاً.. لم أستطع أن أكون سوى ذلك.. قتلتْ نفسَها.. بعد يوم من عراك حامٍ بيننا إثر عودتنا من حفلة موسيقية. شددتها من شعرها ولوحتها أرضاً وصفعتها مرات ومرات. راحت تصرخ وتلطم وجهها باكية "بكرهك.. اعتقني لوجه الله.. اعتقني.. طلقني".

قلت لها "نجوم السما أقرب لك.. ما فيكي تخرجي من حياتي.. بقتلك لو حاولتِ".

راحت تصرخ "إذن رح موِّت حالي.. رح موت لأخلص منك".

ظننتُ أنه مجرد تهديد من دون معنى.. كما اعتادت أن تفعل عندما تكون غاضبة.. آه.. أراها مسجاة ميتة على السرير.. لا أصدق أنها ماتت كيف فعلت؟ لا أصدق. لا.. لا أنا قتلتها. أنا المجرم". راح يجهش بالبكاء فأعاده الطبيب إلى الوعي.

قال الطبيب بعد أن نظر طويلاً في وجه فريد الذي بدا متعباً "عندما يفيض الحب عن حده يصبح كارثة. وأنت حطمت نفسك ونسرين بسبب هذا الحب الجارف والمدمر. لا بدَّ أن نسرين أحست دائماً أنها كانت تمشي على قشور البيض معك. كنتَ تُصغِّرها وتقزمها عوضاً عن امتداحها أو حتى إظهار قدر من الإعجاب بأدائها، كما يفعل الآخرون. كنت تريدها أن تفهم وجهة نظرك، وقلما فهمتَ وجهة نظرها. كنت تريد أن تكون المنتصر دائماً، إنما في لعبة الحب ليس هناك من منتصر. كما لا يمكنك أن تربح جدالاً أو معركة مع فنان لأنه أسير فنه، يفضله على الحياة نفسها، وللأسف أنت لم تدرك هذه الحقيقة. اسمع يا فريد، تداخلتْ في تلك العلاقة ما حملتَه من خوف وألم في طفولتك. كان

لهروب أمك من أبيك ومعاناتها الكبيرة معه ومن ثم إحساسك العميق بهذه المعاناة وخروجها من حياتك وأنت طفل، أثر واضح عليك فيما بعد. بمعنى أنه حطم ثقتك بالنساء عموماً وتوَّلد لديك شعور بالاستحواذ على المرأة التي بجانبك خشية ضياعها كما ضاعت أمك. فلجأتَ إلى العنف على منوال أبيك.. على كل حال، على قدر الصعود يكون الهبوط، يا فريد، وأنت صعدتَ الى أعلى ما يمكنك في مشاعرك وغيرتك وكل شيء، وبعد فقدانك نسرين أنت اليوم للأسف في حالة هبوط شديدة غير قادر على التحكم بانزلاقك".

توقف الطبيب قليلاً ثم تابع "في الجلسة القادمة سنحاول كشف أستار الرؤى التي تتبدى لك خلال النوم، وما إذا كانت حقيقة أم وهماً. إذاً الى اللقاء الاثنين المقبل".

غادر فريد العيادة وهو يحس ببعض من راحة لم يختبرها منذ فترة طويلة. يتنشق النسائم المسائية العليلة محملة بمزيج من روائح ألفها في مدينته حمص، في الشوارع الهادئة قرب بيته عندما كان صغيراً، فتعيد إليه صوراً من الطفولة. في طريق عودته من المدرسة اعتاد أن يتأمل شجرة "الأكي دنيا" تتدلى بأغصانها من حديقة الجيران. يتخيل طعم حباتها اللذيذ في فمه فيسيل لعابه ويتسلق سور الحديقة لقطف بعض من ثمارها. يقطف حبة ويلتهمها بمتعة مغمض العينين. لكن صياح الجار بصوته الأجش "انزل يا ولد، يا عفريت.. " يجعله يفقد توازنه فيسقط على الأرض متكوراً ثم يهرول مبتعداً. يتساءل في عقله عن هذا الجار الذي يضنُّ عليه ببضع حبات من الأكي دنيا رغم أن الشجرة مثقلة بحملها "جار عجوز لعين شحيح.. هل سيأكل كل الأكي دنيا على

الشجرة؟ انشالله ياكلها ويموت من وجع البطن". كرر المحاولات عدة مرات عندما تكون نوافذ البيت مغلقة ومسدلة الستائر، إنما في كل مرة كان صوت الجار يأتيه من مكان عميق "انزل يا ولد، يا عفريت"، فيقفز مرتعداً ومتسائلاً في نفسه كيف استطاع رؤيته، "يمكن من شق الستارة.. يمكن هو جالس طول النهار يحرس الشجرة مثل شيخ المطبخ الذي يحرس الطعام كما أخبرتني جدتي.. شيخ يختبئ في زاوية معتمة من المطبخ الواسع في البيوت الشامية العتيقة، ويراقب كل من يدخل إلى المطبخ لالتهام الطعام فيصرخ محذراً.. الحمد لله أن مطبخنا صغير ومضيء ولا يمكن لشيخ المطبخ أن يختبئ فيه".

يمسك بيد أمه متوجهيْن إلى الحديقة العامة ليلهو بالأراجيح الصغيرة فيها. لا يذكر أنه رافق أباه في مشوار يسعد طفولته. بضع مرات فقط اصطحبه إلى سوق السمك وتخرشَ أنفه بالرائحة النفاذة التي جعلته يشتم رائحة الليالي العفنة التي يقضيها وحيداً خائفاً في غرفته. تسللت إلى داخله كما تتسلل الكآبة إلى الروح. أصوات الباعة تلعلع في أذنيه "تازة.. تازة السمك.. تازة من طرطوس"، وأبوه يقلب أسماكاً صغيرة وكبيرة بيده على البسطة المتطاولة مقطب الحاجبين ومشككاً في أن الأسماك طازجة. كان فريد يستنتج ذلك من طريقة حديثه مع البائع. يشتم واحدة ثم يرمي بها على البسطة ثانية بقرف، وكأنه كان يتوقع أن يشتم رائحة عطور منها، ثم ينتقل إلى بائع ثانٍ وثالث وهكذا إلى أن ينتقي الأسماك التي تروق له فيقفل عائداً إلى البيت برفقته، مذكراً له بفوائد السمك وضرورة تناوله لعلمه أن ابنه لا يحبذ أكله.

"اقليهم ليصيروا مقمَّرين"، يقول أبوه لأمه داخلاً خارجاً من المطبخ لتفقد طريقة الطهي.. "لسه.. لسه ما تقمروا.. خليهم شوي كمان".

يلتهم أبوه السمكة تلو الأخرى بكلتا يديه ويُخرج الحَسَك منها بعناية ويقول "كول يا ولد ليش ما عم تاكل؟ شو ما بتحب السمك؟ لا تقلي ما تحب السمك لأنه بدي اقصف عمرك إذا ما أكلت.. ".

نفس العبارات يرددها أبوه كلما كانت الوجبة سمكاً. تضع أمه سمكة صغيرة في صحنه وهي صامتة يتفحصها دون أن يأكل. ينظر في عين السمكة فيراها تنظر إليه وفمها يبتسم وكأنها تقول له "ستأكلني غصباً عنك.. لا مفر لك من أكلي.. "، فيخاطبها صامتاً "سأضعك في الماء ثانية.. أفيقي أرجوك.. اقفزي.. هيا اقفزي.. سأرجعك إلى الماء.. بس خلصيني منك.. ما الذي ستفعلينه في معدتي؟ أليس الماء أفضل لك؟".

ينظر إليه أبوه شزراً ويقول بحدة " كول ولك.. كول.. بتعرف شوفي بالسمك؟. أكيد ما بتعرف.. منين بدك تعرف وعندك أم جاهلة ما بتعلمك هيك شغلات.. فيه فوسفور يا غبي وزيت أوو.. أوو.. ميايغا"، ويقصد أوميغا 3، ".. هي ماركة الساعات.. ياللي بيحكو عنها.. منشان يتنشط ذهنك ويتفتح مخك المسكر وتتحسن بالمدرسة.. ".

تنظر أمه إليهما معاً بابتسامة باهتة دون تعليق فيقول في عقله "ولماذا يضعون زيت السمك في الساعات؟".

ينتش من السمكة قطعة صغيرة ويضعها في فمه فيحس بالحسكة تنخز سقف حلقه وبلعومه. يبحث عنها بلسانه دون جدوى.. يكاد يختنق.. لم يعد أمامه سوى أن يبصق اللقمة في

الصحن قائلاً "فيها حَسَك.. ما بدي آكل.. ما بحبه". يحسب أنه وجد سبيلاً للنجاة لكنه يقع في المصيدة ثانية، عندما تخلِّص أمه قطعة السمك من الحسك وتعطيها له ثانية. يتظاهر بالأكل ويزيح فتات السمك رويداً إلى طرف الصحن لتسقط تحته من الجانب المعاكس لكرسي أبيه. لا يدخل إلى جوفه سوى القليل منها. ينهي أبوه وجبته وينهض وهو يلقي نظرة على صحن ابنه فيجده فارغاً فيتوجه إلى الحمام، وينجو هو من الأكل والعقاب. ولكن ليس في كل مرة. مرات كثيرة حُرم من الطعام طوال النهار بسبب الحيل التي ابتدعها لتجنب تناول السمك.

يبتسم وصور قليلة ماضية تلاشت مع مر السنين، تعود اليوم إلى ذاكرته لأول مرة. في صباحات كثيرة كانت عينا أمه متورمتين من البكاء، وهو يتظاهر بعدم الفهم عندما تكتم آلامها وتقول له إنها لم تنم جيداً بسبب صداع ألمَّ بها في الليل. يتذكر الهدوء الحزين في وجهها وصمتها الدائم اللذين كانا مصدر شقائه. حبه لها امتزج بكراهيته لأبيه. كان يعجب لها تبتسم له وهي تبكي، كان يحس أنه طفل ضعيف وعاجز عن أن يمد لها يد المساعدة ليخرجها مما هي فيه. يضع حلولاً في عقله الصغير، يقترح على نفسه في الليل أن يتركا أباه ويهربا معاً إلى مدينة أخرى أو إلى بلد آخر.. سيذهب إلى مدرسة جديدة هناك، ولكن كيف سيعيشان؟ ومن أين يمكن لهما أن يحصلا على المال؟ فأمه لا تعمل ولم تفكر بالبحث عن عمل في يوم وهي لا تملك بيتاً.. وكيف ستدفع أجرة بيت في مكان آخر. إذاً هذه الفكرة ليست جيدة. يجب أن يفكر في حل آخر. لن يذهب إلى المدرسة سيبحث عن عمل هو بنفسه، أجيراً في كراج لتصليح السيارات أو عند نجار أو بائعاً في محل.

لكن أمه لن تسمح له أن يترك المدرسة فهو لا يزال في العاشرة من عمره. وهذا الحل ليس مناسباً أيضاً. تعجز الحلول في عقله فيهتدي إلى أمر آخر. يجب أن يقتل أباه ليخلِّص أمه من كل هذا العذاب الليلي. سيذبحه بسكين المطبخ الكبيرة. وماذا لو لم تكن يده قوية بما يكفي لجز عنق أبيه. يجب أن يستجمع قوته قدر المستطاع لينفذ هذا الحل. يموت أبوه.. ويضعونه في صندوق خشبي ويمشون في جنازته.. يمشي الناس وراء النعش صامتين. يسمع صوت بكاء من بعض المشيعين ربما جدته أو عمته.. يسمع صوت تراتيل دينية.. يسير مع أمه في الجنازة بهدوء.. يتظاهران بالحزن لكنه حزن سعيد، فيسأل نفسه "حزن سعيد؟ كيف؟ كيف يكون الحزن سعيداً؟. خلص حزن بلا حزن وبس".. ألا يكفي أن روحيهما تحررتا من الخوف؟. لا خوف في حياتهما بعد اليوم.. لن يشعرا بألم الفراق.. فراق أبيه. إنه فراق سعيد.. ولكن مرة أخرى كيف يكون الفراق سعيداً؟ "حسن إنه فراق مع الشر، والشر هو أبوه". يضعون أباه في القبر ويغادرون.. سيشعر أبوه بالوحشة لأول مرة كما كان هو نفسه يشعر في الليالي الحالكة الظلمة عندما يسمع صوت أمه تبكي.. فليذق ما كان يذوقه من خوف.. يأتي الملَكان "أنكر ونكير" لمحاسبته على ما اقترفه من ذنوب في حق زوجته.. يضربانه "بالمزربات" ضرباً مبرحاً كما كانت جدته تحكي له... قالت جدته إن القبر سيصبح ضيقاً جداً حتى يهرس عظامه ولحمه ولا يستطيع أن يتحرك.. إنه يستحق العقاب.. يجب ألاَّ يشعر بأي عطف تجاهه.. ثم يسوقانه إلى جهنم.. هناك سيشوى بالنار مثل السمكة التي يحبها ويشويها في الفرن.. لن يأكل سمكاً هناك.. سيكون هو سمكة مشوية أو مقلية.. هاهاها.. يحترق جسده

ويتفتت.. يصرخ ويتألم ويعلن التوبة.. إنما دون جدوى.. ثم يعود جسده سليماً.. فيُلقى به في النار ثانية ليشوى مرة أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.. عذاب أبدي.. كما كانت تقول جدته لا خروج منه.. ولكن ماذا لو اكتشفت الشرطة أمره وعرفت أنه قتل أباه.. حتماً ستودعه السجن.. لا بأس.. على الأقل فُتح باب القفص وأصبحت أمه حرة طليقة.

لم يخطر في باله قط أن أمه ستجد حلاً يريحها ولكن من دونه. كيف استطاعت أن تكون بمثل هذه القسوة وتتركه؟ ألم تفكر بالكارثة التي حطت في حياته لغيابها.. دمرته وأمعنت في تعميق وحدته. كان يفكر كطفل صغير لماذا لم تأخذه معها حتى إلى الشقاء فسيكون سعيداً. هل هي حقاً مع رجل آخر ونسيته؟ هل هي فعلاً تحب الرجل الآخر أكثر منه كما يقول أبوه؟ لماذا لم تسأل عنه أبداً؟ لم يعد يعرف عنها أو يسمع منها شيئاً، ولم تفكر يوماً بالاتصال به. وحتى لو فكرت فأبوه سيمنعه من رؤيتها، هكذا كان يهدده. صار أبوه أكثر صرامة وتجهماً بعد رحيلها.. هاهو يحضر طعامه بنفسه ويناديه.. يبتلع اللقمة بصعوبة.. الطعام يسري سماً في جوفه.. البيت غير مرتب وغير نظيف.. فوضى الملابس والكتب والغرف، والصحون والملاعق والمطبخ.. فوضى الغبار والفراش والأدوات.. فوضى النفس والعقل والروح.. فوضى في كل مكان وكل شيء.. كلها إعلان غياب الأم.. الأنثى من البيت.. لماذا لم يحافظ أبوه عليها؟ لماذا لم يرعَها ويحبها. أولم تكن حياته أفضل من قبل؟ هل هو أفضل من دونها الآن؟. كانت علاماته سيئة في مادة التاريخ. لا يحب التاريخ ولا قصص الأجداد ولا الدول ولا الأمم ولا المعارك ولا الغزوات

ولا البطولات ولا الانتصارات ولا الهزائم ولا القتل والاقتتال من أجل الأرض والسلطة والحكم.. الكل يقتل الكل.. حبسه أبوه في غرفة "الكراكيب" المعتمة يوم الجمعة بكامله. لو كانت أمه موجودة لما تركته طوال النهار.. نظر إلى النافذة الصغيرة في أعلى الجدار التي تطل على "منوَر البناية".. ثم حوله.. صناديق مكدسة وحقائب قديمة يعلوها الغبار وكراسي مكسورة ومرآة كبيرة مشروخة في منتصفها، ظهر وجهه فيها مقسوماً إلى نصفين، نصف يتجه إلى أعلى ونصف إلى أسفل. ماذا لو كان وجه الإنسان غير متناسق هكذا، وكل جزء منه في جهة مختلفة؟ عين فوق وعين تحت، وأنف متحرك مثلاً.. سيكون مخيفاً وربما مضحكاً.. راح يضحك ويمعن النظر في المرآة.. هاهاها.. أنفه يبدو عجيباً مثل أنف الكركدن.. مفلطح.. ازداد فلطحة في جزئي المرآة.. مثل أنف أبيه.. يكرهه.. يذكره به.. وحتى عيناه تشبهان عيني أبيه.. عسليتان واسعتان فيهما جحوظ خفيف.. ومع ذلك لا يبدو وجهه قبيحاً.. لا يريد أن يشبه أباه في شيء.. لم يكن يدري أنه سيغدو مثله تماماً بعنفه وغضبه وهيجانه في يوم. رائحة الغبار والعفنة تخرش جهازه التنفسي.. يسعل طويلاً.. يبكي طويلاً يمسح دموعه.. يشعر بالجوع.. يحس بالصناديق والأشياء تنظر إليه وتتعاطف معه.. اعتادت وجوده بينها في ذلك اليوم.. يغفو لبعض الوقت متكئاً برأسه على حقيبة جلدية ويتمنى أن يفيق على واقع آخر. عندما يفتح عينيه يجد نفسه في نفس المكان لكن العتمة ازدادت.. ربما حلَّ المساء.. لمَ يعاقبه أبوه؟ ألأنه لا يريد أن يعرف تاريخ الأرض؟ يرى قبضة باب الغرفة تتحرك ثم يفتح الباب

"اخرج.. هيا.. اخرج" يناديه أبوه "في المرة القادمة ستكون علامتك في مادة التاريخ كاملة!".

كان يبكي كثيراً في وحدته. لم تغب أمه عن باله يوماً ولطالما رأى في أحلامه أنها عادت إليه. رآها تجري فاردة ذراعيها لتضمه إلى صدرها طويلاً. كم كان شعوراً رائعاً وراحة مطلقة وكأنه في الجنة. ولكن عندما يفتح عينيه يوقن أنه كان حلماً جميلاً وأن الواقع مر وقاسٍ لا يرحم. يهرع إلى خزانة ملابسها الفارغة ويضع رأسه داخلها ليشتم بقايا رائحتها فيها. ثم يبكي بحرقة "لمَ تركتني يا أمي؟".

اختبأت الشمس في خدرها وتركت خلفها خيوط شعاع خافت يتوارى في الأفق، وبدأت النوافذ تضيء تباعاً. أغلق فريد خزانة ذاكرته المشرعة ما أن وصل إلى البيت ودخل غرفته دون أن يتفقد فيما إذا كانت ابنتاه في المنزل. انكب على الكومبيوتر يدقق في بعض الملفات الخاصة بشركة السيارات التي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة من الليل، إلى أن أحس بالإرهاق فاستسلم لنوم عميق. بعد نحو ساعة عادت الأصوات المبهمة تجول في رأسه وأذنيه وتحفر في هدوء الليل. فتح عينيه بقوة. صوت نسرين ينادي جوديا. يتردد اسم جوديا في الصدى. ينهض فزعاً ينظر حوله، يفتح النافذة فتلفح وجهه ريح قوية. يغلقها ويركض إلى الصالة في الطابق الأرضي. جوديا تقف هناك جامدة تحت الضوء الخافت لا تنظر في شيء. يصرخ فريد "جوديا، جوديا.. ما بك؟ ماذا هناك؟" تنظر إليه جوديا بحدة، ثم تصعد الدرج بخفة متناهية بل تحلق فوقه.. يراها بأمِّ عينيه تحلق فوق الدرج دون أن تلتفت.. هل يكذب عينيه؟ كيف يحصل هذا؟ تعود إلى غرفتها ببطء.

يضرب رأسه بكفيه بشدة، ثم يضرب الحائط ثم درابزين الدرج، ثم باب غرفته. يركض إلى غرفة جوديا، يطرق الباب بشدة ويحاول فتحه، لكنه مقفل وما من مجيب. يصرخ "جوديا، جوديا".

ظهرت ساريا عند باب غرفتها والنوم في عينيها وقالت "ماذا هناك يا أبي؟ هل أنت بخير؟". نظر إليها بعينين زائغتين وأجاب "الأصوات.. الأصوات إنها لعنة إلهية.. لعنة إلهية تلاحقني.. أجل، أجل.. ". عاد إلى غرفته منهكاً يفكر في الطبيب النفسي، وأغلقت ساريا باب غرفتها وعادت إلى النوم.

مع انبلاج الفجر، تسللت أشعة الشمس إلى عينيه، فشعر بارتياح لانتهاء الليل. استسلم لنوم عميق لأكثر من ساعة، إلى أن سمع ساريا تنقر باب غرفته وتحثه على النهوض، فالساعة قاربت الثامنة والنصف. نهض من فراشه بتثاقل وفتح الباب ببطء فبادرته ساريا "كيف أنت اليوم يا أبي؟ أفضل حالاً؟".

هزَّ رأسه إيجاباً، فقالت "ننتظرك في غرفة الطعام، أسرع".

توجه فريد إلى الحمَّام. عندما نظر في المرآة أصابته قشعريرة. رأى إسم نسرين ممهوراً على جبهته بطريقة عشوائية بين خصلات شعره البني المشعث. راح يصرخ وينادي ساريا التي هرعت إليه فزعة فقال "انظري إلى جبهتي.. انظري ما كتب عليها.. انظري".

تمعنت ساريا في وجهه ثم قالت "لا أرى شيئاً يا أبي... ماذا تعني؟".

قال وهو يرفع خصلات الشعر عن جبينه "حدقي جيداً في وجهي.. ألا ترين اسم أمك مكتوباً على جبهتي؟".

نظرت إليه وقد اتسعت عيناها "لا.. لا أرى شيئاً.. ماذا دهاك يا أبي؟ ماذا يحصل لك؟".

ركض إلى المرآة ثانية، لكنه لم ير شيئاً، فقال "لقد رأيت اسمها مكتوباً على جبهتي... أقسم أنني رأيته مكتوباً بلون أزرق.. ".

قالت ساريا "لا شيء مكتوباً على جبهتك. هذه أوهام. لا بد أنك متعب منذ ليلة البارحة. اذهب واستحم وستشعر بالتحسن".

جلس فريد على حافة السرير، واضعاً رأسه بين كفيه، وراح ينتحب "لا بد أني جننت.. لا بد أني مجنون.. أنا رجل فقد عقله.. إنها لعنة إلهية تلاحقني.. إنها نسرين.. أحس بها في كل مكان.. تحاصرني.. تقتلعني من وجودي... تنتقم مني.. تتشفى بي.. إنه كابوس لا ينتهي.. لا ينتهي.. ".

الفصل الخامس

عندما تلقت جوديا بطاقات الدعوة من صديقتها ناهد لحضور حفل زفافها أحست بغصة في حلقها وراحت تتمتم عابسة " اتفقنا معاً ألا تتزوج أيٌّ منا. وكانت ناهد على قناعة تامة بأن الزواج لا يأتي سوى بالتعاسة للنساء. لكنها خانت هذا الاتفاق. إنها مجنونة.. ".

ناولت اثنتين منها إلى ساريا، واحدة لها والأخرى لوائل، زميلها في العمل. وكان وائل لاحق قضية إرث تخص عائلة ناهد قبل نحو سنة.

بعد يومين التقت ناهد في الجامعة.

"هل ستحضرين؟"، قالت ناهد بتلكؤ.

جوديا لم تجب. بل اكتفت بالنظر إلى وجه صديقتها. سألتها ناهد فيما إذا كانت غاضبة منها لإخفائها الأمر عنها. فظلت جوديا على صمتها.

ـ أرجوك قولي شيئاً، لا أحب صمتك هذا.

توقفت ناهد قليلاً عن الكلام ثم تابعت في أنها لم تستطع الهروب من هذا الحب، وأنها تحب مروان ولم تعد تتصور حياتها من دونه.

ـ قد لا تفهمينني، لأنك لم تجربي هذا الشعور. كنتُ دائماً على ثقة بأن حياة من دون رجل هي الأفضل. منذ طلاق أبي وأمي، والحياة المضطربة التي عشتها بينهما، قررت أن أخط لحياتي مساراً بعيداً عن الجنس الآخر، إنما كل شيء انقلب رأساً على

عقب عندما التقيته واقتربت منه. تبدلتُ.. لم أعد أنا نفسي تلك الفتاة الصلبة والمتماسكة وحتى الجافة.. إنه شعور رائع.. مروان صورة أخرى مختلفة عن الحياة.. كيف أصفُ لك حالي يا جوديا... لا أدري. إنه شيء خارج عن إرادتنا.

أجابت جوديا بجفاء:

ـ مهما وقعنا في الحب، ومهما أطلقنا من أفكار وتسربلنا بقناعات، سرعان ما يجتاحنا الندم بطريقة أو أخرى، فنعارض في داخلنا ما آمنا به يوماً، بل قد نكرهه.

ـ عندما نبدأ السفر على طريق الحب نتغير من الداخل والخارج، يصبح نبراساً لنا نتبعه مثل زهرة عباد الشمس تتبع الضياء. جوديا، يا صديقتي الغالية، عندما نصبح غير قادرين على الحب، يجب أن نمضي من هذه الحياة.

لم تشعر جوديا برغبة في الجدل أكثر مع صديقتها فقطعت الحديث بالقول:

ـ أتمنى لك السعادة.

قالت هذه الكلمات ومضت.

كانت ناهد في العاشرة من عمرها عندما تم الطلاق بين والديها. شهدت كيف يستخدم الرجل كل ما بحوزته من أسلحة لتحطيم المرأة التي اختارها يوماً لتكون شريكة حياته، ورأت كيف تتمعج أحشاء المرأة بالكراهية لرجل أحبته يوماً، فتنقلب خفقات قلبها مائة وثمانين درجة على مقياس المشاعر لتصل إلى درجة الصفر.

كطفلة في العاشرة لم تكن ناهد تعي الكثير مما يجري، لكنها عرفت دوماً أن نساء أخريات كن يتجولن في قفص الزواج هذا،

ويخرجن منه غير عابئات، وأن أمها رحاب لم تكن الوحيدة في حياة أبيها.

كان والدها سمهر يردد أنه لا يكتفي بامرأة واحدة وأن على رحاب أن تتقبل الأمر الواقع. واتهمها دائماً بجفاف المشاعر وبتحولها إلى امرأة جامدة لا ترضي غرائزه الجنسية المتلاطمة. وكانت رحاب، كما وصفها تماماً، امرأة نضبت عواطفها تجاهه وازدادت نقمتها عليه، وصارت الخلافات بينهما خبزاً يومياً لا يستطيعان العيش دونها. كانت ناهد تسمع صراخهما في الليل وتجفل وهي ترى أمها تحطم الأطباق والكؤوس وترمي بها في وجهه وتنعته "بالفاسق الغارق في المجون" وتهدده مرات بالقتل. وهو يصفها بالجنون والحماقة ويصيح "يجب أن تحمدي ربك أنك تعيشين كالأميرات في بيت أشبه بالقصور والخدم من حولك". فتجيب أنها تفضل العيش في كوخ فقير مع رجل مخلص ومحب على أن تكون في ظل رجل عابث لا يقيم وزناً للحياة الزوجية ويقضي الليالي الحمراء مع النساء خارج بيته. ظل الصراع قائماً إلى أن رأته رحاب يوماً في فراشها مع امرأة أخرى. صفعته بقوة ومضت على طريق الطلاق دونما رجعة، مطالبة بحضانة ابنتها ناهد. باتت ناهد ضحية نزاع بينهما طال أمده، وكل يحاول أن يلوي ذراع الآخر بالإصرار على حضانتها.

بعد أشهر وفي يوم الجلسة للنطق بالحكم، أصدر القاضي حكمه بعدم أهلية رحاب لحضانة الطفلة، لعدم وجود مورد مادي لديها يوفر للطفلة متطلبات العيش السليم. كان القاضي صديقاً لسمهر، وتسلم مبلغاً دسماً منه ليكون الحُكْم في صالحه.

سحب سمهر ابنته من يدها بقوة عندما جاءت لحظة انفصالها عن أمها، والطفلة تصرخ وتتوسل، والأم تبكي عند بابها وتمد يدها إليها، علها تدرأ آلاماً، وتمنع مستقبلاً مجهولاً من القدوم، إنما من دون جدوى. لم تدرك ناهد حينها من كان على حق، أمها أم أبوها؟ لكنها شعرت دائماً أن أمها ظُلمت رغم عصبيتها وثورتها الدائمة. عاشت ناهد مع أبيها وفي داخلها تصحر نفسي وروحي، ومعين فارغ من الحب تجاه كل شيء. كانت تفهم في قرارة نفسها كيف يبيع والدها نفسه ويروج لها عندما يلتقي امرأة، لكي يلفت نظرها ويجذبها إليه. كان بارعاً فيما يسمى بعملية صنع المشاعر. يعرف متى يتوقف عن التمثيل ومتى يمضي فيه. فنظرة عينيه إشارات لاسلكية تتحول إلى كلمات في حال لقي القبول من الطرف الآخر. كان وسيماً وحيوياً ونشطاً لا يهدأ. أنيقاً الى أبعد الحدود، يقتني أفخم القمصان والبدلات وربطات العنق ويغدق على نفسه بالعطور. لعبت أوضاعه المادية الجيدة والأموال التي تجري بين يديه من شركته التجارية التي نقلها من دمشق إلى ماجرسان، عاملاً حاسماً في تقريب الجنس الآخر إليه، فوصل إلى نساء في أعلى طبقات المجتمع.

وبقيت ناهد تتخبط ما بين الحيرة والنقمة، والدأب على حقن نفسها بكراهية الجنس الآخر، والتوق للعيش مع أمها والاشتياق لها. لكن هذا الاشتياق بدأ يخفت تدريجياً كلما اقتربت من مرحلة النضج والشباب. اعتادت حياة الغنى والراحة مع والدها، ولم تعد تأبه لمغامراته، إنما لم تتوقف زياراتها الأسبوعية لأمها في بيت جدها. عانت ناهد وحدة طويلة ومؤلمة منذ انفصال والديها في مرحلة الطفولة. عاشت تعد الأيام لتصل إلى نهاية الأسبوع

وتقضي يومين في أحضان أمها ببيت جدها. وكانت الأم تستقبلها بالفرح والهدايا والمشاوير تعويضاً عن ألم الفراق المتكرر. ولطالما توسلت إلى أبيها أن يسمح لها بالإقامة الدائمة مع أمها، إنما لم تر منه سوى إصرار على أن تكون عقاباً لأمها ببقائها معه. وفي المرحلة الثانوية من دراستها، ربطتها صداقة عميقة مع جوديا، حيث تآلفت معاناتهما على مسار ألم مشترك. كانتا ترفدان بعضهما بأفكار الكراهية للرجال والتصميم على عدم خوض تجربة الزواج مهما كلف الأمر. إلى أن التقت ناهد بمروان وتبدلت أحوالها رأساً على عقب. عثرت على مروان بالصدفة المحضة ودون أن تبحث عنه. مجرد أحاديث عابرة وهامشية مع ثلة من زملاء الكلية كشفت عن طيبة قلبه ودفاعه المستميت عن النساء في كل مناسبة. كان يتحدث عن المرأة كزهرة يتضوع منها الأريج والعطر كلما سقيت محبة وعطفاً. ورأت ناهد في عينيه ذلك الحماس والصدق والمرح الذي أضرم في داخلها شرارة الإعجاب ثم الحب. في صحبته لفَّها بعباءة من الاطمئنان والراحة النفسية، ومحا بأحاديثه الطريفة زفرات الألم من صدرها المثقل بذكريات الطفولة التعيسة. وقع في حبها قبل أن تحس بذلك ورسم وجهها في لوحاته الكثيرة، اكتشفتْ لاحقاً أن غرفته مليئة برسومات صغيرة وكبيرة تعكس قسمات وجهها الرقيقة وعينيها الشهلاوين وشعرها المتموج وابتسامتها الجميلة ونظرتها الشاردة، إلى أن أصبحت تقرأ في عينيه ما يحمله لها من مشاعر عبَّر لها عنها فجأة في يوم، فتاهت ما بين ميلها إليه وخوفها من أن يكون مثل الآخرين. لكنها قررت أن تغير طريقها وتدخل تجربة تنسف أفكارها القديمة وتسير بها نحو مستقبل آخر. كان

مروان بمرحه وتعليقاته المضحكة والساخرة أشبه ببلسم يشفي جراحها ويبدد قلقها. لم تصدق عينيها عندما رمى بنفسه في بركة الماء بالحديقة العامة بعد أن قالت له إنه يردد نفس العبارات التي يستخدمها الشباب عندما يحاولون العبث مع الفتيات واستمالتهن. فقال "والله.. سألقي بنفسي في الماء لكي أثبت لك أنني صادق " فسخرت منه ناهد وقالت "لن تفعلها"، وفعلاً قفز في الماء وخرج مبللاً تتساقط من شعره وثيابه شلالات المياه وهو يردد "الآن أنا أشبه بقط مبلل في البرد لا حول له ولا قوة.. ماذا أفعل أكثر؟ هل صدقتني؟"، وناهد غارقة في الضحك بعد أن كادت تسقط بدورها في الماء وهي تمدُّ له يدها لتساعده في الخروج من البركة. عندما احتفلت بعيد ميلادها استأجر مروان سيارة مكشوفة وملأها بالبالونات الكبيرة الملونة ورسم على كل واحد منها وجهها وكتب اسمها عليها، ثم أطلق بوق سيارته بقوة عند بيتها معلناً وصوله. رأته من شرفة المنزل حاملاً البالونات ولوحة كبيرة رسمها لها وهي تتأمل الغروب على شاطئ البحر في تلك الرحلة. وعندما فتحت الباب لم تر منه شيئاً، بل غطت البالونات واللوحة وجهه وجسمه، وسرعان ما قام بعرض فكاهي وهو يحاول الدخول من الباب ويتعذر عليه ذلك، وناهد تبحث عن وجهه بين البالونات وهي تكاد تموت من الضحك، وهو يقول "منشان الله خذيهم من يدي.. ابعديهم.. أكاد أختنق.. ".

بعد أن انتهى المشهد وجد مروان نفسه أمام والدها سمهر في الصالة، وسرعان ما اكتسى وجهه بالجدية وبحمرة عابرة، فسلَّم عليه بحرارة وسمهر يتفحصه بابتسامة خفيفة. أحس سمهر أن مروان من الرجال الذين يتميزون بروحهم المرحة وحبهم للنكتة

والطرافة ويحملون معهم أجواء إيجابية أينما حلُّوا، وهو ما تحتاجه ابنته ناهد تماماً التي اكتشفت بدورها فجأة أن الحياة لا تستحق أكثر من ذلك. كان مروان يقول لها إن للحياة دروباً كثيرة يجب أن نكتشفها جميعاً وألا نبقى عالقين في مسار واحد، وأفضلها مسار المرح والضحك لكي نبعد عن الهموم والمشاكل ولا نفكر بها.

كانت جوديا تفكر في الحياة التي عاشتها صديقتها، والآلام النفسية التي طالما حدثتها عنها، وفي داخلها غضب ورفض لهذا الزواج. وكما هي عادتها عندما تكون في مثل هذا المزاج، تاهت في ازدحام الناس والسيارات في الشارع الموازي للكلية. مشت بخطوات بطيئة تتأمل المشهد المتكرر أمامها. عدد كبير من عمال البناء يفترشون الأرض على أحد الأرصفة. بعضهم يلتهم خبزاً وقطعاً من الجبن أو حلاوة طحينية من صرة قماش. يرفعون رؤوسهم بين الفينة والأخرى ويبحثون بأعينهم يمنة ويسرة، علَّ رئيس ورشة يراهم ويختار بعضهم للعمل في البناء الذي يشرف عليه. بعد دقائق تتوقف سيارة كبيرة، ويترجل منها شخص يشير بيده إلى عدد منهم، فيترك العمال الطعام ويهرعون إليه. يختار أربعة أو خمسة منهم يستقلون السيارة معه، ويعود الآخرون خائبين للجلوس على الرصيف من جديد. وها هو الرجل المجنون نفسه يهلوس بكلمات غير مفهومة يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال وتدور حدقتاه في محجريهما في كل اتجاه دون تركيز على أي شيء. يعلق بمرفق ذراعه، التي فقد ثلاثة من أصابعها، سطلاً معدنياً كبيراً وفارغاً يخبط عليه بعصا صغيرة في يده الثانية، مهرولاً على الرصيف بقفطان عريض مرقَّع يصل إلى

أخمص قدميه وكوفية على رأسه فقدت شكلها ولحية كثة الشعر وشحَّاطة مقطعة الأوصال تقحف الأرض بقوة. يتوقف ويضع السطل على طرف الرصيف ويتحسس جسده ثم ينظر إلى أعلى طويلاً، يحني رأسه قليلاً ويلف ذراعيه حوله ثم يعود ليتحسس جسده. يقال إنه يخشى شظية طائشة من طائرة. يحمل السطل مجدداً ويمشي قليلاً ثم يعيد الكرَّة بين الفينة والأخرى، وصِبية صغار يلحقون به ضاحكين وهم يصرخون "أبو حسون المجنون". يلتفت إليهم بعصبية ويضرب العصا في الهواء ذات اليمين وذات الشمال فيتراجعون قليلاً ثم يعودون لملاحقته دون كلل. بعض الأشخاص يحاولون إبعادهم عنه، وأحدهم يقول "كفوا عنه يا عفاريت... ابتعدوا عن هذا الرجل المسكين.. ".

ويبقى أبو حسون مهرولاً في المنطقة لا يعرف وجهة له. يغيب أياماً دون أن يدري أحد عن مكانه. يقال إنه يختفي بين الأودية بشكل غامض ثم يعود للظهور. وتدور حكايات شتى عنه وقصص خرافية تقول إنه يعاشر الجنَّ الساكنين تحت الأرض بين الجبال والوديان، وهو يذهب إلى عالمهم بين الفينة والأخرى. ويقال إنه ربما كان متزوجاً من جنِّية، وإنه يثوب إلى رشده ويصبح عاقلاً عندما يكون معها، وسرعان ما يعود إلى جنونه وهذيانه كلما رجع إلى عالم الإنس، لأنها تسلبه عقله قبل أن يغادر. لا يعرف الناس كيف وصل المجنون إلى ماجرسان. البعض يقول إن صياداً وجده فاقد الوعي على شاطئ في تركيا بعد غرق المركب الذي كان على متنه وساعده في الانتقال إلى ماجرسان. إنما ومنذ وصوله راح يخسر عقله ولغته، فغدا أشبه بكتاب فارغ يبحث عن ذاته وكلماته فلا يجدها. تائهاً وسط الزحام في خضم حياة جديدة لا

يفقه كلماتها أو معانيها، يبحث بشكل دائم عن شيء لا يعرفه. ازداد وضعه سوءاً مع الأيام إلى أن وصل إلى هذي الحال.

في زاوية أخرى من الشارع، بائع كهل يجر عربة، وفوقها حلة كبيرة من الذرة المسلوقة. ينادي بأعلى صوته "حلوة يا ذرة..". كان يتصبب عرقاً أثناء دفعه العربة صعوداً فوق طريق ضيق منحدر في جانب الشارع، يفضي إلى حارة شعبية.

أخرجت جوديا ورقة وقلماً، ورسمت خطوطاً عامة للمشهد، ثم كتبت في أسفل الورقة "أجساد الرصيف.. الجوع.. دوس بالنعال.. على قارعة الطريق.. وجوه.. عرق ينزُّ.. دموع.. تعب.. غضب الأشياء يرتج في قلبي.. يصرخ في رأسي.. ويزمجر في حلقي.. ".

وقفلت راجعة إلى البيت.

نثرتْ الألوان بصخب فوق اللوحة. رجل عملاق، وجهه بالمقلوب، فمه في جبهته وعيناه مكان فمه، يرفس أشخاصاً مثل كرات يشوطها إلى هدف، والهدف مبان مجوفة. العملاق يحمل بأحد كفيه دمى بشرية، ويرمي بآخرين بأطراف أصابع كفه الآخر، داخل حاوية زبالة. أناس يتساقطون من أعلى أحد المباني فاغري الأفواه.

تلهث مع ريشتها ومع العمال. تتشقق يداها من حجارة الأرض والمباني. تنسج ألوان الزمن من المتخمين والجائعين.. ومن المتجبرين والبائسين.. لا تنتهي الألوان.. تظل ترسم الزمن.

رجل بسطل على رأسه يرتدي قفطاناً عريضاً في شكل أرجوحة يجلس فيها أطفال ضاحكون.. وجهٌ متعب في زاوية الصورة السفلى يتصبب عرقاً.. عيناه فيضان دموع تتجمع نهراً

ينحدر إلى الأعلى نحو السماء. يرتجف كفاها والريشة، وفي زاوية عليا بين الغيوم، فم يدخن غليوناً.

تأملتُ لوحتها وقلتُ "هناك حزن وألم كبيران في هذا الصورة".

قالت وعيناها مثبتتان على اللوحة "هناك حرب بين مملكة الله ومملكة الرجل الشيطان منذ الأزل، والأخير هو المنتصر.. دائماً، أليس كذلك؟".

أجبتُ متعجباً "مملكة الرجل الشيطان؟ هذا حكم قاسٍ ونظرة تشاؤمية.. ".

"بل هو الواقع.. الشر الذكوري ينتصر، والإله ينظر، ولا يتدخل.. ".

"إنها حرية الاختيار التي منحها الله لنا. والكثيرون اختاروا الشر لأنه الطريق الأسهل.. ".

"بل قل إنه حكم الرجل. هذه السلطة التي صاغها الرجال لأنفسهم ووضعوا قوانينها وفق أهوائهم، هي السبب في تدمير هذا الكوكب... الرجل يجب ألاَّ يحكم... ليتخلى عن هذا المنصب لكي نحيا جميعاً.. ".

صدمتُ بقولها، وتركتني صامتاً وحائراً وتابعتْ نثر الألوان.

رأيت لوحة أخرى رسمتها جوديا ووضعتها جانباً. لم تلفت انتباهي كثيراً كونها تصور الكواكب في الفضاء وحولها أجسام مضيئة غير واضحة الشكل. لم أسألها عنها ولم أفهم ما كانت ترمي إليه، لكنني اكتشفت في قادم الأيام سر هذه الصورة الغريب وبأن جوديا رسمت العديد من اللوحات المشابهة لها واحتفظت بها في غرفتها بالبيت.

كان سر جوديا الصادم في دفتر مذكراتها الذي وصل إلى يدي في يوم وجعلني أهذي.

"كوكب وردي في مجرة بعيدة بأحد الأكوان الموازية، تحوَّل إلى ساحة حرب بين طاقات أنثوية متمردة وحاقدة وشديدة البأس جاءت بالملايين من كواكب ومجرات مختلفة ومن كل حدب وصوب لغزوه والاستيلاء عليه وتشكيل مملكة النساء، وبين رجال ونساء هبوّا للدفاع عن كوكبهم. تشكلت مجموعات من الطاقات الأنثوية الغازية في كل مكان من الكوكب أطلق عليها "الطاقات المختارة"، ودارت معارك دامية استمرت ردحاً طويلاً من الزمن بينها وبين سكانه الذين تعرضت أجسادهم للحصار والاختناق بالقوة الكهرومغناطيسية القاهرة للطاقات الغازية، فقضوا وتحولوا إلى طاقات بدورهم. وكانت تُشاهد فوق الكوكب انفجاراتٌ هائلة أشبه بالانفجارات النووية نتيجة تصادم الطاقات الأنثوية مع الطاقات الذكورية. وتمكنت الأولى من هزيمة الثانية بعد نحو قرن من الحروب في حسابنا الأرضي وبضعة أسابيع في حسابهم الكوني. طردتها خارج الكوكب وحولت معظمها مع طاقات النساء اللواتي دافعن عن الرجال إلى ذرات نووية عالقة في الفضاء. احتفظت الطاقات الأنثوية المتمردة بأجساد الرجال النافقين وصلبتها على جدران ما تبقى من المباني في بعض المدن وقد قطعت أعضاؤها التناسلية. وتُركتْ تلك البقاع كنُصُبٍ تذكارية لتكون شاهداً على فناء جنس الرجال. أصبح الكوكب يعرف بكوكب النساء الوردي. وأي رجل يفكر بالعبور إليه يكون مصيره الموت الزؤام وإرساله جثة هامدة إلى الكوكب الذي جاء منه. كانت جثث الرجال المتطفلين تُحمل في سفن فضائية إلى

الكواكب الأخرى بعد تقطيع أعضائها الذكورية، ليكونوا عبرة لمن يعتبر.

بعض الرجال الشجعان حاولوا الوصول إلى كوكب النساء تثيرهم فكرة عدم وجود رجال فيه علَّهم يحصلون على حظوة عند بعضٍ من هذا العدد الهائل من النساء، لكنهم واجهوا الفناء وصاروا مجرد تماثيل محنطة تعرض في الشوارع أمام الطاقات النسائية العابرة اللواتي لا يولين اهتماماً كبيراً لرؤيتها بل يواصلن السير مبتسمات.

كل أنثى تود الالتحاق بالكوكب النسائي تلقى ترحاباً ومساعدة فائقة وتسهيلات من أجل العبور إليه، ولكن بشرط صارم وهو أن تتخلى عن جسدها وتتحول إلى طاقة، وألاَّ تحنّ في يوم إلى عالم الرجال، لأنَّ عقوبتها ستكون الموت والتلاشي بعد تصنيفها من النساء الخانعات الضعيفات.

كانت الطاقات الأنثوية أجساماً نورانية مضيئة كشعاع أبيض في شكل نساء شابات وفتيات صغيرات لا يوجد بينهن عجائز. يمكن تمييز ملامحهن الجميلة بوضوح. يسبحن في الفضاء من مكان إلى آخر، ويتنقلن بين الكواكب والمجرات بسرعة مذهلة تعادل سرعة الضوء. لم يعد في الكوكب من مبانٍ سوى القليل تُعرض فيها أجساد الرجال المحنطة، وتحولت أرضه كلها إلى وديان مغطاة بالأزهار والنباتات الوردية وسهول اختلط في أعشابها اللون الوردي بالأخضر، وجبال حمراء، وأما الأنهار فكانت مياهها قرمزية زرقاء. وانعكست ألوان الكوكب على السماء التي بدت وردية بغيوم زهرية. وشمس الكوكب يدور حولها غبار سديمي وردي لذا فإن أشعتها خفيفة وبعيدة. يتعاقب

الليل والنهار كل ثلاثة أيام بحسابنا الأرضي، والضياء خافت والليل باهت غير معتم.

لا يوجد فصول هنا بل هو ربيع دائم من دون حر أو برد أو رياح. تدور حول الكوكب خمسة أقمار فتظهر معاً في الليلة الواحدة بصحبة أعداد هائلة من النجوم أشبه بقلادة مرصعة بالماس على نحو يأخذ بالألباب.

تحولت الطبيعة لتكون هلامية ناعمة كالحرير، وليست جماداً أو حجارة يمكن لمسها باليد. تنزلق الطاقات الأنثوية فوقها بسهولة وسلاسة. وكل طاقة يمكنها أن تستنسخ من نفسها طاقة صغيرة شبيهة بها لتكون أختاً أو ابنة لها تمدها بأحاسيس الأخوة والأمومة، كما يمكن لها أن تحول شكلها فتتطاول أو تتقلص حسب ما تشتهي، أو تتكور فوق أغصان الشجر أو داخل ورود عملاقة بتويجات ضخمة تستظل بظلها أحياناً. يمكن اختراق هذه الطاقات الأنثوية والمرور عبرها مثلها مثل تلك الجبال الهلامية والأنهار الخلبية.

ولو وضعت إصبعك على إحداهن فسيدخل في الفراغ ولن تتمكن من لمسها فعلاً، وتحار في أمرك فأنت ترى تفاصيل أجسادهن الغضة ولا تراها وكأنها غطيت بغلالة شفافة تكشف أكثر مما تستر. فهن يتراوحن ما بين الرؤية والحلم وبين الحقيقة الضبابية والواقع الندي. يتمطيْن بحرية وعذوبة فوق الأزاهير والحشائش فليس هناك عيون ذكرية تلاحقهن أو أعضاء ذكرية تغتصبهن. لا تسمع في أجواء الكوكب سوى ضحكات الصبايا يتهادين بين المروج أو ينزلقن عبر الوديان وكأنك في جنات عدن. تخشع عيناك لرؤية الجمال والبهاء، وتطرب أذناك لتغريد البلابل

والطيور، ويتغلغل أريج الورود إلى أنفك، وتعانقك السماء والشجر والأنهار داخل عالم من الحرية والانعتاق المطلق. لا تلوث.. لا ظلم.. لا فقر.. لا سلطة رجولية.. لا تهافت مسعور.. لا قتل.. لا جشع.. لا طمع.. انتهت الحروب الذكورية وعم السلام الأنثوي الحقيقي الغامر".

مضت أيام عدة وأنا أسبح في عقلي وخيالي مع الطاقات الأنثوية السابحة فوق المروج والوديان وما تحدثت عنه جوديا من غرائب وعجائب في دفترها السري. وكنت أقرب إلى تصنيفها مريضة تعاني من الفصام. عدتُ إلى نفسي وواقعي عندما رأيتها عند بوابة الكلية في طريقها إلى البيت. كتمتُ ما بداخلي وأطلقتُ بوق سيارتي بشكل خاطف لأنبهها إلى وجودي. طلبتُ منها الصعود لأوصلها إلى البيت. ارتبكتْ قليلاً. لعلها رأت في عينيَّ لمعاناً، لم تألفه خلال أحاديثها معي من قبل. أحستْ بنظرتي تخترق أعماقها وتحمل وميض لهفة واحتواء. عكست عيناها تساؤلاً وتردداً وربما خجلاً، لكنها تماسكت وتظاهرت بعدم الاكتراث وصعدت إلى السيارة.

قلتُ "هل علَّقتِ اللوحة؟".

أجابت "أجل على جدار بجانب صورة أمي". توقفتْ ثم تابعت "أختي ساريا شعرت بالانقباض لدى رؤيتها".

لم أعلقْ بل اكتفيتُ بابتسامة ونظرة سريعة إليها. لدى وصولها إلى البيت، ودَّعتها قائلاً "أحياناً لا يكون الجمال حقيقياً ولا القبح حقيقياً، أليس كذلك؟"

كانت جوديا تتأمل لوحتي مرات ومرات وفي كل مرة تراها بشكل مختلف، ولا تستطيع أن تستقر على رأي بشأنها. داخل هذه

العين الزرقاء البريئة والهادئة، هناك أيضاً جمود وغموض غير مريحين. وداخل العين الأخرى الغاضبة، ترى أفقاً أزرق بعيداً يوحي بسلام. وحتى الابتسامة لا تدري أهي ابتسامة ماكرة أم حزينة. "كيف استطاع نمير أن ينقل كل هذه الأحاسيس إلى لوحته؟ كيف استطاع أن يراني؟ إنه فنان مبدع. ريشته تقتحم خلف الأشياء".

في عيادة الطبيب النفسي، فريد مغمض العينين يردد:

"صدى أصوات.. ونداءات في أذني.. النداءات صارت أقوى.. إنها نسرين تنادي جوديا في عتمة الليل. كل ليل.. الليل يخيفني.. يرهقني أكره قدومه.. أكره أن أنام.. يجب ألاَّ أنام.. يجب أن أبقى صاحياً لكي لا أخاف.. الليل يترصدني.. الريح القوية تعوي وتلفح وجهي.. عواؤها يخيفني.. نسرين تأتي في الليل.. نسرين تقترب.. صوتها يقترب.. إنها في الصالة تنادي جوديا.. أركض خائفاً.. ألهث.. جوديا هناك.. تنظر إلي.. لا ليست جوديا إنها نسرين.. ليست جوديا... تنظر إلي تخيفني.. نظرتها مرعبة تشلني.. لا تتحرك.. أنادي! لا تسمعني.. تمشي ببطء ثم تطير فوق الدرج إلى غرفتها.. أصرخ وأصرخ.. لا أحد يسمعني.. اسمها على جبهتي في مرآة الحمام.. أصرخ.. ".

راح فريد يصرخ، ووجهه وجسده ينزان عرقاً. فأعاده الطبيب إلى الوعي، وهو يقول "لا تجزع.. أنت بخير.. استفق.. هيا استفق".

تأمله الطبيب طويلاً حائراً كيف يفسر حالته. هل ما يراه فريد حقيقة؟ أم أنه أضغاث أحلام وأوهام لا وجود لها؟

وأخيراً قال له "إنك تعيش حالة من تأنيب الضمير. عقلك الباطن يصور لك أن نسرين عادت من الموت لتنتقم منك، لشعورك بأنك كنت سبباً في عذابها ومن ثم موتها. اسمع يا فريد، كل عمل نقوم به تجاه الآخر، هو رغبة في وضع هذا الآخر تحت سلطتنا أو تأثيرنا، سواء قدمنا له الهدايا أو أثنينا عليه أو عبرنا عن حبنا له، أو على العكس إذا قمنا بإيذائه بالعنف أو تقريعه أو توجيهه، فالدافع النفسي واحد، وهو ممارسة إرادتنا على الآخرين، وهذا يثبت بشكل كبير أن الإنسان أناني بالطبيعة".

"لكنني كنت أحبها إلى حد كبير.. والحب ليس أنانية"، قال فريد.

"بل كنت سلطوياً، والسلطوية نوع من الأنانية وهذه تظهر نفسها بأشكال شتى، مثلاً الغيرة التي تحولت عندك إلى مرض، الهيمنة، الشهوة، الحب الجامح المدمر الذي لا شيء يرضيه، كلها نوع من فرض الإرادة، وما أن تشبع إحداها حتى تظهر أخرى. إنها إرادة لا محدودة تشكو من عدم الارتواء، وهي منبع كل شر في العالم، لكنها جزء من طبيعة الإنسان، وهنا يتوجب على هذا الكائن، خلق توازن لكبح جماح إرادته والتحكم بها. وأنت كنت عاجزاً، بل استسلمت لغيرة قاتلة وشك معذب دمَّرا من حولك، واليوم تستسلم ثانية لإرادة العقاب في عقلك الباطن. شيزوفرينيا العقاب أعني عقاب النفس. يجب أن تلجمها وتوقفها عند حد لكي لا تقضي عليك. اسمع، يا فريد، كل الأمور لها وجهان. شيء ما يحمل وجهين متعاكسين لكنه يبقى واحداً. الممر يأخذك إلى أعلى أو أسفل أو ربما تفضي إحدى نهايتيه إلى شارع ممتد وأخرى إلى سد، لكنه يبقى نفسه ممراً واحداً. وعليك أنت أن تختار أي

النهايتين. الألم والسعادة وجهان متناقضان داخل النفس، والنفس واحدة. الجسد عليل أم سليم هو جسد واحد. الساخرون هم معجبون متوارون. الناقمون هم متسامحون مقتنعون. وأنت كنت حباً جارفاً وغيرة عمياء. واليوم أنت أمل ورغبة في التسامح، وفي ذات الوقت أنت عقاب. وكلا الوجهين يتصارعان من أجل الوصول إلى التوحد والتناغم داخل نفسك.

ما تراه مجرد أوهام. لن تتخلص منها سوى بتنظيف عقلك من شوائب الماضي. الماضي يمتصك ويجتزؤك بل يجرفك إلى الوراء. يجب أن تمحو هذا الماضي من عقلك تماماً، وتركن إلى التسامح مع نفسك ومع من حولك لكي تقدر على مواصلة الحياة".

سكت الطبيب قليلاً ثم أردف "سأعطيك بعض المهدئات التي قد تساعدك في الحصول على نوم هادئ.. كما سنواصل الحوار حول هذا الأمر في جلسات أخرى".

مشى فريد هائماً، تتردد كلمات الطبيب في عقله، ويتساءل فيما إذا كان قادراً على وقف ذاك العقاب النفسي، كما سماه، أو التخلص من هذا الكابوس الذي يلاحقه. هو واثق أن ما يراه ويسمعه ليس أوهاماً، ولكن كيف يقنع الآخرين؟ لا أحد يصدقه. نظرة الشفقة في وجه ابنته ساريا، تنبئ بأنها باتت ترى فيه مريضاً نفسياً يحتاج إلى علاج، أو ربما رجلاً أصابه مسٌّ من الجنون. وأما جوديا فأصدرت حكمها عليه منذ زمن بعيد.

حث الخطى على طول شارع ضيق زاحف بين هضاب تتمطى في المدى وجبال ساهمة غرقت قممها في السديم الضبابي. تشمخ من علو غير عابئة. تلتف بغموض وحشتها وتلقي بها في دروب العابرين. يسمع وقع أقدامه، والشمس شارفت على

المغيب، كان يضرب الأرض بنعليه بقوة علها تنشق وتبتلعه، أو تكون له لحداً يواري جسده دونما عودة. يتمنى أن يختفي أو تختفي جوديا من حياته علَّه يرتاح. لا ليست الأمور بهذه البساطة. لا ليست أوهاماً بل حقيقة. هو متأكد أن نسرين تعود من الموت دائماً. إنها حقيقة. وكيف لطبيب غبي لا يؤمن سوى بالنظريات والعلم أن يشفيه. أن يصدق عودة الأرواح. كم يبدو مغفلاً عندما يتحدث عما يكابده أمام الآخرين. يشعر أنه مغروس في ثنايا الماضي. تعود إلى ذاكرته أيام بعيدة. كيف انكبَّ على الدراسة إلى أن تخرَّج من الجامعة وحصل على شهادة في الهندسة المكانيكية ثم فتح لنفسه طريقاً بعيداً عن سلطة أبيه وجبروته. عمل موظفاً في شركة نقل في حمص. كان في الثامنة والعشرين عندما التقى نسرين وخفق لها قلبه. لم تكن الحرب قد بدأت حينها. بعد سنوات انطلقت شرارة الثورة. كانت ساريا في السادسة من عمرها وجوديا في الرابعة.. "صباح الخير يا وطني.. صباح الخير يا حمص.. أم صباح النكبات!.. ها أنا أعود لأضيع عبر الأزقة والذكريات.. في دروب حياتي الماضية والحاضرة.. الطائرات تدك المباني والقذائف تنهال فوق ساكنيها. إنه هروب جماعي من الموت.. إنه سباق مع الموت.. تلك هي لعبة الحياة.. كنا نرقص على رؤوس الأفاعي.. مقابر الموتى ومقابر الصمت الدولي.. وأطفال ليس لهم قبور.. ولا أكفان.. ليس لدينا وقت لندفن القتلى.. أو نضع أوراق الآس على حفر الموتى.. هذا ترف يجب ألا نفكر به.. عندما اشتد الجوع والحصار اقتات الأطفال من حاويات الزبالة. كانوا حفاة شبه عراة.. حرب ملعونة.. تفو.. تفو.. حرب قذرة.. أشعلتها دول تتقاتل على أرضنا وجعلت منا وقوداً

لها.. حرب سلطة ومصالح وثروات بذرائع كاذبة.. بلاد الموت.. قذفت بنا في وحل الشتات.. تفو.. تفو.. على بني البشر.. ". يبصق بقوة على الأرض ويشتم رائحة البارود والانفجارات تمتزج مع رائحة دخان السيارات أثناء هروبه مع زوجته وابنتيه إلى بيروت. كانت السيارة تنهب الأرض قاطعة المسافات بلمح البصر. تتوقف كل حين عند الحواجز العسكرية. حواجز كثيرة وعسكر مدججون بالسلاح. يمدُّ أحدهم رأسه داخل نافذة السيارة بوجه معفَّر متجهم ويحدق في وجوههم فتتسارع دقات قلوبهم خشية إرغامهم على العودة من حيث جاؤوا.

"من وين جايين؟".

"من حمص".

"لوين رايحين؟".

"بيروت".

يأمرهم بالنزول لتفتيش السيارة. يفتح الصندوق الخلفي ويقلب كل شيء رأساً على عقب، الحقائب والأكياس. يغلقه بقوة ويلوح برشاشه ويخبط على سقف السيارة.

"حرِّك.. تحرَّك بسرعة.. ما سمعت؟".

يتمتم السائق "حاضر سيدي".

النازحون بالملايين.. إلى الأردن ولبنان وتركيا وكل مكان.. الناس عند الحدود كأسراب الجراد.. بشر يتدفقون بحقائب سفرهم وأمتعتهم. سحنات كئيبة وآباء يحملون أطفالهم على أكتافهم في الزحام أمام شبابيك مكاتب الهجرة وعنابر التفتيش.. زحف يوم الحشر وكأن القيامة قامت.. إنه سفر اللاعودة.. ليس ذهاباً للاستجمام أو لقاء الأحبة.. ليسوا محملين بالهدايا والفرح.. بل

فارون من الوطن خوفاً منه.. مخلفين وراءهم من يتنفسون الاختناق ويعدّون الموتى.. الحرب لا ترحم.. يكاد لا يصدق أنه نجا مع زوجته وابنتيه وأن المركب متجه إلى اليونان بعيداً عن بلاد الموت. مراكب كثيرة مطاطية وخشبية وأعداد هائلة من الهاربين إلى شواطئ أخرى وأوطان لا تشبه الأوطان ومدن لا يعرفون عنها شيئاً، بحثاً عن حياة آمنة وهروباً من القتل. أناس راحلون إلى المجهول.. أصيب المركب بعطب وتدفقت المياه إلى داخله. مال إلى أحد جانبيه والناس يصرخون.. أصبحوا داخل الماء بسترات النجاة يبحثون عن أي شيء صلب يتمسكون به، وذراعاه تحيطان بابنتيه الباكيتين. الخوف في عيون نسرين يضنيه.. يردد بصوت عالٍ "لا داعي للخوف سينقذوننا.. لا تخافوا.. سيصلون إلينا.. ". الناس يصارعون الأمواج.. صراخ وتوسلات وعويل وبكاء في لحظات انتظار جحيمية داخل اليمِّ الهائل فاغراً فاهه ينوي ابتلاعهم.. وأخيراً وصل خفر السواحل اليوناني وأنقذهم مع الكثيرين، وغرق الكثيرون.. عند الشاطئ صاروا مجرد صور في كاميرات وفلاشات.. يسعى لمحو ذاكرته ووطنه كالآخرين. يضيق بالذكريات، يريد أن يطوي صفحتها سريعاً. ولكن عبثاً.. تلعب الرياح بين أزقة حمص المدمرة والخالية وبين خلايا عقله فتطيح بأعشاش أحلامه ليصبح فارغاً كما مدينته. ولكن إما الهروب أو الموت. لا ثالث بينهما. فتحت بعض الدول أبوابها للاجئين على مضض، والسوريون على وشك الانقراض.. مرت عليهم بضع سنوات في اليونان وهم ينتظرون انتهاء الحرب من أجل العودة، ولكن عبثاً. لحق به أبوه بعدما باع محل الأقمشة الذي يملكه في أحد الأسواق بحمص. توفي بسرطان

المعدة هناك. الانتظار سد مسام روحه وشرايين جسده، وحِملُ الوطن الجريح أنهك ظهره. اشتغل في كراج لتصليح السيارات، وأعطت نسرين دروساً خصوصية في تعليم الموسيقى للأطفال. كان يأتي معفَّراً مسودّاً منهكاً. وكثيراً ما يفرِّغ حسرته وألمه لفقدان كل شيء غضباً وعصبية في وجه زوجته. الحرب جزء من سخطه والتشرد نبض في عروقه. كان يفرك رأسه وجسده بقوة تحت مرش الحمَّام، يريد أن يزيل الأوساخ عن جلده وذاكرته، وسرعان ما يتذكر أولئك المقيمين في الخيام أو تحت الأشجار أو في الكهوف من أبناء جلدته من دون ماء أو تدفئة أو كهرباء فتزداد أوجاعه وأحزانه، ويتوه بين اعتراضه واستنكاره لما فعلته الأقدار بالأبرياء وبين جحوده لمِنّتها عليه بالنجاة من الجحيم.

تردد اسم ماجرسان بين المهاجرين، ورحل فريد إليها مع أسرته بعد نحو أربع سنوات عندما كانت في بداية تحولها. ساهم مع الآخرين في تطويرها وانخرط في أعمال ونشاطات كثيرة من أجل النهوض بالمدينة إلى أن أصبح مديراً في فرع وكالة للسيارات فيها.

كانت ساريا في انتظاره عندما ولج من باب البيت، سألته على الفور كيف سارت الأمور، فأجاب "ليس تماماً". عادت لتستفسر فيما إذا وجد الطبيب علاجاً لحالته، فقال "ليس بعد"، ثم توجه إلى النافذة، ووقف ينظر إلى المشهد خارجاً لفترة طويلة، وساريا تتبعه بنظرها. وإذا به يلتفت فجأة ويقول "لم أكن راضياً عن نفسي في يوم فانتقمت من الآخرين. الآخرون هم ضحاياي أنا، وأنا ضحية نفسي... أنت.. أمك.. جوديا.. كلكن ضحاياي. تحملتن جانبي

القبيح.. روحي الفوضوية تدمرني... إنها حقيقة قذرة.. يجب ألاَّ أخوض فيها.. يجب أن أنتهي من كل شيء.. يجب أن ينتهي كل شيء".

يدرك فريد أن الماضي يخرج مخالبه في كل مرة يسمع فيها تلك الأصوات. أينما التفتَ يرى الماضي يحدق فيه. لم يكن صوت نسرين، بل الماضي بكل أخطائه يتجسد في صوتها. كان الزوج المجنون الذي أرسل زوجته إلى حتفها، وهو اليوم الأب المجنون الذي يتمنى الموت لنفسه وابنته. سرعان ما صعد إلى غرفته وساريا تتبعه بعينيها.

تشعر ساريا بعذابه لكنها عاجزة عن فعل شيء. تحس بالوحدة والعجز في هذا البيت. ترى والدها يتداعى بعد أن كان جبلاً أشم وترى جوديا كائناً قُدَّ من صخر. دفنت نفسها بين ملفات القضايا في مكتبها وكأنها تهرب من واقع يزداد مرارة. عندما رفعت رأسها ذات مرة، لم يخطر في بالها بأنها سترى وائلاً بشكل مختلف. تأملته طويلاً وهو يتحدث على الهاتف بصوت خافت وابتسامة على شفتيه. كم هو وسيم! ابتسامته ساحرة، شعره اللامع المصفف بعناية، وعيناه البنيتان الواسعتان وقامته المديدة كلها تثير إعجاب ومشاعر العديد من النساء اللواتي كان وائل يلاحق قضاياهن، لكنها لا تشعر بأي شيء تجاهه، أم أنها تشعر؟ ما الذي يحدث لها؟ شيء محير في داخلها. لا بد من تنمية الشعور، إن وجد، حتى يصل إلى مرتبة الحب. إنما لا يمكن زرع بذوره في أرض جدباء لا خصب فيها. وائل أرض جدباء كما تراه. ولماذا تنظر إليه هكذا؟ لماذا تفكر به اليوم. لماذا تفكر بالحب؟ أليست أختها جوديا محقة في موقفها من الجنس الآخر؟ الحب يجعلك

ضعيفاً. تفتح قلبك وصدرك فيدخل إليهما شخص دونما استئذان ليقلب حياتك و"يلخبطها". تبني كل الدفاعات وتتنكب الأسلحة لكن شخصاً غبياً يتخطى كل ذلك ويقتحم حياتك. أنت تعطيه جزءاً منك بعد ابتسامة أو قبلة، وبعدها حياتك لن تكون حياتك أبداً. الحب يأخذك ضحية يلتهمك ويمزقك ويؤذي روحك. ووجود وائل وجفافه وجديته تزيد من تعاستها وليس سعادتها.

توقف حديثها الداخلي فجأة عندما نظر وائل باتجاهها، والابتسامة لا تزال على شفتيه بعد حديثه التلفوني.

قال "كيف حالك اليوم؟".

أجابت "تمام، وأنت؟".

قال "هناك قضية شائكة ألاحقها. والطرفان يملكان من الوقائع ما يؤيد ادعاءهما ويدينهما".

قالت "كيف؟".

قال "زوج وزوجة. كل يحاول التخلص من الآخر لكي يحصل على البيت وفق ما سُجل في عقد الزواج القاضي بأن يحصل أي منهما على البيت في حال وفاة الآخر. وهما الآن على عتبة الطلاق، وكل يريد البيت لنفسه عن طريق التخلص من الآخر. حاولت الزوجة قتله وحاول قتلها. والمحكمة قررت سجنهما معاً وبيع البيت".

لم تُظهر ساريا حماسة لما قال. ظلت عيناها غارقتين في شعره ثم عينيه ثم شفتيه، إلى أن سألها "هل أنت على ما يرام؟". هزت رأسها ايجاباً، وقد فقدت الدافع للقيام بأي شيء أو مواصلة النظر في الملفات المكدسة على طاولتها. انسحبت من المكتب بحجة الذهاب إلى الحمام. وقفت تتأمل وجهها في المرآة. اليوم ترى

وائلاً وسيماً وجذاباً جداً إلى حد إضعافها. إنها تتملص من شبكة تكاد تطبق عليها. إنها تحاول أن تنفصل عنه حتى قبل أن تقترب منه. إنها تكرهه قبل أن تحبه. تخشاه وهو قريب وتتوق إليه وهو بعيد. يجب أن تدوس هذا الشيء الذي بدأ يطل برأسه من بين حناياها. لا تريد أن تحلل تلاطمها وحيرتها، وتقرر أن تمتطي حصان عقلها لينطلق بها بقوة نحو قناعاتها الأصلية. قلبها وعقلها لا يلتقيان أبداً. كل يسير في طريق.

الفصل السادس

كانت الموسيقى الهادئة تنبعث من أرجاء الصالة الفخمة، مع توافد المدعوين إليها. غُطيت الكراسي والطاولات بالدانتيل الأبيض، وتوسطتها باقات صغيرة من الزهور الحمراء والبيضاء. وفي صدر القاعة، انتصب قوس ضخم من الأزهار البيضاء على منصة فوقها كنبة عريضة بلون ذهبي خصصت للعروسين. دخلتُ وكان برفقتي عدد من طلاب كلية الفنون. جلتُ بنظري في المكان فرأيت والديّ كل من العروسين واقفين قريباً من باب القاعة لاستقبال الضيوف، إنما كانت رحاب والدة ناهد على مسافة من طليقها سمهر.

كان سمهر أنيقاً جداً وجذاباً كعادته رغم الشيب الذي غزا جزءاً من مفرقه. وظل لطيفاً ومجاملاً وخاصة للنساء، ينحني ويبتسم مرحباً بالمدعوين.. وكلما دخلت حسناء، تغزُلُ عيناه إعجاباً وتوقاً يربكها ويمتصها كمغناطيس يجذب إليه ذرات الحديد. فتترك نظرته أثرها في قلبها وتثير حيرة وأسئلة في داخلها. تنفرط حدقتاه وكأن بهما حَوَلاً مع مرور الفساتين الملتهبة. فهو يشتهي كل امرأة جميلة ومتألقة. يخاطبها باحترام جمٍّ بكلمة "سيدتي.. تبدين رائعة اليوم.. تتفوقين بلمساتك الذكية على نساء الأرض.. ". وإذا لقي استحساناً وقبولاً، يسترسل "هل تقبلين دعوتي إلى العشاء اليوم..؟".

لم يتوقف يوماً عن اللهاث خلف الجنس الآخر حتى انقطاع الأنفاس. النساء عنده زهر طاولة رابح على الدوام، مهما كانت

الظروف. يلقِّن أسلحته الناعمة بعشرات الأطنان من كلمات التورية والاستعارات ولا يتردد في قيادة أوركسترا موسيقية كاملة من دون عصا تشنف موسيقاها آذان حسناواته، فقط بوسامته وعينيه وابتسامته.

كان يرسل نظرة خاطفة بين الفينة والأخرى إلى طليقته رحاب، فتتجاهلها وتتظاهر بالترحيب بالقادمين وهي تسبح بذهنها في ذلك الزمن العابر الذي فرقهما وقطع علاقتهما بسكينه الحادة دونما رجعة، ثم عاد ليجمعهما برهة في زفاف ابنتهما الوحيدة، مثل سكتي قطارين تلتقيان عند منعطف وتفترقان إلى الأبد. وقفا في زاويتين متباعدتين، وبعد أن قدما كشف حساب مثقل بالديون والفوضى تداعى جسر العودة بينهما. باتا يتحدثان من قمتين عاليتين، والتقاؤهما في الوسط يعني سقوطهما في الهاوية. غفا كل شيء مستكيناً على كتف الزمان لا يودُّ الاستيقاظ.

بدت رحاب أكثر امتلاء بثوبها اللامع، ظهرت بعض التجاعيد حول عينيها وعنقها، وغُلفت حركاتها وسكناتها بحرج تحاول إخفاءه. غادرتها صفة الانفجار التي كان سمهر يتحاشاها، فهو لم يكن يصرخ أو يسد أذنيه بأصابعه أو يفكر بوسيلة لإخراسها بل يمتطي صهوة نزواته غير عابئ بتقريعها أو اعتراضها. كان يتحاشى المعارك ويصر على أنه لا يريد أن يتعلم أخلاقيات السابلة والخصال الحميدة.

كانت رحاب تتحدث وتبتسم إنما هناك ما يوحي بأن الحياة سرقت منها الارتياح. حملت عيناها نظرة حزن دفينة امتزجت بفرح اللحظة. ستخرج ابنتها من حصن أبيها. كانت تفكر أنه لطالما نغَّصت عليها تلك الفكرة حياتها لحرمان الصغيرة من

العيش في كنفها، وحرمانها من الاستمتاع بطفولة ناهد وشبابها. فقط لمجرد الانتقام والتجبر الذكوري. لطالما رددت أنه "لو استمر حال النساء هكذا، فهذا يعني أن هذا البلد سيكون الأكثر ظلماً.. ". كانت أفكاراً مضنية، لازمتها في الصحو والمنام على مرِّ السنين، لكنها اليوم وفي هذه اللحظات بالذات باتت أفكاراً منهكة آخذة في الزوال، فالابنة لم تعد لأي منهما بل طارت خارج أسوارهما المقيتة إلى حريتها وحياتها. وهذا بحد ذاته تشفٍ وشفاء من الماضي بكل أوجاعه.

ظهرت جوديا وساريا عند باب القاعة وتبعهما وائل. كانت ساريا ترتدي فستاناً أسود طويلاً كشف قسماً كبيراً من بياض ظهرها. رفعت جزءاً من شعرها وتركت جزءاً آخر ينسدل على أحد كتفيها. وأما جوديا، فلفتت الأنظار بقوامها الممشوق، وشعرها الأشقر المعقوص إلى الأعلى، تداخلت فيه خرزات ماسية متلألئة، وفستانها الذهبي الطويل الملتصق بشدة بجسدها النحيل والمنساب بشكل دائري من الأسفل مع قفازين أسودين طويلين حتى المرفق. بدت كعروسة بحر تتراءى في الأحلام.

جلست الفتاتان إلى الطاولة التي تحلق حولها طلاب كلية الفنون. سمعتُ "همام" يردد ضاحكاً أن مروان وقع في الفخ وأصبح داخل القفص الذهبي، وليس له من نجاة مهما أطلق من نداءات استغاثة. فكان تعليق منير أن الزواج برميل سطحه من العسل وما تبقى فيه فضلات عفنة "أخشى أن يفتحه مروان من الأسفل". انفجر الجميع ضاحكين.

ثبتُّ عينيَّ على جوديا لوهلة، لم تشاركهم الضحك بل ظلت صامتة. كنت مأخوذاً بإطلالتها. ازدادت خفقات قلبي عندما

رمقتني بنظرة جانبية مع ابتسامة ثم هربت بعينيها مني. مرَّ بعض الوقت وأنا هائم في هذا السحر الأخاذ يتهادى صارخاً من وجهها وعنقها وشعرها وكل جزء فيها. سحر يتناغم مع موسيقى الفالس الحالمة، ويتسرب من إيقاعها غزلاً وافتتاناً. وفيما كان بعض المدعوين يرقصون مع الأنغام كان قلبي ينبض ويحلق على وقعها. التقت عيناي بعينيها مجدداً. كانت نظرتها حالمة مبتسمة، إنما لم أكن أحس أنها تنظر إليَّ فعلاً. رأيت في أعماق تلك النظرة شروداً غامضاً ولَّد لدي شعوراً غريباً ومبهماً. كان جواد في الجهة المقابلة من الطاولة ينظر بثبات في وجه جوديا وهي في تجاهل تام له. عكست عيناه الواسعتان ألماً وعجزاً عن وأد تلك المشاعر التي تستنزفه. في كل مرة يراها تشتعل النيران في قلبه ويبدأ صراعه المضني من أجل النسيان من جديد. نهض فجأة ودعا زميلته "عبير" للرقص. بدا وسيماً بشعره البني المسبل حتى شحمة أذنيه وأنفه الروماني الشكل وطوله الفارع وبزته الكحلية الأنيقة. كان راقصاً بارعاً يقود خطوات شريكته برشاقة متناهية على أنغام الفالس، وعندما تحولت الموسيقى إلى إيقاعات صاخبة أطلق جواد العنان لجسده يتحرك بقوة واهتزاز متناغم وكأنه يفرغ شحنات من الألم في حركة يديه وخبطة قدميه. كان يحرك عبير بين ذراعيه كدمية صغيرة ويدور حول نفسه وحول شريكته بسرعة فائقة أشبه براقص الفلامنكو المحترف، إلى حد أثار إعجاب الحاضرين. راح زملاؤه الجالسون حول الطاولة يصفقون له ويشجعونه وسط الضحكات والهتاف والصفير.

خلتُه شاعراً وفناناً في الرسم والرقص وكل شيء. ولو لم يكن كذلك لما اختار قلبه أيقونة الجمال، جوديا.

كانت جوديا لا تزال في شرود حالم، تنظر إلى جواد وعبير يرقصان وكأنها لا ترى شيئاً.

عندما دخل العروسان إلى القاعة وسط الزغاريد والتصفيق، غابت الابتسامة الباهتة عن وجه جوديا وتجلى وجوم في ملامحها. تقدم العروسان للجلوس على المنصة التي أُعدت لهما. بدت ناهد متألقة بثوبها الأبيض وطرحتها الطويلة التي امتدت على اتساق مع طبقات فستانها إلى الأرض. سارع عريسها لمساعدتها في الجلوس وفرد ثوبها حول الكنبة. راح جيئة وذهاباً عدة مرات من يمين الكنبة إلى يسارها، مثل بندول الساعة، متظاهراً بعدم تمكنه من القيام بالمهمة. وحاولت أم ناهد مرتبكة أن تقدم له يد المساعدة لكن مروان سدَّ عليها الطريق، ثم زاد العرض تشويقاً بتعثره بالفستان حتى كاد يقع أرضاً، وناهد تضحك وتحاول الإمساك به إلى أن ضجت القاعة بالضحك، فجلس مروان مبتسماً ورافعاً يده تحية للمدعوين.

بدت ناهد مثل وردة زهرية اللون اشرأبت في بياض الثلج. كانت تدور بعينيها على المدعوين وابتسامة عذبة على شفتيها، ومروان لا يحيد بنظره عنها، يتهامسان ويضحكان.

عندما توسط العروسان حلبة الرقص كان الجو مثقلاً بالأنفاس والأحاديث والموسيقى والضحكات. رأيتُ مروان غارقاً في أريج الورود يتضوع من عروسه، وكأن عطر الأزاهير التي تملأ المكان تجمعت كلها في أنفاسها وثيابها وجسدها، وفي نشوة الحلم تنتثر رذاذاً في عقله وكيانه. وكأن ناهد تشكلت روحاً غادرها الجفاف بغمر الحب.

مع صخب الموسيقى والحركات والخطوات، حمل مروان عروسه فجأة وراح يدور بها حول الحلبة وسط التصفيق والصفير إلى أن استقرا مجددا على المنصة. خفتت الأضواء وأحضر الندلاء كيكة الزفاف التي كانت في شكل طبقات متتالية محاطة بشعلات ترسل وميضاً وشراراً يضفي على الأجواء سحراً خاصاً. قطع العروسان الكيكة وهما يضحكان ويتبادلان اللقيمات ثم صخبت الموسيقى من جديد.

عدتُ لأحدق في وجه جوديا. لم تبتسم إطلاقاً، أحسستُ بعينيها غائبتين ودهشتُ لتلك النظرة الجامدة فيهما. أصبح وجهها مغلقاً ومجرداً من أي تعبير، وبدت قسماته مسطحة فقدت شكلها، وتهيأ لي أنها تخطر في موكب تشييع وليس حفلة عرس. رأيتها في بحيرة معتمة تهجع في سكينة الليل، طافية فوقها بسلام تبرق في ثوبها الذهبي، ثم رأيتها تتحول أفعواناً ذهبياً مخيفاً مسترخياً فوق الماء، وتعود ثانية فتاة ذهبية، وتتحول مرة أخرى إلى أفعوان ذهبي، ثم تعود ثانية وثالثة ورابعة. صورة تحول وصيرورة تمتد لما بعد المكان. مشيتُ معها في الانمساح من الوجود إلى ما بعد الوجود. وكأني بها شبح لا يراه أحد سواي يبحث عن سر الحياة، يكتشفه ويعود ليدفنه متمرداً باستماتة على قدره. رأيتها كما في شكسبير مجرد وعاء لقوى خفية.. دمية لا أقل ولا أكثر أو وسيطاً كهربائيا لنقل فكرة ما.

تنفستُ بعمق أبتلع الحيرة. لم يكن بإمكاني سؤالها أو التحدث إلى غموضها، فقررت قراءتها بعمق باختراقها بعينيَّ. حاولتُ جمع الطاقة حولها بتركيز نظري عليها طويلاً دون أن تشعر. وجدتُ صعوبة، وكأنها كانت خلف ستار حديدي. اتسعت عيناي

إلى حد التعب، فرأيت مجالاً مغناطيسياً ضيقاً من الاهتزازات. ازددتُ تركيزاً وازدادت عيناي اتساعاً، وسرعان ما أصبح المجال المغناطيسي أوسع، مع موجات تتبدل في ألوانها وتظهر بشكل مخروط ضوئي. أعدت صورتها الخام في عقلي مرات ومرات إلى أن انكشف النقاب عنها، وأمكنني رؤية الصورة الأصلية متسعة وكاملة. جمعت ذرات الطاقة الكهرومغناطيسية المحيطة بها، وإذا بي أراها ذرات مرتعشة رمادية غامقة اختلطت باللون البنفسجي وبدت حوافها ثقيلة، كانت طاقة مضاعفة ومفرطة تهتز بسرعة تخطف البصر أشبه بقنبلة موقوتة تكاد تنفجر، جعلتني أحس بالدوار في رأسي وكأنني على وشك السقوط أو الإغماء. رحت أغلق عيني وأفتحهما لقراءة ما يجول في عقل جوديا فعكست طاقتها لدهشتي غضباً وعنفاً وهيجاناً..

لم أعد أشعر بالارتياح بعد رؤية الصورة الخام لجوديا، كانت الطاقة حولها مضاعفة تنبعث منها موجات سلبية أثارت قلقي وحيرتي. أحسستُ أن جوَّ القاعة يكاد يخنقني، فتوجهتُ إلى الشرفة لاستنشاق بعض الهواء، ووجه جوديا المغلق داخل عقلي.

تدفق كثير من الحضور إلى حلبة الرقص مع صخب الموسيقى الشرقية ثم الغربية، وجوديا جالسة في مكانها لا تتحرك كتمثال، والزملاء حولها يتبادلون النكات والتعليقات دون توقف. وقفتُ في الشرفة خارج القاعة شارداً، لا أستطيع التركيز في شيء، أحاول أن أعبَّ من الهواء النقي لكن رئتيَّ تقصران عن الامتلاء.

عندما اقترب الليل من منتصفه وقع ما لم يكن في الحسبان، وكان حدسي الداخلي يزِنُّ في عقلي أن شيئاً ما سيحدث دون أن

أعرف تماماً ما هو. وقد اكتشفتُ في قادم الأيام كيف حدث وتفاصيل الواقعة.

كانت الموسيقى لا تزال تصخب عندما توجهتْ العروس إلى غرفة تجهيز العرائس، بجانب الصالة، لتصلح من ماكياجها. أغلقتْ باب الغرفة وراحت تتأمل نفسها في المرآة. فُتح الباب فجأة، وكانت جوديا به. رأتها ناهد من خلال المرآة، فابتسمت مرحبة، وقالت "تفضلي، تبدين رائعة الليلة.. ". نظرت إليها جوديا بإمعان دون أن تجيب ثم اقتربت منها كثيراً من الخلف. فقالت ناهد، وهي لا تزال تنظر إلى جوديا من خلال المرآة، "ما بك؟ هل هناك خطب ما؟". لم تحظَ على أي رد. وحمل وجهها تساؤلاً وخوفاً استدعتهما نظرة جوديا الحادة والشرار الذي ينطلق من عينيها. فجأة فكَّت جوديا أنشوطة ذهبية عريضة تحيط بخصرها ووضعتها سريعاً حول عنق ناهد التي حاولت التملص دون جدوى. وكأن الأنشوطة قطعة حديدية ضخمة أطبقت على رقبتها فعجزت حتى عن الصراخ، وغابت حشرجاتها وسط هدير الموسيقى العالية والضجيج في الخارج فلم تسعفها. كانت قوة الضغط هائلة لا يمكن أن تقارن بقوة امرأة، خمدت أنفاس ناهد تدريجياً، وسقطت على الأرض، وقد فارقت الحياة.

لم يستغرق الأمر سوى دقائق، وضعت جوديا الأنشوطة ثانية على خصرها والقفازات الطويلة لا تزال تغطي يديها، وخرجت بهدوء ودون أن يلحظ أحد دخولها إلى الغرفة. مشت عبر الممر الموصل إلى الحمَّام، وهو نفس الممر الذي سلكته للوصول إلى غرفة ناهد. دخلت إلى الحمام لدقيقة أو اثنتين، ثم خرجت منه وعادت إلى كرسيها وجلست صامتة دون أن تأتي بحركة. عندما

عدتُ من الشرفة رأيتُ شحوباً شديداً في وجه جوديا. انتبهتْ لعودتي وسألتها "هل أنت على ما يرام؟".

هزت رأسها إيجاباً، وأنا أتمعن في وجهها.

ساد الهرج والمرج ليلة الزفاف. وسقطت أم ناهد فاقدة الوعي عندما رأت ابنتها مسجاة ميتة على الأرض بثوبها الأبيض. علا النحيب والصراخ، ووقفت جوديا بعيداً بين عدد من المدعوين المذهولين، وابتسامة باهتة على شفتيها، ترقب مروان من خارج الغرفة وهو جاثٍ فوق جثة ناهد ينتحب بشدة.

كان من الصعب أن أتصور كيف تحول مروان في لحظة من كتلة مرح تنشر الضحك والفكاهة إلى ذرات مفتتة من الحزن والحطام، خانته ساقاه فعجز عن النهوض والوقوف على قدميه.

همست ساريا إلى أختها وهي تمسح دموعها "يا إلهي.. كيف حدث هذا؟. هل أنا في كابوس؟".

تمتمت جوديا وهي شاردة وكأنها تحدث نفسها "أرى عذاب مروان... مسكين.. وناهد مسكينة أيضاً.. ".

تحدثت بصوت خفيض وهي ترقب الناس ودون أن تنظر في وجه أختها عن النساء الحمقاوات كما هو ديدنها. جملتها المعتادة ".. لم تكن مثلهن في يوم.. الزواج موت.. هكذا فقط لم تخطُ إلى سجنها الروحي والجسدي.. ".

سألتها ساريا "ماذا تقصدين؟ هل جننتِ؟ كيف ترين الأمر بهذا الشكل؟".

"كيف؟ أي شكل؟ مجرد رأي ليس إلا.. لا تهتمي".

ردّت ساريا بانفعال تكاد تختنق بدموعها فيما سلبيات جوديا توخز أعصابها ".. الصبيَّة ماتت وانتهت.. نحن في عالم.. وأنت

في عالم آخر.. اصمتي.. أرجوك.. اصمتي.. لا أريد أن أستمع إلى أوهامك.. ".

أجابت جوديا "أنت لا تفقهين شيئاً.. وليس بإمكانك أن تري خلف الأشياء، رؤيتك الضيقة تنحصر بين ملفات القضايا والبحث عن الجناة في المحكمة. وربما حتى هؤلاء كان لهم أسبابهم الوجيهة. أنتِ إنسانة تحمل عقلها فقط في جعبتها ولا شيء سواه. أنت تُدخِلين مشاعرك في عملية حسابية لكي لا تهدري أي جزء منها عبثاً.. إنسانة لا ترى أبعد من أنفها.. ولا تفهم سوى واحد زائد واحد يساوي اثنين"

انتفضت ساريا وقالت بحدة " وهل الوقت مناسب لهذا؟ أقسم أن ما تقولينه جنون ومستفز.. كيف تتحدثين هكذا؟".

توقفت قليلاً ثم أردفت "لا أرى دموعاً في عينيك حزناً على أقرب صديقة إلى قلبك!.. ".

قُطع الجدل بينهما بانضمام وائل إليهما. اعتذر على إقحام نفسه وعرض أن ينسحب لو كان الحديث خاصاً، لكن جوديا أجابت بالنفي فسألها فيما إذا كان لناهد أعداء أو مشاكل يجهلها الآخرون، فأجابت بالنفي، وتنبهت إلى وائل يردد أن ضابط الشرطة يعتقد أن ناهد ماتت مخنوقة على الأغلب فلا وجود لآثار دماء على جسدها، وإنما هناك بقع زرقاء قاتمة حول رقبتها، كما لم يكن ممكناً رفع أي بصمات في المكان.

في وسط هذه الجلبة، ازدادت الأمور تشابكاً في عقل ساريا كتشابك الشخصيات والأفكار والأحداث حولها. كانت تنظر ذاهلة إلى العروس الميتة، والناس في غدو ورواح، يركضون ويعودون، ويتحدثون في الهواتف ويؤشرون بأيديهم، والأصوات

تعلو وتنخفض وذهنها يسبح في مكان آخر. انسلخت عن المكان وأجواء الموت والعويل. لا تفهم أحداً ولا أحد يفهمها. أبوها.. وائل.. جوديا وحتى أمها التي رحلت، كلهم يدورون في فلك قُذفت هي خارجه. بل هي تدور في فلك آخر غير قادرة على الوصول إليهم. لم تكن تدري أهي فتاة غير طبيعية تحمل عقلها في جعبتها ولا شيء غيره كما قالت أختها. جدية إلى حد الملل، ليس في داخلها أو خارجها ما يثير. لا أحد يشعر ما في قلبها من بساطة ومودة. غير مسلية إلى حد يجعل الآخرين لا يكترثون لها. أهي معقدة؟ أم هم الذين يحملون عقداً لا تستطيع فكها، وألغازاً لا تقدر على حلها؟

في كل مرة ترجع إلى الخلف لتلملم أفكارها المتضاربة وأجزاءها المتناثرة تزداد تفتتاً. ماذا تفعل؟ تشعر في قرارة نفسها أنها ناقصة، ثمة شيء تفتقده ويجب أن تستعيده، لكنها لا تعثر عليه أبداً. تشعر أن هناك خطباً ما داخل أختها جوديا، لكنها تعجز عن مصارحة حتى نفسها بهذه الحقيقة. وما قالته جوديا جعلها تشعر بالدوار وكأنها في غيبوبة.

بعد مقتل العروس لم يتمكن التحقيق من معرفة القاتل أو التوصل إلى دليل يقود إليه. وسرى نبأ مقتلها بين طلاب الجامعة كالنار في الهشيم. لأسابيع عديدة كان الناس يتحدثون عن الجريمة ويتساءلون عن دوافعها. وعادت فكرة المريض النفسي الذي يقتل النساء انتقاماً لتهيمن على الموضوع.

قادت جوديا حياة عادية بعد ارتكابها الجريمة. كانت تتحاشى الحديث مع أختها ومعارفها حول هذا الموضوع. كنتُ أرقبها وأشعر أنها لم تتأثر كثيراً بموت صديقتها المقربة. لم أرها تذرف

دموعاً. وأسأل نفسي كيف يمكن أن يفقد الإنسان صديقاً عزيزاً ويظل ساكناً هادئاً دون أي رد فعل؟ هل يُعقل أن تكون جوديا على مثل هذه الدرجة من القسوة واللامبالاة إزاء موت ناهد؟

لم أكن أعرف كيف أفسر ما حدث وشكوك كثيرة وتساؤلات دارت في رأسي في الليالي التي تلت الجريمة. كنت أخشى ذلك السؤال الذي تردد في ذهني كثيراً ولم أجد له جواباً "هل لجوديا علاقة بمقتل ناهد؟". كان وجهها الفارغ، في تلك الحفلة، يتراءى لي متأرجحاً في الظلام، وهالتها الرمادية الكثيفة والسلبية تثير قشعريرة في جسدي. وإيقاع تكتكات الساعة يستنفر أعصابي في الليل، فأنهض وأقتلع الساعة بقوة من الحائط وأرمي بها خارجاً. شيء ما في عقلي كان يلحُّ بأنه لا يمكن أن تسير الحياة طبيعية بعد جريمة القتل تلك. وفي كل مرة رأيت جوديا في الكلية تتحدث أو تنظر في كتاب أو ترسم مشهداً تعود إشارات الاستفهام لتنتصب في طريقي. لم أكن قادراً على الغوص أكثر في تفاصيل الأشياء التي ظلت مبهمة لفترة طويلة من الزمن فيما بعد. فلا مقدرتي على جمع جزيئات الطاقة نجحت في معرفة حقيقة جوديا، ولا محاكمتي العقلية قدرت على إيجاد أجوبة لأسئلتي المتلاحقة حول مقتل ناهد.

انتشر مزيد من السكون في منزل فريد وابنتيه بعد الجريمة، وتربع ذهول وصدمة في صدر ساريا. ازدادت حالة الأب سوءاً مع تكرار الحوادث الليلية التي صارت جزءاً من حياته. يعيش على وقعها وينتظرها بإعياء، إلى حد جعله يفقد الرغبة في الحياة والشهية للطعام، فازداد جسده نحولاً ووجهه شحوباً، وصار يتغيب عن عمله أياماً، ويبقى طريح الفراش غير قادر على

النهوض. بات الليل وشاحاً أسود ثقيلاً يغلف وجوده وروحه فيعجز عن رفعه أو التملص منه، وكانت الأصوات تنخر في خلاياه حفراً عميقة تنهش أحشاءه وعضلاته وعظامه فتحوله إلى هيكل من العظام يكاد يتكسر ويتداعى. وكلما حاولت ساريا إجباره على تناول ما تحضره له من وجبات، كان يصرخ في وجهها كمن أصيب بلوثة في عقله، أو يخبط صينية الطعام بيده، فتطير الصحون إلى الأعلى، وتتراجع ساريا خوفاً منه وتغادر غرفته سريعاً أحياناً باكية وأخرى حانقة. أما جوديا فلم تفكر يوماً بدخول غرفته أو السؤال عنه. بل كانت مطمئنة تماماً إلى أنه يهوي نحو نهايته سريعاً، ما يطفئ بعضاً من نيرانها الكاسحة التي تجتاح كل شيء. كانت ترتب بتؤدة شيطانية فوضاها الروحية المنتشرة في أصقاعها وتعرف كيف توجهها فوق مسارات مفزعة ومدمرة. كان هدفها أن يصبح فريد ماضياً، مثل أمها تماماً، وليس له أن يكون حاضراً أو مستقبلاً.

الفصل السابع

رحل الصيف وحل الخريف ومضى مسرعاً تاركاً أبوابه مشرعة للشتاء بشحوبه ورياحه الباردة وأمطاره وثلوجه.

كانت الثلوج تغطي الجبال وأسطح البيوت والطرقات ورذاذ المطر الثلجي يهمي فوق وجهي بنعومة، وأنا أفكر في رحيل الفصول الأزلي وعودتها وتبدلها كما تبدل الحياة والأحداث من حولي. عندما سرتُ باتجاه بيتي بدت السماء رمادية منخفضة تكاد تطبق على الأرض، والشجر عارٍ لفظ أوراقه منذ زمن مع حلول الشتاء، والأغصان مشرئبة كالثعابين تنعكس صورتها أحياناً فوق مساحات إسفلتية مبللة ذاب عنها الثلج. أحسستُ ثقلاً جاثماً على صدري من جديد وتشويشاً داخل عقلي، يمنعني من الرسو على بر بشأن جوديا التي أدخلتني في دوامة الحيرة والقلق. فلا أنا قادر على الاستسلام لميلي الواضح إليها الذي بدا أنه يتقولب في شكل عشق، ولا أنا قادر على طردها من عقلي كلما استعدتُ صورتها الشبحية التي تجلت لي في حفلة الزفاف. ذلك الغموض فيها، يقابله فضول كبير ومضنٍ فيَّ أنا، وكثيراً ما كان عقلي يحدثني في أنني بحاجة إلى الحب. وعليَّ أن أبحث عنه خارج نفسي، وأن أزيل العقبات التي تبعده عني في داخلي، وخاصة قدرتي على قراءة الطاقة حول من أقابلهم، والتي كثيراً ما تجعلني أحجم عن التواصل، إلاَّ في حالة جوديا، فأنا أجد نفسي غير قادر على التقدم أو التراجع. بل أقف عاجزاً حائراً في منتصف الطريق.

عندما استلقيتُ في سريري، راحت الخواطر تجوب عقلي. أحبها بل أعشقها وهي لا تدري، ولربما كانت تدري وتتجاهل. نظرتها لي تحمل بعدين محيِّرين يقوداني إلى الضياع. وهذا الحب الذي بدأ يتربع في قلبي مشوب بمئات من علامات الاستفهام التي لا أجد لها أجوبة. يجب أن أقترب أكثر لأفهم أكثر. لا يمكن أن أواصل وأتخبط بهذا الشكل.

قررت أخيراً أن ألتقيها وأدعوها إلى العشاء لأكتشف المزيد عما تريده نفسي الفضولية. ونمتُ على أمل هذا اللقاء.

في اليوم التالي سارعتُ الخطى إلى الكلية ودخلتُ قاعة المرسم فوجدت عدداً من الطلاب وصلوا قبلي، ولم تكن جوديا بينهم. بعد نحو عشر دقائق جاءت والشحوب يكسو وجهها، وشعرها معقوص إلى الخلف، ومزاجها بدا مدلهماً. مع انتهاء الدرس اقتربتُ منها وقلت "كيف حالك اليوم؟"، أجابت باقتضاب "لا بأس". ترددتُ قبل أن أطلب منها الخروج معي وخشيت أن يكون ردها نفياً، ولكن لم يكن أمامي من خيار سوى أن أتابع ما بدأته لأرتاح. فقلت "هل تقبلين دعوتي إلى العشاء اليوم؟".

نظرت في عيني طويلاً وكأنها تغوص فيهما لتستطلع نواياي قبل أن تجيب "حسناً".

في المساء دخلتُ المطعم واخترت طاولة قريبة من نافذته العريضة، ورحت أنظر إلى المارة في الطريق متلهفاً لرؤيتها. وكلما مرت فتاة تهيَّأ لي أنها هي، فيخيب أملي، وتعود عيناي لمراقبة الرائحين والغادين. إلى أن رأيتها أخيراً، تعبر الشارع قادمة من الجهة المقابلة، فارتحت. دخلتْ مبتسمة، ترتدي جينزاً ضيقاً وبلوزة فضية اللون. ألقت بالتحية واستقبلتها بترحاب.

كانت هالتها شفافة رقيقة هذه المرة عندما اخترقتها سريعاً بعيني. فبادرتُ للقول:

" تبدين جميلة، والسلام ينتشر في محياك اليوم".

"هل تريد أن تقول أن السلام يغادرني أحياناً؟".

"تماماً. أنا قادر على معرفة مزاجك من ملامحك. في بعض الأحيان، تبدين حانقة عصبية، وأخرى سعيدة راضية. وهذا طبيعي فكلنا لنا أمزجة متقلبة".

سكتت ولم تجب. واكتفت بالنظر إليَّ، ربما تتساءل في عقلها عن فضولي الذي يلاحقها دون كلل. وإذا بها تفاجئني بالقول "الأشخاص الفضوليون الذين يريدون معرفة الكثير عن طبيعة الأشياء وما وراءها، هم إما قد يدمرون أنفسهم أو يصيبهم الأذى نتيجة ما يكتشفونه".

أصابتني قشعريرة وتغضنت جبهتي لدى سماعي هذه الكلمات، لكنني تظاهرتُ بعدم الفهم وسألتُ: "ماذا تقصدين؟".

"أقصد أن الفضول قد يقتل صاحبه، قد يوصله إلى معرفة مرعبة.. والأفضل ألاَّ يتعدى الإنسان حدود معرفته ويخوض في المجهول".

توقف الكلام عندما أحضر النادل أطباقاً مختلفة بدءاً من التبولة والمحمَّرة والفطائر إلى الكبة المشوية وملفوف ورق العنب واللحم المشوي. وبدأنا بتناول الطعام.

"ورق العنب هذا لذيذ.. تفضلي". ناولتها ملفوفة من ورق العنب بشوكتي فالتقطتها بأطراف أصابعها ومضغت قطعة منها.

قلت متابعاً "هل ترينني فضولياً؟".

"إلى حد ما!".

"أنا أغبط نفسي على هذا الفضول عندما أحاول كشف الغموض من حولي.. في الواقع لنا عيون ولا نرى.. ما الذي يعرفه الإنسان عن نفسه والكون الذي حوله؟.. فقط القليل.. القليل.. ألا تخفي الطبيعة معظم الأشياء عنه؟. هناك دافع في داخلي لكشف الستار عن الأشياء الظاهرة لأرى ما خلفها، أعني أكتشف الحقيقة الخام.. العارية".

قالت بعصبية خفيفة بعد أن وضعت قطعة من اللحم في فمها ثم مسحت شفتيها برقة "الطبيعة لا تهتم ولا تبالي.. ولماذا تريد أن تكتشف وأنت عاجز عن فهم حتى سبب وجودك على هذه الأرض!".

قلتُ "كل ما نراه ونجربه أو نصفُه أو نتحدث فيه هو أوهام. صورة مفلترة وليس الحقيقة الخام. صحيح أن الكون غامض، ونحن لا نعرف سبب وكيفية الخلْق، إنما خلف الصورة، أمور كبيرة وعظيمة، واكتشافها يرضي النفس والعقل".

أجابت بابتسامة ساخرة "آآه.. الكون والحقيقة الكامنة خلفه ولغز الخلْق. الأفضل أن نأكل ونستمتع بالطعام.. ".

"لماذا؟" سألتُ "الموضوع شيق ويستحق الحديث".

قالت وهي تنظر في وجهي بثبات "بالنسبة لي.. أعني في قناعتي.. نحن مخلوقات تافهة.. لا قيمة لنا.. يقولون إننا حيوانات عاقلة.. وقد لا نكون لأننا فقدنا صفة العقل مع كل هذا الجنون".

أخذت جوديا تتحدث عن كائنات متفوقة صنعتنا وقامت على هندستنا وراثياً. وأن هناك حتماً أشكالاً حياتية أخرى تتفوق علينا في العلم والتكنولوجيا بملايين السنين، قالت " ربما نكون نحن الأدنى على مستوى الذكاء والقدرة.. ".

" أوافقكِ. قد يكون هناك كائنات أخرى في الكون، إذ ليس من المنطق أن نعتقد أننا الوحيدون في هذا الامتداد الكوني الهائل.. ولكن.. ".

قاطعتني قائلة "وبالمناسبة قرأت عن اكتشافات علمية تقول إن هناك ما يسمى حمض نووي مهمل أو غير فاعل ضمن الشيفرة الوراثية للإنسان. وهو ظل غامضاً الى أن اكتشف العلماء أنه يمكن أن يكون من أصل غير أرضي وإنما جاء من كائنات فضائية أو أنه صيغ بمبرمِج فضائي ذكي.. ".

واصلت حديثها في أن هؤلاء الفضائيين رموا بالبذرة الآدمية على الأرض وتركوا المخلوقات فوقها لمصيرها.

قالت "نحن تجربة.. مجرد تجربة.. لا يمكننا أن نتحكم بأي شيء.. يمكن للطبيعة تدميرنا.. ويمكن أن ندمر بعضنا دون أي عقاب.. ".

واسترسلت في كلامها عن حكم الرجل للأرض دون المرأة معتمداً على قوته الجسدية ثم تمتمت " إنهم يراقبوننا فقط.. ربما ليروا إلى أي مدى يمكن أن ينحدر الرجل بحكم قوته وسلطته على كوكبنا إلى شفير الهاوية أو نحو النهاية. أي ليروا نتائج تجربتهم.. ".

ابتسمتُ قائلاً "تلك مجرد نظريات، ولا يمكننا اعتبارها أحكاماً مطلقة حيال حقيقتنا.. ثم لا يمكننا أن نجرد الضمير من قضية الثواب والعقاب، فهذه جزء من التركيبة الإنسانية.. الحيوان عندما يَقتل ليأكل لا يشعر بوخزة الضمير، ولا يدرك أنه يرتكب جريمة. فيما يرتكب الإنسان جرائمه وهو مدرك تماماً فداحة ما يقوم به وانحطاطه. لهذا يقتل ضميره أولاً، ليتخلص من وخزاته المؤلمة

وليمضي في أعماله القذرة.. والمرأة جزء من هذه المنظومة، فليست كل النساء ملائكة. صحيح نحن لا نعرف الحقيقة وراء وجودنا، إنما لا بد أن نسعى لمعرفتها الآن وفي كل وقت.. ".

سكتت جوديا ولم تجب. وانتهى الحديث هنا. تناولنا الطعام صامتيْن ما تبقى من الوقت وكلٌ يجول في عقله في كلمات الآخر. عمقها المثير ينكشف تدريجياً أمام عيني. تنتابني متعة التجول في أصقاعها وأدغالها المتشابكة وحديثها غير العادي. لم تكن فتاة بسيطة وهذا ما يثير إعجابي بها.

غادرنا المطعم وعرضتُ عليها إيصالها إلى البيت، فوافقت. في الطريق ضغطتُ مفتاح الراديو فلعلعت أخبار سياسية أو تحليل سياسي ربما، الغرب لا يريد أن يكون تحت رحمة روسيا في مسألة الغاز.. سيحاول إيجاد البدائل للغاز الروسي.. تبعية أمن الطاقة تقض مضاجع الأوروبيين.. ألمانيا اتفقت مع روسيا ومدَّت أنبوباً للغاز عبر بحر البلطيق بشكل مباشر وفقدت أوروبا الشرقية ميزات مرور عائدات النفط بأراضيها.. الوضع الجيو-سياسي يتغير والاتحاد الأوروبي يتفكك.. الهجرة من بلدان العالم الثالث غيرت الوضع الديموغرافي في أوروبا...

بدلتُ المحطة فتهادت أغنية فيروز "في قهوة على المفرق.. في موقدة وفي نار.. ".

قالت جوديا وهي تخفض صوت المذياع "الحكومات هي سبب البلاء وهجرة هؤلاء البشر.. والغرب الذي تدفق إليه اللاجئون هو من سلط عليهم أولئك المستبدين من أجل مصالحه..".

توقفتْ قليلاً ثم أردفت ".. يهرب الناس من الظلم والبؤس إلى الشمال أملاً بحياة أفضل لكن الغرب يرفضهم.. يريد أن يتركهم

تحت نير الاضطهاد والتأخر والجوع والفقر، فيما شعوبه تنعم بالثروات والرفاهية..".

قلتُ "تماماً، الغرب هو من سهَّل للسفلة حكم البلاد الأخرى التي يريد نهب ثرواتها. يتذرعون بالأمن لقمع الناس والثراء على حسابهم..".

قالت جوديا بعد صمت إن كل لوحة ترسمها هي عالم واسع تتنقل في أرجائه وتحدث الأشخاص فيه. تحدثت عن ريشتها التي تقصر عن رسم الجنون في داخلها والثورة على كل شيء والحنين والتوق إلى ما لا تعرف.

سكتتْ قليلاً ثم واصلت حديثها عن الوطن الأول الذي أصبح مجرد حلم أو وهم.

أصغيت لها تسرد أماني في الغربة تكشف عفويتها فجأة في تنافر مع لسانها الذي جعلت منه سيفاً مسلطاً في وجه مُحاورها. سردت رغبات باقية وتوقاً للذهاب إلى حمص حيث ولدتْ.. إلى الشام. قالت "أَتعلمْ! أتحدث أحياناً مع دارين.. صديقتي هناك.. على الفيس بوك.. اقترحتُ أن أسافر إليها في يوم لكنني لم أجد تشجيعاً منها".

سألتُ "لماذا؟".

"اسمع، هذا ما كتبته لي".

وتقرأ جوديا الرسالة على جوالها:

"لا تعودي، يا جوديا، ولا حتى من أجل الزيارة. لكي لا تُصدمي. الأمر لا يستحق. لا أنصحك. كيف أصف لك الوضع؟ لا ترجعي إلى المزبلة والغبار والعفار.. لا ترجعي إلى اليأس والبؤس.. نقاط التفتيش على طول الطرقات.. أولئك العساكر

الذين ينتعلون البساطير العسكرية ويرتدون البدلات الخاكي ويحملون الرشاشات في أيديهم مخيفون.... يثيرون الرعب في داخلي بوجوههم الكالحة وعبوسهم وعيونهم التي تقدح شرراً.. يهددون الرائحين والغادين ويأمرونهم بالتحرك سريعاً فالأرض لا تتسع لأحد معهم.. هم تقاسموها بقوة السلاح. كل مجموعة استولت على جزء منها وسوَّرته بالمدافع والدبابات لمنع تقدم الآخرين. ونحن بين هذا وذاك نتمرغ بأوحالهم. تحوَّل الناس إلى وحوش آدمية. لا سلام لأحد. لا سلام للمتحاربين ولا لغير المتحاربين. لا سلام لمن يصرخون ولا للصامتين. لا أمن للبشر ولا للشجر ولا للحجر. نسفوا كل القيم وأباحوا كل المحرمات. افترسوا المنطق والعقل وتنكبوا السلاح والجنون.

اللافتات الباهتة الكلمات، والصور الصدئة والبشعة لا تزال معلقة على بعض الجدران الوسخة، والريح تحمل الزبالة وتنثرها في كل مكان. الأشجار ذاوية غطاها الغبار وعلا أوراقها التشقق والجفاف. والنباتات والأزهار في الحدائق صارت أشواكاً. البيوت والمحلات خرائب تحول بعضها إلى مراحيض.. لم يعد هناك هواء في الوطن.. نشتم فقط رائحة البارود والدخان والغبار.. احتل العسكر البلد.. وبتنا كائنات لا لزوم لها.. الكهرباء صارت ترفاً لا نستحقه.. نحتفل بالمياه عندما تهلُّ علينا بعد طول انقطاع.. وحتى الطعام صار منَّة.. ما أكثر الجائعين، يا جوديا، ما أكثرهم.. ما أصعب أن يصبح الوطن سجناً وقبراً.. اللجوء أفضل.. لا شيء مما انتظرناه تحقق.. لا شيء.. كانت أحلامنا وهماً.. اختنقت داخل ركام البيوت ودفنت في مقابرنا الجماعية.. تصحَّر كل شيء.. وقُتل الفرح كما قُتلنا.. لا بدَّ أنه لا تزال هناك حياة عندكم

حيث أنتم.. تمسكي بها.. لا ذاكرة لك هنا. فلماذا تريدين صنع ذاكرة مشوهة؟ وطننا مشوه مثل وجه بلا ملامح.. أو ربما بملامح مفزعة.. تنهمر دموعي يا جوديا وأنا أكتب لك وتخنقني العبرات حزناً على وطن لم يعد.. سامحيني.. لم أعد قادرة على الكتابة.. سامحيني.. ".

تتوقف جوديا عن القراءة ويسود صمت، وأبقى أقود السيارة في الشوارع دون أن أعرف وجهتي تائهاً مثل ورقة تتقاذفها الريح. وأخيراً قلت محاولاً الخروج من الجو الحزين "هذا الاتصال الإليكتروني الرائع. إنه نفس بشرية متنقلة وكلمة حرة ولقاءات ذهنية غير محسوسة".

ظلت جوديا شاردة دون أن تجيب فتابعتُ "أعلن موت وصاية أولئك المحنطين علينا رغم كل شيء.. وأنهى الخوف.. إنه صوت من لا صوت له نتنقل فيه دون تأشيرات أو جوازات سفر ودون حواجز عسكرية".

قالت "أرسلت لي دارين صوراً موجعة.. ".

خضنا في أحاديث أخرى عن الفنون والرسم وقالت جوديا إنها تجيد العزف على الغيتار والبيانو وإن أمها هي من علمها العزف منذ كانت صغيرة وتحدثت عن أختها ساريا وقالت إنها لا تميل كثيراً إلى الفنون وإنما تعشق قراءة الكتب وخاصة البوليسية منها وكانت تحلم دائماً بأن تصبح محامية وقد حققت حلمها.

عندما توقفتُ بسيارتي قرب منزلها، نظرتُ إليها طويلاً وهي تتأملني بعينيها الزرقاوين، فأحسستُ لوهلة بتسارع دقات قلبي وكأن أحداً قذف بي من أعلى صخرة إلى البحر. اقتربتُ بوجهي منها محاولاً تقبيلها، فلم ترد منها أي استجابة لمحاولتي. كل ما

نمَّ عنها نظرة شاردة أدخلت البرود إلى قلبي، وكدت أحجم لولا أنها وضعت يديها حول رقبتي واستسلمت لثوانٍ، لكنني فجأة، ولدهشتي، أحسستُ بأظافرها تخترق رقبتي وطرف وجهي، وكأنها مسامير مدببة تنغرز في جلدي بشدة فتدميه. فصرختُ وأنا أبعدها عني "ماذا دهاكِ؟ هل جننتِ؟"

ابتسمتْ ابتسامة غريبة أدخلت الروع إلى قلبي، وتراءى لي شرر يقدح من عينيها. اخترقتها، فرأيت تلك الطاقة حولها رمادية سميكة من جديد تتماوج داخل اهتزازات تخطف البصر، وسرعان ما طلبتُ منها المغادرة بانزعاج. أخرجتُ منديلي ومسحت دمائي. فقالت بهدوء وضحكة خفيفة وهي تترجل من السيارة "لم أقصد إيذاءك.. الأمر لا يتعدى كونه إعجاباً دامياً!".

لم أجب، بل وجدتُ نفسي فجأة أمام شخص آخر. أسندتُ رأسي على مقود السيارة غير راغب في النظر إليها، إلى أن غادرت.

تلك التجربة كانت أول خطوة نحو الحقيقة أو ربما إلى أعماق المجهول، تجربة أثارت مزيداً من الفضول عندي، إنما خشيت في الوقت نفسه أن تقودني إلى حتفي. أيقنتُ، من خلال الطاقة حول جوديا، أن لديها قوة ما تظهر على حين غرة ولا يمكن لجمها، ويمكن أن تفتك بمن حولها. لم أستطع تفسير ما يحدث ولا كيف يحدث ومتى. وكل ما كان في عقلي، أفكار تداعت إليّ من كتب عديدة، قرأتها من قبل، حول علاقة الإنسان بالكون والقوى غير المرئية. هل تملك جوديا قوة غير طبيعية فعلاً؟ هل هي مختلفة فعلاً عن التركيبة البشرية المعروفة؟ كنت على يقين بأن لا أحد يمكن له أن يتجاوز الزمن والكون والفضاء والأبعاد ويصل إلى الحقيقة العارية للخلق. رحتُ، في تحليلي، أربط ما أراه في

جوديا وحديثي معها، مع ما أفكر فيه. الأمر المرعب، هو احتمال وجود كائن ما، قد ينزلق من خارج منظومة الأرض والكون اللذين نعرفهما، عبر صدع ما، ويندفع مسعوراً داخل البعد الأرضي فيقتل ويدمر. وبالعكس، لو استطاع مخلوق ما أن ينجو من أسوار المعتقد الأرضي، فإن وعيه الذاتي سيدمر على الفور. ترى هل هذا ما يحصل لجوديا؟ لا بد أن تكون العنصر الفالت خارج المنظومة. ولكن كيف؟ ولماذا؟ هل يمكن تحدي قوانين الفيزياء؟ هل يمكن انتهاك قوانين الكون من قبل كائنات فوق طبيعية؟

كنت أفكر في أنه طالما تحدث فلاسفة عن أننا مخلوقات مصطنعة عالقة في كون وهمي أكثر من أننا عقول ذكية في كون حقيقي. وتساءلتُ فيما إذا كان من الأفضل لنا أن نعرف أن وجودنا غير حقيقي وتلك معرفة مفزعة، أم أن نسعى لاكتشاف الحقيقة العارية، وتلك يمكن أن تكون صادمة ومدمرة. ما نراه هو إشارات فقط عن الأشياء غير المرئية. نحن لا نعرف سوى إشارات عن قانون هذا الكون. وقد تكون هذه جزءاً من الحقيقة. يقال إن هناك حقيقة بديلة مختلفة عن الحقيقة التي نعرفها والتي هي مملكة المادة المألوفة. تذكرت ما قاله أفلاطون في أن الحقيقة العليا غير المرئية كاملة، فيما الحقيقة الأرضية السفلى هي ظل غير متكامل عن الحقيقة العليا. ما هي الحقيقة العليا وما هو هذا السر العظيم؟

كيف لنا أن نفهم الحكمة الموجودة في هذا الكون المعقد والهائل. وهل نملك من الحكمة إلا اليسير لنفهم كيف يعمل هذا الكون؟ كيف يمكن لهذا العقل غير المادي، القابع داخل هيكل من

اللحم والعظام في جسم مصنوع من الماء ومواد الأرض الأساسية أن يفهم شيئاً على الإطلاق؟

ليس من السهولة بمكان أن نكتشف القوى القاتلة غير المرئية. وقد تكون جوديا إحدى هذه القوى. هل أنا أهوِّل الأمر وأضخمه؟ لم أعد أدري. أنظر إلى الناس من نافذة سيارتي فأراهم أشباحاً ووهماً. عليَّ أن أكون مثلهم. ليس لنا سوى إما أن نستمر في خداع أنفسنا بمزج مجسماتنا العقائدية والنفسية والاجتماعية مع تركيبة الحقيقة نفسها، فنواصل التمرغ في الأوهام والجهل نتيجة لذلك، أو نبتلع حبة العدمية ونقبل حقيقة أننا نعيش في كون لا مبالٍ يطيح بمحاولتنا السيطرة عليه. إما مجهول مرعب او معرفة مرعبة. أيهما أسوأ؟".

أن أكتشف جوديا كحقيقة مرعبة، أم أن أبقيها مجهولاً مرعباً! وكلا الأمرين يكادان يذهبان بعقلي.

جوديا ظاهرة عجيبة لم أمرّ بمثلها من قبل. أتخيلها غاضبة وعصبية وخارج السيطرة ويصعب التعامل معها، وقد تكون قوة مدمرة في أسوأ أحوالها. وهي وديعة ومسالمة وبريئة ورائعة، تتبدل إلى كائن آخر مختلف في أفضل أحوالها. هل يمكن لي أن أخوض غمار علاقة مبهمة الخواص والنتائج، فقط لأنني لا أستطيع الابتعاد عنها؟ فقط لأني أحبها؟ وإذا لم أكن لأتحملها في أسوأ أحوالها، فهل أستحقها في أفضل أحوالها؟ إنه الجنون والاندفاع. ولماذا أخشى جانبها الآخر وقد أتمكن من التحكم به في يوم والوصول إلى اكتشاف يذهل البشرية؟

الفصل الثامن

كنت جالساً في كافيتريا الجامعة، أحتسي فنجاناً من القهوة، وأتمعن في كتاب جديد عن الكون والأبعاد، بعد أن حفزَّتني الأحداث حولي على الرجوع إلى الكتب العلمية والكونية وحتى الدينية في محاولة لسبر أغوار الحقيقة التي لا تزال قابعة تحت نقاب المجهول. انضم إليَّ جمال، زميلي في الكلية، وبرفقته ثلاثة من طلابه، أحمد وأمجد وكريم. سألني جمال عن الكتاب الذي أقرأ، فقلت " كتاب عن الكون والأبعاد.. ".

استرسلتُ في الحديث عن الأبعاد الأساسية التي نعرفها على الأرض، وهي الطول والعرض والعمق، وبأن هناك أيضاً عشرة أبعاد وربما أكثر، البعد الرابع هو الزمن. لكن الأبعاد الباقية هي حقيقة أخرى لا نعرف عنها سوى اليسير. قلت إنها الجوانب الأخرى لرؤيتنا للكون. وهي غير ملموسة ولا يمكننا ملاحظتها.

فقال جمال "ولكن هل تعلم أن هناك نظرية حديثة جداً تتحدث عن أن الكون يشبه رمحاً أو سهماً بفرعين؟ أي أن هناك حالة مركزية بمستقبلين، لها ماضٍ فوضوي واحد. بمعنى أن هناك في الأصل كونين. كل واحد منهما على جانب من هذه الحالة المركزية.. وهناك كائنات في هذين الكونين تحدد سهم الزمن هذا على أنه يتحرك بعيداً عن الحالة المركزية نحو أزمنة مستقبلية.. هذه الكائنات في الكونين تعتقد أننا، أي نحن، نعيش الآن في ماضيهم العميق أو في الحالة المركزية، وهذا بالتالي ينفي وجود الانفجار العظيم.. ".

صمتَ جمال قليلاً ثم تابع "ومن هنا نتساءل فيما إذا كان الكون هو الذي يحدد الزمن أم أن الزمن هو سبب وجود الكون.. ".

قال أحمد "في عقلي تساؤل دائم، فيما إذا كان الزمن موجوداً فعلاً أم أنه وهم مثل سراب؟".

فقال كريم "هناك من يقول إن الزمن هو حركة تملأ المساحات الفارغة في الكون، وإن الماضي والحاضر والمستقبل كلها أزمنة تحدث في نفس الوقت".

ثم رسم كريم لوحة جميلة للكون بتشبيهه بغيتار مكون من أوتار متعددة لا تلتقي. المادة فيها في حالة اهتزاز دائم.

قال "إن الكون هو سيمفونية أوتار فائقة التذبذب، ويمكن معرفته من خلال معرفة الأوتار ونغماتها فهو يتصرف على نمط العزف على الأوتار.. بمعنى أن الكون عزف موسيقي على أوتار حلقية من الطاقة اللامحدودة..".

عاد جمال للقول "تشبيه جميل. كذلك يعتقد العلماء أن الكون مسرع في حركته وليس متباطئاً. وهذا يعني أنه يسبقنا.. وهذا يعني أيضاً أننا نحن نتحرك ليس إلى الأمام بل إلى الخلف.. صحيح نحن نتحرك إلى الأمام ونتكلم ونعمل إلى الأمام، ولكن في الخطة العظمى للأشياء، نحن ننطلق إلى البداية وليس إلى النهاية".

أدلى أمجد بدلوه في الحديث بالقول "دينياً، كل شيء حاضر أمام الله في البعد التالي، إنما كل شيء في بعدنا الحالي يحدث مرة واحدة. نحن هناك ولكننا لا ندرك هذا هنا. قد نبدو أننا ثابتون في الزمن، ولكن في الواقع نحن خارج الزمن ونخوض تجربة داخله. إننا في مكان آخر منه.. مثلنا مثل لعبة الفيديو التي لها خطوطها

العريضة في العالم الواقعي.. نحن داخل لعبة الفيديو لأننا نلعبها، ولكننا في الواقع نحن في البعد الآخر، أي نحن خارجها.. ".

قلتُ "تحليل مدهش فعلاً، والكتاب هنا فيه شيء يشبه ما ذكرته يا جمال وما ذكره كريم. يقول إن الكون حديقة بممرات متفرعة أشبه بشوكة الطعام، إنها أكوان موازية، كل ممر فيها مواز للآخر بطريقة لانهائية، ولا يوجد بينها أي علاقة تاريخية. حتى أن قوانين الطبيعة في كل منها مختلفة عن الآخر. والكتاب يقول إن الكون متكرر، يتكرر بعدد لانهائي من الأزمنة والأبعاد، مثل عدد لا نهائي من الأوراق نضدت فوق بعضها البعض. هناك نسخ متعددة من الأحداث التي وقعت في الماضي التي قد تعود وتتكرر في نقطة ما أو في بعد ما من الزمن الكوني. قد يكون هناك نسخة منك أو مني في كون أو بعد آخر. وهناك رغبة لدى كل كائن في عودة أبدية، والكتاب يقول إن الكائن لا يتلاشى قد يظهر مرة أخرى في بعد ما أو زمن ما. ولو استطعتَ أن تتحكم بالبعدين الخامس والسادس، يمكنك أن تسافر عبر الزمن إلى الماضي، أو إلى أزمنة مستقبلية مختلفة. ولو سافر كائن إلى الماضي قد يُحدث تغييراً في جدولة الزمن ينتج عنه تغيير في الحاضر أو المستقبل".

توقفتُ هنا ثم رحت أتمتم وأنا أنظر بعيداً وجوديا في عقلي "وماذا لو سافر كائن من الماضي إلى الحاضر؟".

انفض الجمع ومشيت عبر ممرات الحدائق المحيطة بالكلية أفكر "الطاقة التي رأيتُها حول جوديا لم تكن طبيعية، بل هي غريبة الشكل لا تشابه طاقات البشر على الأرض.. طاقة مضاعفة تشحذها بقوة مضاعفة، ربما تكون جوديا خرجت من الأبعاد الأرضية المعروفة، وانزلقت إلى بعد خارج الزمن، وصارت

عندها المقدرة على التنقل بين بعدين أو زمنين، فصارت تملك قدرات فوق أرضية. أو ربما انزلق كائن من خارج المنظومة الكونية ووصل إلى بعدنا الأرضي وهو على تماس مع جوديا، وإذا كان الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الحقيقة. أين هو هذا الكائن وما علاقته بجوديا؟".

أسئلة كثيرة تتصارع في عقلي، لكن اكتشاف أجوبة لها يتطلب مغامرة خطيرة قد تودي بي إلى الهلاك. صرت قاب قوسين أو أدنى من الكشف. إنما كيف سيتم ذلك؟ هل بمزيد من التقرب إليها؟ أم بمراقبتها وملاحقتها، دون كلل، لمعرفة ما يجري؟

مرت أسابيع عدة وإشارات الاستفهام تنتصب أمام عيني مثل أسراب جراد تحوم في فضائي وتزن في أذني.

"جوديا.. جوديا.. جوديا.. من هي؟". توجهتُ إلى مكتب ساريا علَّني أصل إلى شيء. قررت التظاهر بأن صديقاً لي يبحث عن محامٍ ليتابع قضية تنازع على ملكية أرض. تحدثتُ إلى ساريا وأبدت استعداداً لمساعدته في القضية. وجدتُ صعوبة في التطرق للحديث عن جوديا، إنما خطر في بالي أن أسألها عن شركة السيارات التي يعمل فيها والدها، متظاهراً بأني أفكر في اقتناء سيارة جديدة. فذكرتْ لي أن والدها يعاني من مرض نفسي سيئ، وأن وضعه ليس على ما يرام. غادرتُ دون تحقيق غايتي، أتساءل في عقلي عن المرض النفسي الذي أصاب فريد. أثناء خروجي، التقيت وائلاً في ردهة المبنى، تبادلنا التحية ومضيتُ.

دخل وائل المكتب واسترسل في الحديث عن قضية جديدة بدأ متابعتها. قال "ساريا، هل تعلمين من هو الشخص الذي ألاحق قضيته الآن؟".

قالت ساريا دون اهتمام "من؟".

أجاب وائل "إنها سهام، صديقتي السابقة في الجامعة. الشرطة أوقفتها بعد أن قذفت مدير البنك بمنفضة السجائر وشجت جبينه".

سألته ساريا بفضول "ماذا؟".

فقال وائل "أُوقفتْ سهام على ذمة التحقيق. كانت سحبت قرضاً من البنك من أجل شراء بيت، وبعد فترة من الزمن أُرهقت بسبب الأقساط الكبيرة والفوائد المضنية المترتبة على القرض إلى حد لم يعد راتبها يكفي متطلباتها الحياتية خاصة أنها مسؤولة عن إعالة أمها وأختيها. قالت لي "عندما تصبح غير قادر على دفع ديونك تنهار مالياً وعقلياً. أصبح العبء كبيراً وتحولت الحياة إلى جحيم لا يطاق. كان لا بد أن أفعل شيئاً لأحمي البيت من البنك الذي هددني بوضع يده عليه في حال عجزت عن دفع الأقساط".

وتابع وائل أنها عندما التقت مدير البنك طالبت، وكما هي عادتها تحلم بعالم أفضل، بتخفيض الفوائد أو إزالتها نهائياً، لكنها قوبلت بالرفض والازدراء. ثارت ثائرتها ونعتت المدير "بالرأسمالي العفن"، فقرر تجريدها من حقها في امتلاك البيت، واسترجاعه لأنه ما زال من ممتلكات البنك، عندها تناولت منفضة السجائر وقذفته بها.

عندما قابلها وائل في مركز الشرطة، اكتشف أنها لم تتغير البتة، بل ظلت تحمل أفكاراً راسخة في ذهنها تجابه بها المستحيل. انفجرت قائلة "الرأسمالية هي سبب البلاء، ونظام القروض المصرفية يدمرنا.. البنك يبتلع أكثر من نصف راتبي.. وأنت أدرى بالغلاء.. يجب أن أعمل كالبغال كل الوقت لأؤمن المصاريف.. أما أن أفكر بالاستجمام أو الترويح عن نفسي

وأسرتي فهذا ممنوع عليّ وليس من حقي.. وكأن هذا العالم خلق للأغنياء فقط.. ".

هز وائل رأسه موافقاً، فعادت سهام لتقول "العالم مقبل على انهيار اقتصادي عالمي لا مفرَّ منه، وذلك مجرد وقت. فعندما ينتشر الفقر والجوع والبطالة تحدث كوارث اجتماعية وسياسية. أنا على يقين أن الانهيار قادم..".

توقف وائل عن الحديث قليلاً ثم قال وهو يرتب الملفات أمامه "لن تخرج سهام من التوقيف ما لم يتنازل مدير البنك عن حقه ويمكن أن تسجن أو تغرم مبلغاً مالياً.. ".

صمتت ساريا ولم تعلق، وانهمك وائل في عمله وغرق في أحد الملفات. كانت ساريا في تلك اللحظات تتأمله بين الفينة والأخرى وعقلها يعج بالأفكار بعيداً عما كان يتحدث به. لطالما راودتها أمور سلبية كثيرة عن الحب. لكن شكيمتها أخذت تلين اليوم كلما رأته يطل من باب المكتب. إنها تحس بعاطفة رقيقة تسري بين جوانحها وتتجاهلها، كانت تقول في نفسها "لن أستطيع تجاهل شيء بدأ يسطع في قلبي. هل يمكن أن يكون ميلاً له؟ وهل كلمات أختها جوديا هي التي حركت مياهها الراكدة؟".

رفع وائل عينيه عن الأوراق أمامه، فرآها تحدق فيه، وسرعان ما هربت بناظريها إلى ملف وراحت تتفحصه. لم يحس وائل بأي تحول طرأ على ساريا. كان يراها جامدة مثل خشبة صندل بعطر جميل لا أكثر ولا أقل. جعل من تلك الحقيقة بديهية غير قابلة للنقاش ومن عقله سلطاناً. لم يكن يريدها أن تكون سوى ذلك. فقلبه مغلق دونها ودون النساء جميعاً، وعقله لم يمهرها بخاتم

القبول. لم يكن يدري أن روحها لم تعد خاوية كما من قبل، وأن تطوراً مختلفاً بدأ يتشكل في أعماقها.

عندما عادت إلى البيت، وقفت تتأمل وجهها في المرآة. أحست برغبة شديدة في البكاء. وسرعان ما بدأت الدموع تتدفق إلى مقلتيها وتتساقط فوق وجنيتها، كنهر تداعى السد المحكم أمامه، ففاض سواقي وجداول في كل اتجاه.

تصارعُ شبح الماضي القابع في أعماقها. تحاول تخطيه. شيء ما يسحبها إليه. صور من حرب أبيها وأمها تعشعش في رأسها وتمنعها من تغيير هويتها النفسية. كيف لها أن تزيل ذاك الوشم القبيح المطبوع بعمق في روحها المتعبة؟ لم تفلح في إبعاد تلك الخيالات المشوهة عن ذاكرتها. واليوم، إن من تشعر بميل إليه، ترفضه في داخلها ويرفضها في داخله، والصقيع يمتد مسافات على طريقهما. عليها أن تأتي بجرافات ضخمة لتزيل كل هذا الجليد المنتشر في كيانهما. أضناها التفكير طويلاً وفجأة قررت أن تنسف الحجارة الرخامية المرصوفة بإتقان بينهما وأن تقترب منه. دعته إلى الغداء، فقبل دعوتها مستغرباً تلك النظرة الحانية التي لم يرها من قبل في عينيها، واهتمامها بمظهرها وتسريحة شعرها أكثر من ذي قبل. سألها وهو يرفع بشوكته قطعة من البندورة إلى فمه "هل من جديد في حياتك؟ تبدين حيوية ونشيطة".

فأجابت، وقد قررت أن لا تلف أو تدور، وأن تكون مباشرة، رغم ترددها "أنت".

فوجئ وائل بالجواب، ونظر إليها متأملاً ثم قال مبتسماً "وماذا عني؟".

"أشعر بميل إليكَ!".

ساد صمت ثقيل، ووائل يتساءل، في عقله، عن هذا التحول الذي لم يكن يتوقعه في ساريا. راح يبحث في داخله عما يمكن أن يشاطرها شعورها ويجنبها الإحراج، إنما عجز عن إيجاده. فبدا مرتبكاً قليلاً. لكنه اعتاد الصدق معها منذ أن عملا معاً، فقال "وهل يكفي الميل من جانب واحد؟".

فكان جوابها أنها تعرف تماماً أنه لا يميل إليها ولا لأي امرأة، وأن عقله يقود طريقه ولا مكان للعاطفة في حياته، وأنها هي نفسها لا تدري إذا كان ميلها سيتحول إلى حب. لكنها تريد خوض مغامرة قد تنتهي بالفشل أو النجاح. فسألها ضاحكاً عما تعتزم فعله. رأت أن يقتربا أكثر بالخروج والحديث وقضاء أوقات أطول معاً. لم يردْ وائل إحباطها. وافق على مقترحها، وقرر المضي معها في هذه الخطوة، علَّ شيئاً يتغير في داخله هو أيضاً.

قال ضاحكاً "أرى أن مشروع زواج بدأ يلوح في الأفق سيقدم عليه شخصان من دون شهية". فضحكت جوديا، وقالت إنها ستزين الطبق ببعض الخضروات الملونة، وتحيطه بالزهور الصغيرة لكي تنفتح شهيتهما. فردد وائل أن المهم ما هو في داخل الطبق وليس ما حوله، وأن هذه المحاولة ستبوء بالفشل. ضحكت. وفي رنين ضحكتها، سمع زقزقة عصافير، وفي عينيها العسليتين، دعوة ناعسة للتريض بكسل في مكان وزمان مختلفين، لا يدري أي منهما من أين يبدآن أول خطوة نحوهما، ولا يملكان الحماسة للبحث عن بداية الطريق، كجندي فقد حافزه للمحاربة ومستعد طواعية لقبول الهزيمة.

مرت الأيام والأسابيع وحتى الشهور، والعاطفة الباهتة، داخل ساريا، لا تزال ساقية صغيرة تتحرك مياهها ببطء نحو المجهول.

ولا يزال وائل يقابلها بابتسامة المنتصر. يأكلان ويتجولان في الحدائق ويضحكان ويبحثان عبثاً عن إيقاد شرارة حب تقتلع برودهما والجفاف من قلبيهما. وكثيراً ما ردد وائل ضاحكاً أنها أغرب علاقة سمع عنها، لكنها مسلية، حتى وإن لم تفضِ إلى شيء. ولطالما رددت ساريا ساخرة أن الحديث الحقيقي والجامع لهما مفقود، وأنها لن تكلف نفسها عناء البحث عنه أو افتعاله، لأنها لا تجيد فن الحديث سوى في المحكمة وخلال المرافعات، فيضحك وائل.

وجد صداً عندما حاول لمسها، واتهمته بالسعي لإرضاء غرائزه دون أية مشاعر تجاهها. اعترف بأنه لا يختلف عن بقية الرجال. فبكت وغادرت عاقدة العزم على عدم لقائه ثانية. مرت أيام وشهور أخرى، والعلاقة بينهما صارت مجرد أحاديث دون معنى، تعبُر كما عبور غيمة صغيرة فوق أرض جرداء.

دعيَ كلاهما مرةً لحضور حفلة، أقامها رئيس المكتب محمود السامري، بمناسبة حصول ابنه عصام على الدكتوراه في طب الهندسة الوراثية من الولايات المتحدة. جاءت ساريا بحلة جميلة، مرتدية ثوباً أزرق فاتحاً. أسدلت خصلات من شعرها البني الغزير في شكل حلقات وضفائر فأضفت على وجهها نوعاً من البراءة والوضوح في قسماتها الفتية. تحدثت إلى وائل بعض الوقت، وانتقلت للحديث مع مدعوين آخرين. تقدم منها عصام للتعرف عليها، وأثنى على طلتها البهية قائلاً "تسريحة شعرك تذكرني بتلك الصور الجميلة والقديمة من العصور الوسطى في القصور البريطانية.. جميلة.. فعلاً". شكرته ساريا على الإطراء وقالت إنها لا تحب تبديل نظامها كثيراً. إنما في هذه الفترة أحست

بحاجة إلى التغيير في كل شيء، بما في ذلك مظهرها، علَّ جديداً يطرأ على روتين حياتها.

وافقها عصام في أن الروتين قاتل. يأسر الروح والعقل ولا بد للمرء أن يخرج عنه بين فترة وأخرى ليحقن حياته بفيتامينات منشطة تساعده على الاستمرار. قادهما الحديث بعد ذلك إلى الغرب حيث أكمل عصام دراسته وتطرق إلى الفتيات هناك والحرية المفرطة التي يتمتعن بها، وقال إن الفتاة الشرقية أقرب إلى عقليته وقلبه رغم تأييده لحرية المرأة. وتحدث كيف أن المرأة في الغرب جاهدت من أجل الحصول على حقوقها، لكنها أصبحت بعد سن الثامنة عشرة مسؤولة بالكامل عن حياتها وهي تُطرد من منزل أبويها لكي تكدح من أجل لقمة عيشها، وفي حال بقيت في منزلهما عليها أن تدفع إيجار الغرفة وثمن طعامها وغسيل ملابسها.

فقالت ساريا "جميل أن تعتمد المرأة على نفسها في كل شيء فهذا يمنحها ثقة ويبني شخصيتها عوضاً عن الاعتماد على الأهل أو الزوج كما هو الحال في شرقنا.. أنا مع المساواة بين الجنسين في كل شيء"

قال عصام "على العكس. أنا لا أؤيد المساواة في كل شيء.. لا أظن أنك توافقين على أن تقوم المرأة، كما يحصل هناك، بمسح الأحذية وجمع القمامة وتنظيف المراحيض العامة".

أجابت ساريا بضحكة خفيفة "وماذا في ذلك؟ الأمر ليس معيباً.. إذا كان من أجل الحصول على لقمة العيش.. الزوجة عندنا تمسح حذاء زوجها وتنظف مراحيض بيتها ويقع عبء أطفالها على كاهلها في معظمه من دون كلمة شكر أو مقابل من قبل هذا

الزوج.. هو يعتبر الأمر تحصيلاً حاصلاً.. تقوم بتلك الواجبات حتى ولو كانت موظفة أو راقصة باليه..! هاهاها".

فقال عصام ضاحكاً أيضاً "بنظرك المرأة مضطهدة في الشرق، أليس كذلك؟ قد لا يتمكن كل زوج من إحضار خادمة لتساعد زوجته في أعباء المنزل بسبب أحواله المادية الضيقة".

"لاحظ أنك قلت خادمة وليس خادماً.. الأنثى مرة أخرى.. ولماذا لا يشمِّر الزوج عن ساعديه ويقوم بالمساعدة كما يفعل الرجل الغربي؟ إلى متى سيظل في برجه العاجي؟. ولعلك تفضل المرأة الشرقية لأنها أكثر خضوعاً... تماماً.. كما قلت لك.. لا يمكن تجميل الصورة للأسف.. ".

"إذن، دعيني أزيدك من الشعر بيتاً، المرأة عندهم تحمل الأثقال وتشقى في المصانع وهي مع ذلك تتقاضى نصف أجر الرجل في أغلب مجالات العمل ويُستخدم جسدها للترويج للبضائع والإعلانات. جمعيات حقوق المرأة في بريطانيا نظمت مظاهرات صاخبة احتجاجاً على استخدام جسد المرأة في ترويج البضائع".

"هذا اضطهاد من نوع آخر.. ولكن هناك يمكن للمرأة أن ترفع صوتها وتصرخ في وجه من يأكل حقوقها.. وهذا بحد ذاته انتصار لها.. أليس كذلك؟ أرني مظاهرة واحدة عندنا خرجت انتصاراً لحقوق المرأة أو حقوق أي إنسان.. ".

انضم إلى الحديث السامري وزوجته وحاول التخفيف من حدة الجدل بالقول إن الكثيرات في الغرب يعتمدن على الحبوب المهدئة أو التدخين وأحياناً المخدرات للتأقلم مع الأوضاع الاجتماعية المعقدة وضرب مثالاً ممثلة الإغراء الشهيرة مارلين مونرو التي حذرت إحدى الفتيات من العمل في السينما فقالت لها "احذري

المجد.. احذري من يخدعك بالأضواء.. إني أتعس امرأة على هذه الأرض.. لقد ظلمني الناس.. جعلوا مني سلعة رخيصة تافهة". وتابع السامري أن مارلين مونرو كانت تفضل الحياة العائلية ولهذا أقدمت على الانتحار بعد أن أصبحت ضحية هوليوود التي أوجدتها ثم قتلتها.

انسحب والدا عصام وساد صمت بين ساريا وعصام الذي كان يتمعن في وجهها محاولاً استجلاء رد فعلها على ما قاله أبوه إلى أن واصلت مبارزتها الكلامية بالقول "هذا جزء من صورة يتوجب علينا أن نراها متكاملة.. العوز والفقر يدفع المرأة إلى بيع جسدها في بلادنا.. والمسؤولون يستغلون ذلك للمتاجرة بالفتيات.. المساواة وحرية المرأة هدفان ما زلنا نناضل من أجلهما وما أقصده بالحرية المطلوبة ليس الانفتاح الكامل والتحرر الهوجائي، وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.. ".

"دعينا، يا عزيزتي، ساريا، نبحث أولاً عن حرية الشعوب قبل حرية المرأة، حرية الرأي.. حرية التعبير.. هذا النوع من الحريات لا يزال يعاني في ماجرسان، رغم أنها أفضل مما هي عليه في البلدان العربية حيث يختفي الأشخاص وراء الشمس لو انتقدوا الحكومة.. ".

"على العكس.. حرية المرأة أولاً.. عندما تتحرر المرأة.. يتحرر نصف المجتمع أي نصف الشعب.. وبالتالي تربي أبناءها على هذا الأساس ليكونوا لبنة لمجتمع متحرر".

لا يمكن لساريا أن تخسر جدلاً على غرار مرافعاتها في المحكمة.

كان وائل، على الطرف الآخر من القاعة، يتجرع كأساً من الجعة وينظر بطرف عينه إلى ساريا وعصام، وفي داخله شعور غريب من عدم الارتياح لم يحس به من قبل. هل يشعر بالغيرة لاهتمام عصام بساريا؟ هل أصبحت ساريا تعني له أكثر مما كان يظن؟ ما الذي تحرك في داخله؟ هل اعتاد أن تكون ساريا دائماً بقربه هو ولا أحد آخر؟. في المكتب.. في المطعم.. في الكافيتريا.. في الحديقة.. في المسرح.. هل هو الاعتياد؟ أم أنه حب لم يكن يدري عنه؟ هل نجحت ساريا وهزم هو؟ لماذا يشعر أنها له وحده ولا يمكن أن تكون لشخص آخر؟ ما أفظع هذه الأحاسيس! يجب ألا يستسلم لها.. إنه أقوى وأعقل من ذلك.

في طريق العودة، عرض إيصالها إلى البيت، ودار جدل حامٍ بينهما داخل السيارة. اتهمها بتجاهله في الحفلة وبأنها صبَّت جلَّ اهتمامها على عصام، ونسيت الاتفاق بينهما. استغربت ساريا من حديثه، وقالت إن الاتفاق لاغٍ، وليس له أن يتدخل في حياتها. علا صوتاهما كثيراً، إلى حد أوقف وائل السيارة بانفعال، وهو يقول بصوت أشبه بالصراخ "كنت تحاولين لفت نظر عصام وجذبه إليك بشكل واضح بفلسفتك التي لا تنتهي.. لا حاجة بك لتنكري هذا الأمر.. ".

فصرخت ساريا "يبدو أنك بدأت تحصي عليّ حركاتي وسكناتي. هل لك أن تخبرني بأي حق تفعل هذا؟ هل أنت زوجي أو خطيبي مثلاً؟".

استمر الجدل إلى أن توقف كلاهما فجأة عن الكلام، وكل منهما ينظر إلى الآخر مستغرباً، ثم اتسعت عينا ساريا وانفجرت

ضاحكة، وهي تقول بصوت عالٍ "إنك تشعر بالغيرة من عصام.. أقسم أنك تشعر بالغيرة من عصام!".

وجد وائل نفسه في موقف لا يحسد عليه، وفي حيرة كيف يفسر موقفه أمامها، وهو الذي أهملها في الفترة الماضية. دار برأسه إلى النافذة يردد بصوت خافت "لا، ليس الأمر كذلك.. ولمَ أشعر بالغيرة منه؟ هل جننتِ؟"

وسرعان ما قالت "أنظر في عيني.. إنك تكذب، بل هو كذلك".

ساد صمت طويل وهو ينظر في عينيها، أراد أن يضمها بقوة ويحلق بها عالياً. لم يكن يتصور أن يخفق قلبه بشدة لفتاة، كانت بجانبه وأمامه طوال الوقت، ولم تدغدغ أحاسيسه أو يحمل لها أي مشاعر في يوم. كان يراها صخرة صماء لا تنبت الأزاهير فوقها. وأحياناً رياحاً تنذر بالبرد والزمهرير، أو صيفاً جافاً يمتد هجيره في الأفق والأرض. وإذا بها اليوم نسمة رقيقة حانية، تتغلغل إلى عمق أعماقه، وهو الذي وضع السواتر الترابية، وبنى السدود المتينة في وجه ذلك الفيضان الذي يسمى الحب. إنها تنهار جميعاً أمام سحر العينين وألق اللفتات والضحكات. كيف حدث كل هذا؟ لن يسمح أن تكون ساريا لرجل آخر. امتلكت قلبه وعقله وكيانه فجأة، وأطاحت بكل معتقداته وقناعاته دون أن تترك له فسحة للتفكير أو التراجع.

ضمها إليه بقوة، وأحس بأنفاسها تسري فوق وجهه كوميض لهب، أغمض عينيه وهو يقول "لقد هزمتُ.. لقد هزمتني، يا ساريا.. ".

دخلت ساريا إلى البيت، وكان الليل قد انتصف وراحت تدندن أغنية علقت في ذهنها من الحفلة وهي ترتدي ملابس النوم. تمددت

في سريرها، تغبط نفسها على الانتصار الذي حققته على نفسها وعلى وائل، بعد سنوات عجاف طويلة "لا لست صخرة صماء.. لا لست فتاة من دون قلب لا تحمل في جعبتها سوى عقلها كما تقول جوديا.. الدنيا تفتح لي ذراعيها لتحملني إلى المستقبل.. سأنسى كل الألم وماضي الأحزان.. وسأنزع كل دفاعاتي وأسلحتي من وجه الحب وأقفز إلى نهره الرقراق لأستحم.. وأزيل عن نفسي أدرانها ووساوسها وأوهامها. سأخرج نقية طاهرة كما يوم ولدتُ.. كما يوم ولدت.. ".

سمعتْ فجأة صراخاً منبعثاً من الطابق الأسفل. قفزت من السرير وفتحت باب غرفتها وهبطت السلم مسرعة، فوجدت والدها يدور حول نفسه قريباً من صورة أمها ويتلفت برأسه إلى كل الجهات وهو يقول "نسرين.. نسرين إنها نسرين.. نسرين هنا لا.. لا إنها جوديا". نظرت ساريا في كل اتجاه في الصالة، ولم تر شيئاً. وضعت ذراعها حول كتف فريد وقادته إلى غرفته قائلة "هوِّن عليك يا أبي.. لا شيء هناك.. إنها مجرد أوهام في عقلك.. ستتخلص منها قريباً إن شاء الله بمساعدة الطبيب". تمدد في فراشه. وضعت ساريا فوقه الغطاء، وهي تربت على كتفه وصدره. ظلت بجانبه إلى أن غرق في النوم.

تسرب خوف غريب إلى أعماقها ومرارة إلى فمها مع يقينها بأن حالة أبيها تزداد تدهوراً. عادت إلى سريرها مسربلة بخوف مبهم نسف بهجتها. تدثرت بغطائها تشعر بقشعريرة في جسدها، وتحس بالهواء ثقيلاً في المكان، وبظلمة الليل أكثر كثافة تكاد تطبق على أنفاسها. رأت أطيافاً تجول في المكان، وتنقسم أجزاء وتتكرر وجوهاً من دون ملامح، وأجساداً من دون أجساد

وخيالات وأشباح تدور حولها وتكاد تلمسها. انتصبت جذور شعرها خوفاً. دارت بعينها سريعاً في كل اتجاه، وسرعان ما كمرت رأسها ووجهها باللحاف متعجلة انبلاج الفجر.

الفصل التاسع

لم تتوقف محاولاتي. كنت كمن يسير وستار شبه شفاف منتصب أمامه، لا يستطيع تمييز المنظر خلفه بوضوح. بدأتُ أحس أنني أدور في حلقة مفرغة، أو أصارع الأمواج للوصول إلى البر دون جدوى. لم يكن موقف جوديا مني نفوراً ولا تودداً. كانت قبلتها حارة ومؤذية. كانت حملاً وديعاً وذئباً في آن. سكنت مخيلتي في الليل والنهار. راحت تجتاح أفكاري وكياني كطوفان جارف لا يتوقف. لو حدقتُ طويلاً في الوحش الكامن داخلها، قد أتحول إلى وحش أنا نفسي، أو قد أتيه في أدغالها الكثيفة الموحشة. وإذا لم أكن قادراً على الطيران لافتقادي الأجنحة، لمَ أحاول أن أتعلم الطيران إذن؟ ولكن تعود الأسئلة لتقتحم عقلي. أسئلة تلد أسئلة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف تشكلت جوديا؟ هل أنا أتخيل أموراً لا وجود لها في الواقع؟ هل كل شيء طبيعي وتحليلاتي ورؤاي غير طبيعية؟ إن ما أفكر به ينافي العقل والوعي العلمي. أنا غير قادر على تفسير ما يحدث، والأفضل لي أن أبتعد وأختار لنفسي طريقاً آخر بعيداً عن جوديا. ليست مصدر راحة ولن تكون. ولكن ألم أختر هذا الدرب إرضاء لفضولي؟ كم أتعثر بذاك الفضول وكم ترهقني نزعة الاكتشاف! لن أتراجع. كنت أقول في عقلي، ماهي قصة المرض النفسي الذي أصاب والدها؟ كيف لي أن أصل إلى تفاصيل مرضه؟".

كان الليل على وشك أن يرخي بظلاله على الكون، عندما قادتني قدماي إلى بيت جوديا. لم يخطر لي أن أدقق في البيت وموقعه عندما أوصلتها بسيارتي بعد ذلك العشاء، كان الوقت حينها ليلاً، ودمائي التي سفكت بقبلتها المؤذية شغلتني عن هذا الأمر.

درتُ حوله من بعيد متفحصاً المشهد العام. البيت يقبع على منحدر جبلي في منطقة نائية بضاحية خارج المدينة، حيث الهدوء يستبيح الأماكن والطرقات، وحركة المرور قليلة. الجبال أكثر وضوحاً وعلواً لقربها منه. نوافذ البيت صممت على الطريقة الكلاسيكية القديمة، تعلوها أقواس صغيرة متتالية يتداخل فيها زجاج ملون بالأحمر والأزرق، وتتقاطع فيما بينها أعمدة خشبية رفيعة بلون بني باهت. وبدا باب البيت غريباً باستطالته أكثر من المعتاد ولونه البني المتقشر المتجلل بلون الزمن الغابر. اتخذ شكلاً هرمياً من الأعلى، وانتصب على جانبيه عمودان رخاميان، نُحتت رسوم وأشكال في أعلاهما على الطريقة الرومانية القديمة. الشرفة الأمامية، في الطابق الأعلى، واسعة تحمل مشربيات رخامية متعددة في زوايا سورها الحجري وأحواض زهور خاوية، كما هو حال الحديقة الصغيرة المحيطة بالمنزل، حيث بدت الأشجار القليلة فيها عارية، والنباتات غابت عنها الرعاية منذ زمن طويل، يطوقها سياج حجري يرتفع بنحو متر عن الأرض، تداعت أجزاء منه في الخلفية.

منحني البيت إحساساً بعدم الارتياح وبالسفر عبر أزمنة قديمة داخل معابد وصروح تصل أجواء الرعب في الأدب القوطي بالزمن الحاضر. تتناثر أبنية على مسافات متباعدة منه. لمحتُ

أشباح المارة من بعيد يعبرون الطريق إلى موقف الحافلات في نهايته، وضوءاً خافتاً منبعثاً من متجر قريب من الموقف. يمتد متنزه صغير، في خلفية المشهد، بشكل دائري ويحيط به سور حديدي، وخيال أشخاص فيه بدأوا يغرقون على مقاعدهم داخل شبه العتمة. ضحكات وصرخات أطفال تخدش، من حين لآخر، الهدوء الغافي في المدى، فيتململ قليلاً ويعود لغفوته وصمته مختلساً رحيل الضياء. ظللتُ واقفاً في المكان لفترة أنظر حولي والبيت منتصب أمامي أشبه بماضٍ يتحدى الزمن ويقتص من الحاضر. لا تزال نوافذه معتمة بالكامل. تساءلتُ، وأنا أتفحص المنزل طويلاً، فيما إذا كان فريد في الداخل بسبب مرضه الذي تحدثت عنه ساريا. بارق في داخلي دفعني لقرع الجرس واستجلاء الأمر. ترددتُ كثيراً قبل أن أفعل، وأخيراً قررت المجازفة. نقرتُ الباب بخفة فلم أسمع جواباً. قرعت الجرس مرتين ولم أتلق رداً. استمريت في قرع الجرس مرات دون فائدة. وعندما هممتُ بالمغادرة، فُتح الباب وانبعث ضوء ضعيف من الداخل. ظهر فريد متهالكاً متمايلاً كمن تجرع برميلاً من الكحول، بشعر أشعث ولحية نبت شعرها بعشوائية وعينين غائرتين ووجه شاحب. كنتُ التقيت فريد مرة في كلية الفنون عندما كان يقِّل جوديا إليها بسيارته. بدا اليوم مختلفاً تماماً. لم يتذكرني، فعرَّفته إلى نفسي وقد صدمت بمنظره، ثم سألته فيما إذا كانت جوديا في المنزل، فهز رأسه نفياً. حدقت في وجهه لدقائق محاولاً استنباط طاقته في الضوء المنبعث من الداخل، فلم أستطع. واتتني شجاعة من جديد وطلبت التحدث إليه في أمر. تلكأ قليلاً ثم أشار لي بيده للدخول. جلست على كنبة عريضة وغصت داخل حشوتها

الوثيرة، وعدت للتحديق بفريد بتركيز. رأيت حوله هالة مرتعشة رقت حوافها، مع بقع فارغة كثيرة في أجزاء منها، واهتزازات بطيئة تكاد تتوقف. فأدركت أن صاحبها أثقل على جسده ونفسه إلى درجة فقد السيطرة عليهما، ما أدى إلى اضمحلال في طاقته.

لم أجد وضعه مناسباً للتطرق إلى موضوع شراء السيارة. ساد صمت ثقيل وطويل قبل أن أقول إن جوديا رسامة مبدعة ولديها خيال جامح ومدهش، إنما نظرتها للأمور سوداوية. سألته فيما إذا كانت تعاني من أمور بعينها في حياتها.

راح فريد يحدق في وجهي كمن يصغي إلى شخص يتحدث لغة أخرى لا يفهمها، أو كمن جاء من عالم غريب لا يمت بصلة إلى هذه الأرض. بدا لي كائناً بترت لحظات حياته وصار يتحرك داخل فراغ وجودي طافياً فوق مساحات من الغياب واللاوعي. فجأة نظر إليَّ بعينين زائغتين وقال:

"جوديا.. جوديا هي نسرين.. نسرين تأتي إلى هنا كل يوم لتعذبني وتنتقم مني.. الليل سيأتي كما في كل ليل وستأتي نسرين.. وستأتي جوديا".

لم يكمل. نهض فجأة وسار يجر قدميه نحو السلم وهو يردد "نسرين تأتي إلى هنا دائماً.. نسرين تأتي إلى هنا.. ".

بقيتُ جالساً في مكاني للحظات ذاهلاً، أحس برهبة المكان وتكتنف عقلي حيرة وتساؤل حول ما ردده فريد. فأنا سمعت أن الأم ماتت منتحرة واستنتجت من هذيان فريد هذا أن اسمها نسرين. تلفتُّ حولي أتأمل الصالة الواسعة التي يصلها بالطابق العلوي، في زاوية منها، درج نصف دائري. وضعتْ فيها كنبتان عريضتان بلون أخضر وحواف خشبية مذهبة، وكنت أجلس على

إحداهما، وثلاث أخرى صغيرة باللون البني الفاتح، وامتدت سجادة عريضة بألوان متعددة على الأرض فوق بلاط مربع تقليدي باللونين الأسود والأبيض. ثُبتتْ فوق الجدران فوانيس صغيرة ينبعث منها ضوء خافت، وتدلت من السقف ثريا ضخمة أطفئت أنوارها. وتقود زاوية أخرى من الصالة إلى مدخلين، في شكل أقواس هرمية، يفضيان إلى غرفة أخرى معتمة، تبينتُ وجود عدد من الأرائك فيها وطاولة طعام، وعلى يسارها باب غرفة مفتوح. نهضت من مكاني وتوجهت إلى الغرفة المفتوحة. أضأت المصباح فإذا بها مرسم جوديا عُلقت على جدرانها العديد من الرسومات الغامضة ومعظمها لكواكب تسبح في الفضاء وحولها خيوط شعاعية متداخلة وسفن فضائية بأشكال متعددة، ولوحات أخرى تحمل وجوهاً تعكس ألماً وأفواهاً تصرخ. في زاوية من الغرفة انتصب تمثال الرجل والمرأة المتعانقين الذي نحتته جوديا في الكلية، وفي زاوية أخرى تدلى قناع لوجه قبيح يشبه الأقنعة الشيطانية التي يرتديها الناس في عيد الهالاوين، وتحته على رف صغير نصف ذراع منحوتة من الخزف وعليها وشم أزرق يمثل وجوهاً كئيبة. ارتعدتُ عندما التفت فجأة وشاهدت جمجمة على طاولة صغيرة وفي داخلها ضوء صغير تكاد تكون مخفية وراء المكتب. خرجت من الغرفة مسرعاً وقد استدعى المرسم في عقلي كل أنواع الشياطين والأرواح والأشباح.

عدت إلى الصالة أتأملها من جديد. كانت الستائر بلون أخضر مع خطوط مذهبة في أطرافها وحوامل في شكل ضفائر ذهبية.

عُلقت على أحد الجدران لوحتان ضخمتان برسومات تجريدية، بدت باهتة في بعض أجزائها وشديدة القتامة في أجزاء أخرى.

زرع شحوب البيت وصمته كآبة وتوجساً في نفسي، زادت منهما كثافة انعكاس اللون الأخضر الغامق في السقف والقسم الأعلى من الجدران، رغم رسومات أزهار وخطوط ذهبية منتثرة فيها هنا وهناك. أما القسم السفلي من الجدران فكان باللون الأخضر الفاتح المائل إلى البياض، وقريباً من إحدى النوافذ عُلقت الصورة التي رسمتُها لوجه جوديا، ثم استرعى انتباهي صورة أخرى معلقة قريباً منها. نهضتُ وسرت نحوها ووقفت أنظر إليها بإمعان. ظننت لأول وهلة أنها جوديا، ثم أيقنت أنها نسرين تقف إلى جانب دراجتها مبتسمة "يا إلهي، يا للشبه الكبير بينهما.. أمر لا يصدق.. نفس الوجه والشعر.. وحتى الابتسامة.. وكأنهما توأمان".

مرة أخرى نظرت حولي بحذر أتفحص المكان بعناية. لا شيء يبدو غير عادي، لكن الجدران والأشياء تجأر بي، وكأن لها عيوناً تحملق وترقبني، وأيادي تمتد إلى رقبتي وتكاد تخنقني. عدت للتركيز طويلاً في صورة نسرين فتراءى لي فجأة سحابة دخانية سوداء تنطلق منها وتتهادى ببطء نحو السقف وتختفي، وشممتُ رائحة كأنها البخور. فركتُ عيني عدة مرات لأؤكد لنفسي أن ما أراه حقيقة فإذا بسحابة أخرى تنبعث من الصورة وتدور حولي مرة وأنا أدور برأسي معها ذاهلاً، ثم ترتفع متهادية نحو السقف. انتابتني قشعريرة قوية وأحسست بشعري قد انتصب من جذوره فيما عيناي تلحقان السحابة ببلاهة. كنت غير قادر على الحركة. تجمدتُ في مكاني وتلفَّتُ حولي فزعاً ثم وجدت نفسي أهرول

تلقائياً وسريعاً نحو الباب أبغي الخروج وعقلي يردد "يا مهوِّن.. عفاريت.. جن.. أشباح.. لا أؤمن بها.. بس مو وقت الشجاعة والمرجلة.. الهريبة تلتين المرجلة". عندما حاولتُ فتحه وجدته موصداً بإحكام. حاولت مرة ثانية وثالثة ورابعة دون جدوى. تركتني الصدمة جامداً مثل قالب ثلج وسمعت ضربات قلبي في أذنيّ. هرعت إلى نافذة الصالة، فتحتها بصعوبة بعد استعصاء، وقفزت إلى أرض الحديقة من علو نحو مترين، فوقعتُ من شدة الهلع والتوى كاحلي مع قوة ارتطامي بالأرض، لكنني نهضت وجريت وأنا أعرج وأتألم لا ألوي على شيء. عندما وصلتُ إلى الطريق العام حيث ركنت سيارتي تنفست الصعداء "يا إلهي.. كل قطعة في كياني ترتجف خوفاً.. هذا البيت بسكونه وعتمته أشبه ببيت الأشباح. أثار بي كل مشاعر الخوف والفزع. لم أكن أتصور أن أخرج منه سالماً.. كيف دخلتُ وكيف خرجتُ؟ لا أدري.. لا أفهم ما الذي يجري داخله؟ لا أفهم ما الذي دفعني للمجيء.. الأشياء أشبه باللغز.. كنت كالجرذ الفار من مصيدة".

قبع ثقل فوق قلبي وضغطت دواسة البنزين فازداد الألم في قدمي اليمنى المصابة، وبما أن السيارة اوتوماتيك بالكامل قررت أن أستخدم قدمي اليسرى عوضاً عن اليمنى، وإذا بي أضغط دواسة البنزين عندما يجب أن أفرمل وأفرمل عندما يجب أن أدوس البنزين فعدت لاستخدام قدمي اليمنى متحاملاً على نفسي ومتحملاً الألم. قدت السيارة على الطريق العام على غير هدى ودون أن أتبين وجهتي محاولاً فك رموز هذا اللغز الجديد الذي ظهر أمامي على حين غرة وما قاله فريد عن نسرين. رحت أحلل في عقلي أن كل مادة بصورتها الجسمية والطاقية لها بداية ونهاية

زمنية، أي لحظة نشوء ولحظة زوال. ومن المفترض أن نسرين بصورتها الجسمية والطاقية قد انتهت. وليس لأحد أن يراها لأنها غير موجودة في المكان ولم تعد موجودة في زمننا. الأشياء غير المتفقة معنا مكانياً وزمنياً لا نستطيع الإحساس بها. الأشياء لا تكون محسوسة ما لم يتحد المكان بالزمان. فما الذي يحدث في هذه الحالة؟ لا بد أنه الاحتمال الثاني الذي كنت فكرتُ به من قبل. نسرين استطاعت التنقل بين بعدين أو زمنين ربما ليس بجسدها بل بخواصها الطاقية. ربما أصبحت تملك قدرة على العبور إلى زمننا. ربما يمكنها الانتقال إلى الوراء.. إلى الماضي.. أو إلى الأمام، إلى المستقبل في نقاط زمنية مختلفة كما لو كانت تنتقل خلال المكان. ولكن ما هو هذا المكان الذي تتجلى فيه هذه الطاقة داخل بعدنا الأرضي وما علاقة جوديا بالأمر؟ لم أجد في عقلي سوى احتمال واحد وهو أن نسرين كطاقة تنزلق داخل جوديا كجسد وتحركها حسبما تشاء. إنما لمَ اختارت هذه الطاقة جوديا وليس ساريا؟ يمكن أن أفسر الأمر على أن كثافة الطاقة لدى جوديا قوية إلى حد أدت إلى جذب طاقة أخرى لها نفس القوة، كون جوديا نفساً نيرانية معذبة تتأجج غضباً ورفضاً. والغضب والرفض هما أساس خواص تركيبتها النفسية. وبالتالي اندمجت الطاقتان المتأججتان في شكل كتلة سلبية مؤذية. وهذا بالتالي ما يسميه العامة أن "روحاً تلبستها".

كلما غرقتُ في التفكير وجدت أن عليّ أن أختبر كل هذا عملياً لأصل إلى حقيقة جوديا وقاتل ناهد.

في تلك الليلة ادلهمت السماء بسوادها وسمع عواء الريح وحيوانات ليلية، وفريد غارق في سباته. عندما دقت الساعة

منتصف الليل، تناهت أصوات بعيدة إلى أذنيه. فتح فريد عينيه ودار بهما في العتمة. تلاشت الأصوات لوهلة وسرعان ما عادت بشكل أقوى تعصف في عقله وأذنيه. صوت نسرين ينادي جوديا من جديد. الصوت يردده الصدى "جوديا.. جوديا..". أحسَّ بوجود شيء ما حوله، رأى مصراعي النافذة يُفتحان بقوة تلقائياً وكذلك باب الشرفة. راحت الستائر تتأرجح وتصفع الجدران بشدة. لمح ظل شخص يتحرك أمامه. قفز من الفراش والذعر عينه الثالثة. إنها جوديا تتقدم نحوه وعيناها تلمعان وتخترقان وجهه في ظلمة خفت كثافتها. يتراجع إلى الخلف، ويحس بجسده خفيفاً كمن ألقي به في العراء. تتقدم نحوه كمن يسير في نومه. يتراجع كمن يريد الخروج من طريق يتحرك بسرعة، وتتقدم نحوه كموجة هائلة توشك أن تغرقه. اشتد عواء الريح واختلط مع صراخه ونداءات نسرين وكلمات ترددها جوديا "الشيطان يقبع داخلنا.. الشيطان يقبع داخلنا.. داخلنا الكهوف المظلمة.. "

راح يصرخ "جوديا.. جوديا".

أجابت "أنا لست جوديا.. أنا نسرين".

صرخ من جديد "أنت جوديا.. أنت جوديا".

"أنا لست جوديا أنا نسرين.. جئتُ لتذهبَ معي" اقتربت منه أكثر ودفعته بقوة إلى الخلف. ظل يتراجع فزعاً وهي تتقدم. يتراجع وتتقدم إلى أن ألقى بنفسه من الشرفة وهوى من الطابق الثاني واصطدم بسلك حديدي قذفه فوق السور الحجري إلى الأرض مهشم الرأس سابحاً في بركة من الدماء.

قيل إن عينيه وملامحه كانت تنم عن ذعر شديد بعد موته، وإن الأطباء رأوا أنه ربما تعرض لحالة من الخوف والهلع أودت به إلى الانتحار.

وفي كل هذا سمعت ساريا صراخه، لكنها قررت ألا تذهب إليه هذه المرة، لأنه أصبح مصدر ملل وإزعاج كبيرين لها. بل غطت أذنيها بكفيها وكمرت رأسها بالغطاء وعادت للنوم.

وأما جوديا فتمددت في فراشها وأغمضت عينيها وابتسامة باهتة على شفتيها، وكأن حملاً ثقيلاً أنزل عن كاهلها، واستسلمت لنوم عميق.

سرى خبر موت فريد منتحراً في المنطقة ووصلني النبأ في نهاية اليوم الثاني. رحت أتعجل الصباح لكي ألتقي جوديا في الكلية لمعرفة حقيقة ما جرى. عندما التقيتُها، بادرتُ للتعبير عن أسفي لوفاة والدها، فأجابت بنظرة حادة "كان يعاني مرضاً نفسياً حاداً.. ربما شيزوفرينيا كما وصفها الطبيب النفسي.. سبب لنا مرضه تعاسة كبيرة".

سكتُّ موقناً أن سر فريد دفن معه، وليس لي أن أصل إلى الحقيقة، ما لم أقم بعمل دراماتيكي لإجلائها.

اتصلتُ بساريا لتعزيتها بوفاة والدها فبكت أثناء الحديث، وقالت إنها سمعت صراخه لكنها لم تنهض لمساعدته لأنها اعتادت سماع صوته معظم الليالي، ولكن لم يخطر ببالها قط أن يصل الأمر إلى حد الانتحار. ومن خلال شهقاتها ونشيجها سمعتُها تلوم نفسها "أنا السبب ولو سارعتُ لنجدته لما حدث كل هذا" ثم استسلمت لنوبة بكاء ولم تستطع أن تكمل حديثها معي.

كنت موقناً أن لجوديا دوراً في ما حدث لوالدها. وقد يكون فريد فقد روح التحكم بجسده وعقله والشاهد على ذلك طاقته التي بدت رقيقة ممزقة في ذلك المساء، عندما زرت بيتهم. وقد تكون جوديا تمكنت من بعثرة ارتكازات حمايته الكونية فلم يعد يستطيع الدفاع عن ذاته أو السيطرة على عقله وتفكيره، وأنها حتماً ساقته إلى حتفه. ولكن لم يكن لدي برهان واحد يمكن أن يوصلني إلى اليقين. وفي كل هذا كنت أتساءل متى ستنتهي علامات الاستفهام. إنها تنهش رأسي كطلقات الرصاص. وسرعان ما تهتُ في الغيبيات التي تداخلت في عالم المادة، وتساءلت عن كنه الروح التي تخرج من الجسد. هل هي الطاقة الحقيقية والأصلية للكائنات، وما أراه أنا حول الأجسام مجرد إشارات أو ذبذبات بسيطة منها؟ هل الطاقة هي الروح التي لا تتغير ولا تفنى وليس لها بداية ولا نهاية؟ وهل يمكن أن تنتقل من جسد إلى آخر؟ رحت أتخيل كيف التقت نسرين الطاقة مع فريد الطاقة بعد موته. أم أن الصلة بينهما قد انقطعت! هل ستعاقب روح فريد لذنوبه وكيف يمكن أن تعاقب الروح وهي ذات طبيعة معنوية أثيرية غير ملموسة لا مثيل لها في عالم الموجودات والمادة. إنها تدرك وتحس وتشعر فكيف سيكون عقابها لو حدث؟ أم أنها ستعود إلى الجسد لكي يتم العقاب كما يقال، وهل ستعاقب نسرين الطاقة لأنها تسببت في موت زوجها كما تسبب هو في موتها؟ وهل ستعاقب جوديا لأنها كانت الأداة أو الجسد المادي الذي أرسله إلى حتفه أم أن الأمر خارج عن إرادتها ولا ذنب لها فيما يحدث؟

خطر لي أن المتصوفة لا يفصلون الروح عن الجسد. تتعطل الروح إذا تعطل الجسد، كالسيارة إذا تعطلت بطل عمل سائقها.

يقولون إن العالم كمظهر ليس موجوداً إلا بالله، والله كهوية هو حركة العالم الخفية. لا يمكن أن نفصل بين الله والعالم أو الوجود أو الكون. إنهما واحد ولكن كيف يمكن أن يكون الله قدرة معنوية وينتمي إلى عالم المادة في نفس الوقت؟ فيجادلون أن الماء أصل قطعة الثلج كيف يمكن أن نقول إن الماء حلَّ في الثلج إذا كان هو الثلج، أو أن الثلج اتحد بالماء! فالثلج هو الصورة الظاهرة للماء والماء هو الصورة الباطنة للثلج فإذن هما واحد.

كل هذا الشطط في الغيبيات لا فائدة منه. يجب أن أعود إلى واقعي وأترك كل شيء للأقدار. وكيف لي أن أبحث وأتحرى عما ليس موجوداً أو ملموساً. وصلتُ إلى درجة اليأس والعجز. حاولت إقناع نفسي عبثاً أن عليَّ أن أؤمن بأن كل شيء إنما هو خطة إلهية حتى النهاية، لا يمكن لمخلوق ضعيف ومحدود مثلي أن يفهمها أو يصل إلى جوهرها.

الفصل العاشر

مرت أشهر الشتاء رتيبة كئيبة، وتراخت قبضة البرد والجليد رويداً، وجاء الربيع بحلته القشيبة. الحياة لا تنتظر. تسير بخطوات واسعة ومتسارعة دون أن تلتفت إلى الوراء وما خلفته من أحداث جسام وثقال على الورى.

تنهض ساريا من تعثرها بتثاقل، محاولة استعادة توازنها بعد موت والدها. خفف وجود وائل بجانبها الكثير من معاناتها. إنما لم تجد أي نوع من السلوى أو المشاركة من أختها جوديا التي التزمت الصمت في كل مرة دار الحديث عن موت الأب. بل كان حزن ساريا وصدمتها كبيرة لجملة كررتها أختها " كان يجب أن يقتل نفسه كما فعلت أمي.. انتهى كما انتهت أمي".

وكثيراً ما اتهمت ساريا أختها بالقسوة، لكنها لم تتساءل عن عدم اكتراثها لموته ليقينها بأنها لم تحمل له أية مشاعر طيبة في يوم.

بدأت الجروح تندمل والعيون تتفتح على أمل جديد كتفتح الزهور والرياحين في الحقول، وفي قلب ساريا يهمي ندى حب ناعم، ينعش أوصالها ويمضي بها نحو مستقبل آخر، قد ينتزعها من ماضٍ، صوره ملامح مفزعة، وأصداؤه أنات ودموع. كانت تجول الحدائق مع وائل وتتأمله يقطف وروداً حمراء وبيضاء وأزاهير صفراء وبنفسجية صغيرة ويجعلها في باقة ويقدمها لها، فتضمها إلى صدرها وتتنشق عبيرها بقوة كأنها تنفخ في روحها

أكسير حياة أخرى. يمسك بيدها ويجرها فوق منحدر فتركض بإعياء تحاول اللحاق بضحكتها وقدميها وقادم أيامها، وما تنفك تسأل عقلها عن ماضٍ عشعش في صدرها ألغازاً مضنية لم تستطع يوماً فك طلاسمها. ولم تكُ تدرك كيف يستسلم العقل للجنوح فيقتل الجسد وينهي حياة. ولم تعد تسمع صرخات أبيها في الليالي الحالكة، فصار نومها أهدأ وأعمق. لكنها ما زالت تستيقظ فجأة على صرخاته، وسرعان ما توقن أنها كانت تحلم. ازداد تقاربها مع وائل. صار الصدر الحنون الذي فقدته منذ زمن بعيد، رغم أن وائلاً لم يكن من النوع الذي يعبِّر كثيراً عما في داخله. كان يكفيها أن يكون قريباً منها، تلقي بأحمالها بين يديه كلما ضاقت بها الدنيا، فتجد في كلماته سلواناً ودفعاً للمضي.

وظلت جوديا بركاناً ثائراً يرمي بحممه فوق الكائنات في غفلة منهم. تطلق نيرانها المستعرة بالرفض والغضب في كل الجهات. ولم تكُ تدري عن علاقة أختها بوائل، ولم تخبرها ساريا عن حقيقة مشاعرها تجاه من تحب. بل أخفت عنها سرها بوعي منها أو دون وعي.

كنتُ أنا على الجانب الآخر ضائعاً في متاهات حيرة وألغاز، لم أستطع كشف حجبها. وفي الوقت نفسه قررتُ عدم الاستسلام لعجزي، فازداد صراعي مرارة. كنت أفكر في الوصول إلى حقيقة جوديا بالدخول معها في علاقة حميمية. وكنت أخشى أن يكون هناك فجوة كبيرة بين حقيقتها كأنثى وبين حقيقتها كطاقة مدمرة. ومن شدة التفكير بدأتُ أحس بكراهية تربعت داخل صدري فجأة لكل بنات حواء.

فتحتُ سريعاً ذلك الدفتر الذي رأيت جوديا مرات تدوِّن أشياء على صفحاته. كانت قاعة المرسم خالية من الطلاب الذين توجهوا للاستراحة في كافيتريا الكلية أو في ساحتها. أردت أن أنهي قراءة أكبر عدد من صفحاته قبل عودة جوديا والطلاب. وكنت أخبرتكم سابقاً عن مدى ذهولي وصدمتي عندما قرأتُ ما فيه عن الكوكب النسائي الوردي. تابعتُ قراءة فقرات أخرى،

".. ناهد تحولت إلى طاقة والتحقت بالكوكب الوردي. إنها تعيش حالة استقرار وسعادة رغم أنها كانت حزينة في البداية لفراق مروان. لم يُسمح لها بالدخول إلا بعد أن تخلَّت عن كل تلك الأحاسيس. إنها في عالم أكثر هدوءاً وشفافية مقارنة بأزمنة الحروب والصراعات حيث يهيمن الرجال على كوكب الأرض. لم تعد تشعر أنها بحاجة إلى ذكر يخدش طاقتها الحريرية ورقتها بخشونته الذكورية أو أن يقضي منها وطراً ليثبت فحولته. تحررتْ تماماً من تلك الحاجات الجسدية المنحطة والمشاعر الزائفة.. قالت لي أمي: تحررنا من طغيان المادة وتخلينا عن تلك المرأة التي اختُزلت في جسد مادي يداعب مخيلة الرجل ولا يرى فيها سوى أداة للمتعة والتكاثر. سرق الرجال منا كل شيء وصاغوا عالماً ذكورياً بحتاً، وحتى الإله جعلوه ذكراً.. جعلوا منا ظلاً باهتاً لهم.. هكذا أملت عليهم طبيعتهم المتسلطة، رغم أننا نحن أصل شجرة الحياة وجذرها الثابت في الأرحام.. في العالم الأرضي كانت كل الولادات عبثية.. يقذفون في أرحامنا بمزيد من الأفواه الجائعة في عالم جائع.. أطفال نزوة عابرة لرجل وامرأة من آلة انتصاب لا تهدأ، ثم قتلهم وإبادتهم بآلة الرجال

الحربية الجهنمية وفق حسابات حكومات خفية تقدِّر أن أعدادهم فائضة.

هنا كل شيء مختلف. الحنان هو العملة المتداولة والابتسامة الدائمة فرض على الجميع. لا يوجد حزن بل سعادة دائمة.. يتدفق الحنان من النهود الأنثوية في شكل نجيمات هلامية لامعة تنتشر في كل مكان وتخترق الطاقات الأخرى مع عطر فواح أشبه برائحة المسك والعنبر. هناك دروس لتعليم الطاقات الصغيرة الابتسام الدائم والحنو على الطاقات الأخرى التي تسكن بعيداً عن مركز الكوكب أو التي تأتي إليه من كواكب خارجية. كلما حطَّت طاقة جديدة على الكوكب تتسارع الطاقات الأنثوية إليها ويتجمعن حولها بفرح. تطمئنُّ إلى ضحكاتهن الخفيفة. تشتم أريج الورود منهن، وتسمعهن يحدثنها عن طريق التخاطر دون كلام. تفهم ما يقلن بالنظر إليهن فقط.

لا يوجد زمن هنا. الطاقة الأنثوية تعيش خارج الزمن تماماً ووجودها دائم لا نهاية له. هي ميتة في نظر سكان الأرض لكنها على قيد الحياة في وجود مختلف وبعد آخر. الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لها أزمنة تحدث كلها معاً. ولو أرادت الطاقة الأنثوية أن ترى ماضياً فستعيشه بشكل إدراك ذهني في اللحظة الراهنة، وتقدر أن تمد زمنه قدر ما تشاء، فالزمان والمكان هنا ليسا مادة محسوسة خارجية بل حالة ذهنية. كما تستطيع أن ترى مستقبلاً بتجليه في وجودها الآني المترامي خارج الأزمنة. يمكنها أن ترى أمها أو صديقة لها برمشة عين وأن تعيش معهما أي فترة زمنية ماضية أو مستقبلية، ولا يمكنها أن ترى زوجها لأنه خارج ذاكرتها الوجودية. أمي سعيدة هناك. قالت تركنا العبيد الذين

خلقهم أجدادنا على كوكب الأرض وكذلك المتسلطين والحكام. تركنا القتلة يدمرون بعضهم بعضاً إلى أن يحرقوا كل شيء. لم نعد بحاجة إلى ذلك المكان، خرجنا منه ولن نعود. تعتقد أمي أن كوكب الأرض سينتهي بحروب جيوفيزيائية مدمرة تشنها الكائنات البشرية الذكورية ضد بعضها البعض. تتحكم القوى العظمى بالمناخ وحركة السحب والرياح والحرارة وحتى الزلازل والبراكين. كذلك ستشن حروب بأسلحة نووية ينتج عنها سحابة نووية هائلة تحجب أشعة الشمس عن الكوكب لزمن طويل فيفنى كل من عليه من أحياء، سينجو عدد قليل جداً من الناس ممن تمكنوا من العيش في أنفاق عميقة تحت الأرض هرباً من التلوث النووي الذي يملأ الغلاف الجوي. يتحول هؤلاء مع مرور الزمن إلى كائنات تعيش في ظلام دائم فتصبح شبيهة بالخفافيش لا ترى إلا في العتمة. تضمر عظامهم وتتقلص أجسادهم وتنحني نتيجة فقدان الشمس، وتطول شعورهم ولحاهم وشعر أجسادهم فيصبحون أقرب إلى الحيوانات. يأكلون الأعشاب داخل التراب ويعيشون لفترات طويلة من دون ماء اعتماداً على ما يتسرب من سوائل إلى باطن الأرض. ثم يقضي هؤلاء نتيجة براكين وزلازل مدمرة تضرب الكوكب مع اقتراب الشمس من الخمود. تنطفئ الشمس ويصبح كوكب الأرض مجرد كتلة صخرية غير صالحة للحياة..

أغبط نفسي لأني لن أعيش حتى ذلك الزمان. أتمنى أن ألتحق بصديقتي ناهد في يوم وأن أرى الكوكب الوردي، إنما لن يحدث هذا الآن، فأنا لم أُنهِ مهمتي بعد، كما تقول أمي".

توقفتُ وأعدت الدفتر إلى مكانه عندما سمعت جلبة الطلاب يعودون إلى المرسم، وأنا أحس بالدوار وأتساءل هل ما قرأت كان مجرد خيال أم جنون أم ماذا؟

ألقيتُ الدرس على الطلاب وعقلي شارد في مكان آخر لا أستطيع التركيز فيما أقوله أو أفعله.

قررت مواصلة اللحاق بفضولي لمعرفة المزيد. مرة ثانية، دعوتُ جوديا إلى منزلي لتعطي رأيها في لوحة رسمتُها. عندما وصلتْ وألقت بالتحية، تضوعت منها رائحة جميلة أشبه برائحة الصنوبر، خلعت حذاءها ذا الكعب العالي على الفور، وقالت إنه يسبب لها ألماً في قدمها. توجهنا معاً إلى المرسم لرؤية اللوحة. كانت لوحتي توحي بعدم وجود جاذبية على الأرض، والناس والأشياء تطفو حولها وتتجه نحو السماء. تساءلت جوديا كيف تمكنتُ من الإيحاء للناظر أنهم يتساقطون بعكس الجاذبية وقالت "إنك بارع حقاً"، ضحكتُ قائلاً "أعشق كل ما هو غريب وخارج عن المألوف".

فأردفتْ "وخرافي ومدمر أيضاً".

جلسنا على الأريكة نرشف القهوة، فاقتربتُ منها ووضعت يدي حول كتفها وزدتُ التصاقاً بها، وأنا أدرك أن أمراً ما قد يحدث. نظرتْ إليَّ بابتسامة غامضة، فرأتني أتأمل قدميها وأظافرها المطلية باللون الأحمر، قلت "قدماك جميلتان". ثم نظرتُ في كفيها وقلت "ويداك أيضاً".

افترَّ ثغرها عن ابتسامة وقالت "أراك تتغزل بي.. هل هي مقدمة لشيء ما؟".

كل ما فيها جذب مغناطيسي لمشاعر متقدة، إنها كتلة جمال ملتهب ونار تشع في ليل التائهين. يتأجج عشق في داخلي لهذا الوجه الجميل والعينين الزرقاوين الحالمتين والغارقتين في عوالم لا أدري كنهها، ولهذا الشعر الأشقر السابح في جداول الذهب، ولرائحتها العطرة تهيمن على وجودي. إنما كيف لي أن أفسر نفوراً ينتابني في الوقت نفسه. عندما أتذكر جانبها الآخر، عندما أتذكر ما كتبتْ، عندما أتذكر هالتها العجيبة، يصبح حبي أرضاً هشة تنبت فيها أعشاب الكراهية. هل يمكن للمحب أن يخشى من يحب؟ وهذا هو حالي تهيمن عليّ كثافة الحب إلى حد أصبح طعمه حامضاً. يعصف في رأسي دوار العشق المميت ويقذف به في مهاوي الردى.

لا تزال سراً غامضاً لا أعرف كيف أكشف أستاره، ولا أدري أي نوع من المشاعر تحمل لي. هل هي قادرة على الحب، على العشق، على التعاطف، على التواصل، على الوئام؟ هل هي من هذا العالم فعلاً أم أنها من عالم آخر؟ إنها لغز محيِّر لا يمكن فك طلاسمه.

عندما ضمنا السرير بات الانفصال والاتصال مستحيلين. كان كل منا ينظر إلى الآخر ويردد في عقله "أحبك حتى عندما أكرهك". كنت أدرك تماماً أن جوديا لن تستسلم لرجل. فكراهيتها للجنس الآخر متأصلة في جذورها إلى حد صارت وثناً تعبده. وكيف لها أن تنتهك حرمة ما تعبد، وتمارس علاقة جنسية تمنح الآخر، الذي تعتبره غازياً ومتطفلاً على عالمها، متعة ولو كانت آنية. ومع هذا أنا على يقين أني لست بعيداً عن قلبها. إنها تكره

أنها لا تكرهني. وأنا أكره أني أحبها. وقد تتحول في لحظة إلى وحش كاسر ينبش أحشائي ويرديني.

رحت أفكر، وأنا أضمها وأنثر قبلاتي الخفيفة على عنقها ووجنتها، بأن الناس قد يرتكبون أفظع الجرائم باسم الحب أو الدين. الحب كلمة قوية وكذلك الكره. وأين أصنف نفسي في هذا الإطار؟ هل أحبها أم أكرهها؟ وهل تحبني أم تكرهني؟

عندما اختلطت أنفاسنا سرت حرارة قوية في جسدينا، وسرعان ما أحسست بحدسي الداخلي أن تلك الحرارة تحولت بعد لحظات إلى برودة جليدية في أعطافها. عجيبة هي الحياة، كيف يختلط الجمر مع الجليد؟ أغمضتْ عينيها تحاول استدعاء نشوة هاربة. ورغم حرارة جسدي لمحتُ طلائع الجبال الجليدية العائمة في جسدها. بادرتْ إلى وضع يديها حول رقبتي وضمتني إليها بقوة.

وفي غمار نشوة تجمدت قبل أن تتفجر، أطبق كفاها على عنقي بشدة. نظرتُ في عينيها فرأيتهما لدهشتي تتقدان شرراً. تبدلتْ قسمات وجهها في ثوانٍ وبدت من دون ملامح. حاولتُ إبعادها عني وفكَّ كفيها عن رقبتي دون جدوى، راحت تشدُّ على عنقي إلى حدٍ أحسستُ بالاختناق والعجز عن الصراخ، لكن توقي القوي لمعرفة حقيقتها دفعني للترديد بحشرجة مضنية "من أنتِ؟ من أنت؟." فإذا بها تقول "أنا نسرين.. أنا جوديا.. يجب أن تموت، يا نمير!".

أيقنتُ أن تحليلاتي السابقة كانت صائبة. إذن هي نسرين تتزلق في شكل طاقة داخل جوديا وتتحولان معاً إلى طاقة مضاعفة. حاولت التملص من بين يديها بكل ما أوتيت من قوة، إنما باءت

محاولاتي بالفشل. وبدا أنني أضعف وأعجز من أن أبعدها عني أو أبتعد عنها. تحول السرير إلى حلبة عراك بيننا، وكنتُ كالدجاجة المذبوحة، تسترق آخر أنفاسها منتفضة بين يدي جزارها. وفي خضم اليأس، لم أجد بداً من استخدام وسيلة الإنقاذ التي كنت جهزتُها احتياطاً لما قد يحدث. أدخلتُ يدي ما بين السرير والفراش بصعوبة بالغة وأنا ألاطم الموت، وأخرجتُ سريعاً سلكاً متصلاً بالكهرباء، وتركته يصعق يديها وكفيها بقوة، فارتج جسمها بشدة وأفلتت يديها عني، وهي تصرخ وتهتز اهتزازاً شديداً أشبه بنابض لا يتوقف. استمر اهتزازها لبعض الوقت وهي فوقي وأنا أنظر إليها مرتعداً، وسرعان ما ابتعدتْ عني ثم قفزتْ عن السرير بخفة وركضت باتجاه الباب والتقطت حذاءها وتوارت.

جلستُ على حافة السرير وقد داهمتني نوبة سعال حادة وارتعاش في جسدي من هول اللحظة. كادت تقضي عليّ فعلاً. ولو لم أضع خطة لإنقاذ حياتي وأنا بين يديها، لكنت الآن في عداد الأموات. توجهتُ إلى الشرفة لاستنشاق بعض الهواء وعنقي يعاني من آثار الضغط الشديد، ولا أزال ألتقط أنفاسي بصعوبة بالغة. كنت أفكر كيف لي أن أثبت لأي أحد ما حدث! ليس لدي دليل واحد. لا بد من أن تقوم الشرطة بحجز جوديا في المصح أو في السجن أو في أي مكان، بعد أن أصبحتْ خطراً يهدد الجميع. وكيف لي أن أسلِّم الفتاة التي يعشقها قلبي إلى مصير قاتم؟ كيف السبيل إلى ذلك؟ كيف أسلم قلبي وأحمي عقلي؟ هل يستوي الأمران؟ أكاد أفقد عقلي.

عندما وصلت جوديا إلى البيت، كانت ساريا جالسة تراقب مسلسلاً تلفزيونياً. التفتت إليها فرأتها شاحبة وتساءلت عن السبب، فاختصرت جوديا الأمر بالقول "أشعر ببعض التعب". ساد صمت لبعض الوقت وتابعت جوديا بعينين زائغتين ما تراقبه ساريا على الشاشة. كان البرنامج يتحدث عن الخيانة الزوجية، فإذا بها تقول:

- الرجال مخلوقات طفيلية شريرة. يحشرون أنفسهم في حياة المرأة ويلاحقونها، لكي تعلق في شباكهم، وما أن تقع في براثنهم حتى يسومونها سوء العذاب والقهر والذل.

فأجابت ساريا بحذر لكي لا ينكشف سرها أمام أختها:

- ليس كل الرجال سواء.

- لا.. بل كلهم سواء. كيف تدافعين عنهم؟ ومنذ متى؟ هل نسيت كل الألم الذي عاشته أمنا بسبب أبيك؟

- هو والدك أيضاً.. أنا لم أنس يا جوديا.. ولكن ما أقصد قوله هو أن لا بد أن يكون هناك من هو محب وصادق ويحترم المرأة ولا يبخسها حقها

صرخت جوديا بحدة:

- لا.. لا.. لا يوجد من هو كذلك. لماذا تموِّهين الحقيقة؟ ما الذي جرى لك؟ لم تكوني كذلك من قبل.. لم يكن هذا رأيك من قبل؟ ما الذي جعلك تتبدلين؟

ارتعدت ساريا. خشيتْ أن تكتشف جوديا علاقتها مع وائل، فقالت محاولة تهدئة الأجواء:

- أنا لم أتغير.. بل ما زلت على كرهي للرجال.. وأنا مثلك تماماً.. اطمئني مهما قابلت رجالاً لن يروا مني سوى الاحتقار.

فالنقمة في داخلي لا تزال مستعرة الأوار ولن تتبدل. أنا مثلك لم تستطع الأيام، ولن تستطيع محو الماضي من ذاكرتي.

توقفتْ قليلاً وهي تتفحص وجه أختها، ثم أردفت:

ـ أخبريني الآن كيف كان يومك؟ ما رأيك أن نحضر عشاء؟

هدأت جوديا، لكنها واصلت التحديق بأختها لبعض الوقت، وكأن هاتفاً في داخلها يهمس أن ساريا تكذب وتخفي شيئاً ما.

انقطعت جوديا عن الجامعة لفترة طويلة. ولم أكن أتوقع عودتها بعد كل ما حدث. أطلّتْ ذات صباح فجأة ومن دون سابق إنذار. دخلت إلى المرسم غير عابئة وجلست على كرسيها تنظر إليَّ بلا مبالاة، وكنت أشرح خطوطاً وأبعاداً على السبورة. ذهلتُ عندما رأيتها. توقفتُ عن الشرح لدقائق، ثم تابعتُ وقد فقدتُ القدرة على التركيز إلى درجة لفتت انتباه الطلاب الذين لاحظوا ارتباكي. مع انتهاء الدرس استوقفتُها لدى خروجها من القاعة، وقلت هامساً "أنتِ من قتل ناهد، أليس كذلك؟ أنا واثق أنك من قتلها.. ". لم تنبس ببنت شفة، وإنما حدجتني بنظرة شلت أطرافي وغادرتْ سريعاً. ووقفتُ حائراً. ثارت عواصفي من جديد. وكنت أظن أنها هدأت مع غيابها في الفترة الماضية.

وأما ساريا على الجانب الآخر فنقلت إلى وائل حيرتها وخوفها إزاء ما يمكن أن يكون موقف جوديا لو عرفت بأمر علاقتهما وقالت "جوديا تحمل حقداً دفيناً وكرهاً شديداً للرجال.. إنه أشبه بمرض لا شفاء منه".

عزا وائل الأمر إلى ما عانته جوديا بسبب انتحار أمها ثم قال:

ـ إن العلاقة الشائكة والمضطربة بين والديك يا ساريا خلفت كل هذا الألم داخل أختك جوديا.

فقالت ساريا:
ـ الغريب في الأمر أن جوديا تسخر من المرأة وتعتبرها فارغة العقل وغبية إذا أحبت. ليس هذا فقط، بل ترى أنها لا تستحق الحياة لو قبلت أن تسلم حياتها لرجل.
ـ هذا تطرف. انتحار أمكم ربما هو السبب. قد تحتاج جوديا إلى طبيب نفسي لمساعدتها في التخلص من هذه الأفكار الغريبة. وقد تحتاج إلى مساعدتك أيضاً.
ـ ولكن كيف؟ حتى أنني لم أجرؤ على ذكر أنني على علاقة بك وأننا نخطط للارتباط.
ـ ولكن يجب أن تخبريها وتجعليها تتقبل الأمر على أنه أمر واقع وحدث طبيعي. لا يمكن لها أن تقف في وجه الحياة.
ـ صدقني، ثارت ثائرتها عندما أظهرتُ نوعاً من التعاطف مع الرجال في آخر حديث معها، وأنا لا أدري كيف سأمهد الطريق لهذا الأمر.
حوَّل وائل الحديث إلى موضوع آخر عندما سأل ساريا:
"أرى أنك أهملت قضية مقتل جون ستيفنسون ولم يعد هذا الملف يثير اهتمامك..".
فأجابت ساريا أن الأحداث المتسارعة في حياتها أنسَتها نفسها.
شرح وائل كيف أن القضية على وشك الانتهاء بعد ظهور دلائل تشير إلى أن الفاعل ليس أشرف الحموي بل شخص لا يخطر على بال أحد. فسألته ساريا بلهفة:
"من القاتل إذن.. ربما منذر؟".
"لا ليس منذر.. شخص غير متوقع.. إنها امرأة تعمل في الشركة.. ".

"من؟" قالت ساريا وعيناها تتسعان.

راح وائل يتحدث عن تفاصيل الجريمة التي ارتكبتها موظفة تعمل في قسم المحاسبة وتدعى "جُمان" رغم أن الشكوك توجهت في البداية نحو أشرف بسبب ما يظهره من نقمة على الشركة وأصحابها. إنما في واقع الأمر وحسب نتائج التحقيقات فإن جمان خططت بإتقان للجريمة التي لم تتضح دوافعها بعد. وكانت على علاقة غير معروفة الملامح مع جون الذي دعاها إلى منزله قبل يومين من مقتله. لكنها أثبتت أنها كانت ليلة الجريمة بزيارة لأمها في ضاحية تبعد عن المدينة نحو ساعة. ما حدث في واقع الأمر هو عندما خلدت أمها للنوم استقلت جمان سيارتها بعد منتصف الليل وتوجهت إلى بيت جون ودخلت من الباب الخلفي للفيلا وبحوزتها مسدس كاتم للصوت. دخلت غرفة نومه وأفرغت عدة رصاصات في رأسه وهو نائم ثم عادت أدراجها سريعاً إلى بيت أمها وكأن شيئاً لم يكن. لكنها لم تدرِ أن الخادمة التي كانت غرفتها في الجهة الخلفية من الفيللا سمعت وقع خطواتها في الممر فنهضت من سريرها ورأتها خارجة خلسة من باب الفيللا الخلفي لتتوجه سريعاً إلى سيارتها.

سألت ساريا "ولكن من هي جمان؟ ولماذا قتلته؟".

أجابها وائل "لا يُعرف عنها الكثير سوى أنها من النوع الانعزالي. وليس لها علاقات مع الآخرين إلا القليل. اعترفت بارتكابها الجريمة ورددت جملة واحدة أمام الادعاء العام "سارتر يقول، الآخرون هم الجحيم.. قتلته لأنهي الجحيم..".

أغلق ملف القضية، وعادت ساريا لتنهمك في قضايا أخرى تلهيها عن أوجاعها. كانت تنهض في الصباح وتتوجه إلى عملها

وتعود في المساء. تلتقي جوديا عند الفطور وفي الأمسيات وتتجنب الحديث في مواضيع بعينها، خوفاً من إثارة زوبعة تنتهي بجدل وتهجم من جوديا يشعرانها بالذنب وعدم القدرة على المجابهة. سمعتْها تقول ذات مرة بعد تناولهما العشاء معاً "إذا كان لا بد للحياة أن تستمر على هذا الكوكب، فيجب تخليصه من السموم. وهذا لن يكون سوى بعملية ضخمة.. تنتهي بخفض دراماتيكي لأعداد الرجال". توقفت قليلاً ثم أردفت "والنساء الغبيات".

سرت قشعريرة في جسد ساريا، وأحست بالدوار، وسرعان ما استأذنت وتوجهت إلى غرفتها لتندس في سريرها.

الفصل الحادي عشر

ظل التحقيق في مقتل النساء الثلاث، ناهد وليليان ورنا، جارياً دون جدوى. ووجدتُ نفسي أقوم بدور المحقق دون أن أشعر، فأنا أريد كشف الحقيقة بأي ثمن. وكنت أفكر أنه لا بد أن أخبر أحداً بما جرى. فخطر لي أن ألتقي بوائل لأطلعه على تجربتي مع جوديا فهو زميل ساريا، وربما يقودني ذلك إلى معلومة ما، أنا بحاجة لها. التقيتُه في كافيتريا قريبة من بيتي. تحدثنا في بعض الأمور وإذا به يتطرق إلى علاقته بساريا قائلاً إنهما ينويان الزواج. فوجئتُ بالخبر والتزمت الصمت لبعض الوقت. غرقتُ داخل عقلي في محيط هائل، تتلاطم في أمواجه مخاطر كبيرة. حقيقة لم تعد شكاً أو جهلاً أو تكهناً. كيف لي أن أقنع وائلاً أو نفسي بأن جوديا هي كائن آخر لا يعرفه؟ كيف لي أن أصوِّر له ما يمكن أن تكون ردة فعلتها لو عرفت بأمر علاقته مع ساريا؟ كيف لي أن أقنعه بأن من عمق الوداعة والجمال تنشأ القباحة؟ كيف يمكن أن تنشأ حقيقة من ضدها؟

حكيتُ له قصتي مع جوديا وكيف حاولتْ قتلي خنقاً وطلبتُ منه ألا يبلِّغ ساريا بالأمر على الأقل حالياً. وحذرته من أن تعلم جوديا بعلاقتهما ونيتهما الزواج قائلاً "إن ذلك قد يعرض حياة ساريا للخطر". كان وائل يستمع إليَّ واجماً ساهماً لا يصدق ما يسمع. لكنه قال أخيراً "كيف لي أن أقنع عقلي بأن جوديا تمتلك قدرات غير طبيعية كما تقول وأنها يمكن أن تقتل. عقلي يرفض

هذا الاحتمال. تحدثتْ ساريا مراراً عن كراهية أختها للرجال إنما لا أتصور أن يصل الأمر إلى حد القتل. وما حدث معك قد يكون مجرد أوهام أو من قبيل الصدفة".

عدت أحاول إقناع وائل بأن ما حدث لم يكن وهماً أو صدفة بأي حال من الأحوال، بل هو واقع مررتُ به شخصياً ولم أسمع عنه من الآخرين. وكان وائل يكرر أن جوديا فتاة هادئة وعذبة، ولا شيء فيها يوحي بعكس ذلك. لكنه وعدني بالمساعدة في استجلاء الحقيقة، واتفقنا على أن تمهد ساريا لأختها تدريجياً عن علاقتها بوائل.

لم تعرف ساريا عن ذاك اللقاء بيني وبين وائل. بقي الأمر سراً بيننا إلى أن يحين الوقت المناسب للكشف عنه. كل ما فعله وائل في هذه الفترة هو الاستمرار في مساعدة ساريا على نسيان كل شيء والتواؤم مع الحياة. كان يقول لها "الحياة هي الألم والسعادة في آن، يا ساريا. كثيراً ما يغلب الألم، فإما أن نحاول التغلب عليه بمحاولة السيطرة على العالم والصدام مع كل شيء للهروب من المعاناة والأحزان، كما تفعل جوديا، وتلك هي الطريقة المثلى لخلق العنف. أو نتعلم كيف نحتوي هذا الألم كجزء طبيعي من الحياة وأن نروِّضه كحصان جامح. والأفضل لنا أن نتألم لكي نخرج أقوى عوضاً عن أن نحصد الكره والخوف".

بعد موت فريد اعتادت ساريا أن تقود سيارة والدها وكانت تقِّل أختها جوديا إلى الجامعة في بعض الأحيان. وكانت جوديا التحقت بمدرسة لتعليم القيادة لنحو شهرين واستطاعت أن تحصل على رخصة في نهاية المطاف. راحت تلحُّ من أجل اقتناء سيارة جديدة خاصة بها. كانت تكرر أنها تكره سيارة فريد ولا رغبة لها في

ركوبها أو قيادتها. ومع ذلك طلبت في يوم قيادة السيارة على غير عادتها، لخطة في رأسها.

كانت الساعة الخامسة عندما وصلت جوديا إلى الشارع الذي يضم مكتب أختها. تعمدت الوقوف بالسيارة في زاوية منه، تنتظر خروج ساريا دون أن تخبرها بوصولها. بعد نحو عشر دقائق، ظهرت ساريا عند باب المبنى برفقة وائل وقد تشابكت أيديهما. تحدثا قليلاً ثم تعانقا وطبع وائل قبلة على وجهها مودعاً.

عندما همَّتْ بالمغادرة وعبرت إلى الطرف الآخر من الشارع، أطلقت جوديا بوق السيارة فانتبهت ساريا. اقتربت وعقلها مشتت، تتساءل فيما إذا كانت جوديا قد رأتها تعانق وائلاً وتقبله. لكن وجه جوديا لم يكن يوحي بغير ذلك، إذ كانت ملامحها متوقدة ووجهها مضرج بالدماء ونيران تشتعل في داخلها. ما إن جلست ساريا على المقعد بجانبها، حتى انفجرت جودبا بالصراخ قائلة:

ـ ما الذي رأيتُه الآن؟ أحاول أن أكذِّب عيني.. ما الذي يجري بينكما؟ هل أنت على علاقة بوائل؟ هيا أخبريني.. هيا.. هيا.

ـ إنه مجرد استلطاف.. لا شيء آخر.. لماذا تضخمين الأمور؟ ليست المسألة كما تتوهمين.

ـ استلطاف؟ هل جننتِ هل نسيتِ؟ تصورتُ أن يحدث كل شيء عدا هذا.. وممن؟ من أختي ساريا التي أحبها وهي أقرب الناس إليَّ. تخونني وتخون أمي وتخون الذكريات والآلام وكل ما كان.

راحت جوديا تضرب مقود السيارة بقوة، وتكرر أنها لن تسامح أختها لو أقدمت على ما هو محرم في عقلها. لكن ساريا التي

توقعت ثورة أختها قررت المواجهة وخوض المعركة حتى النهاية، فإذا بها تقول:

ـ أجل أحب وائلاً ولن أخشى أحداً في هذا الحب. لم أعد قادرة على إخفاء هذا الأمر والتظاهر أمامك أن لا شيء يحدث في حياتي.

عندما سمعت جوديا هذه الكلمات، انقضت على أختها وأخذت تهزها بشدة إلى حد تبعثر شعر ساريا في كل اتجاه، وهي تصرخ:

ـ لا.. لا تقولي هذا يا ساريا.. لا أريد أن أسمع ما تقولين.. لا أريد.. إنني أحبك ولا أريد أن أفقدك.. تذكري هذا جيداً.. إن ما تقدمين عليه جنون.. إنك تستلبين حياتك من نفسك.. إنك تسلمين قدرك لرجل.. إنك تدمرين كل شيء.

ـ كفاك جنوناً يا جوديا ودعي الحياة تأخذ مجراها الطبيعي. لا يمكننا أن نعيش في حالة اجترار للماضي والأحزان. لنفتح قلوبنا للجمال والحب والتسامح. أولئك الذين ينتقمون من الحياة يجعلون من أنفسهم ضحايا قبل الآخرين.. فقط بالنسيان نصل إلى التسامح.. لا يمكننا أن نجعل أحاسيسنا معطلة إلى الأبد لأننا نعيش على رماد الذكريات.. نتنفس ماضينا ونتقيأ حاضرنا ومستقبلنا. أرجوك يا جوديا حاولي أن تتخطي الماضي من أجل مستقبل أفضل.. من أجلنا معاً.

لم تشأ جوديا أن تستمع إلى المزيد، بل تركت قدمها تضغط دواسة الوقود بقوة ودون وعي، فانطلقت السيارة بسرعة جنونية تتجاوز السيارات والشاحنات والناس. تنعطف فجأة إلى اليمين ثم إلى اليسار. رأت ساريا الموت يتربص بهما مع مرور كل ثانية، تجمَّد الدم في عروقها وعجز عقلها عن مجاراة اللحظة الراهنة،

فكانت أشبه ما تكون خارج الوعي، وحتى أبواق السيارات التي كانت تلعلع حولهما تراجعت إلى خلفية المشهد، لكنها كانت تسمع صراخ جوديا "سنموت معاً.. إذن سنموت معاً.. لا فائدة.. ".

لم تصحُ إلا في المستشفى والطبيب يربت على وجهها فأيقنت أنها لا تزال على قيد الحياة وأنها وجوديا نجتا من الموت بأعجوبة بعد اصطدام السيارة بعمود على الطريق السريع.

كان وائل ساهماً ينظر إلى ساريا والضماد يلف جبينها مستعيداً كلماتي. قالت ساريا وعيناها محتقنتان بالدموع "لا أصدق ما يجري.. هناك فيضان بكاء في داخلي يريد أن يجتاح الدنيا.. جوديا هي طفولتي وألعابي ودفاتر ذكرياتي.. كبرتُ ألف سنة بيوم واحد.. تضرعتُ إلى الله لينهي هذي الحياة المضطربة.. الشك والخوف يحفران في روحي ويقتلانها.. حاولتُ أن أقتلع الأشواك المنتشرة في سنوات عمري.. وأن أزرع وروداً وأترنم في ذهولي وألمي مع نشيد البلابل في ذات ليلة حزن.. أبكي جوديا وأشيائي المحطمة أمامي.. كل ما عشته كان كذبة خرافية.. الأشياء تنهض من العدم من مرقدها الأبدي أشبه بعظام نخرة، تجول في بيت موحش كئيب.. فتحولني إلى كيان مجزأ.. بعضه يفر من الخوف، وبعضه يرقد في الحنين.. والبعض الآخر يهرب إلى الانعتاق. بتُّ لا أسمع سوى ثرثرات تخدش أذنيَّ ولا أفهمها.. لا أفهمها.. جوديا لا تريد أن تتقبل الحياة والناس.. ومن لا يريد الحياة والناس هو إما معتوه أو شيطان.. ".

ضمها وائل إليه صامتاً لفترة طويلة. كانت كلماتي تتردد في عقله دون أن يقدر على نقل ما سمعه مني إليها، وكل ما قاله "توخي الحذر، يا ساريا، ولكن لا تنسِ أن لديك من الشجاعة ما

يكفي لتواجهي كل شيء، فأنت محامية بارعة. لا أحب أن أراك بهذا الضعف والتراجع.. واصلي اقتلاع الشوك والترنم بقصائد الأمل.. ".

مرت أسابيع والتقاها وائل بعيداً عن العمل. جلسا إلى طاولة في كافيتريا يحتسيان القهوة وكانت ساريا واجمة. لم تعد كما كانت قبل فترة، يوم تمكنت من تخطي حزنها على أبيها وأرادت فتح باب جديد إلى مستقبلها. فقدت تلك الابتسامة مجدداً. كانت تردد أنها غير قادرة على التخلص من الخوف الذي يسيطر عليها والشكوك التي تهيمن على حياتها، إلى حد لم تعد تثق بأختها، وبما يمكن أن تقدم عليه. تحدثت عن علاقة فاترة بينهما، وقالت إن جوديا انكبت، خلال الأيام الماضية، على نحت مجسم في مرسمها وإنها لا ترى منها إلا القليل.

لم يكن وائل ليقتنع بأن هناك شيئاً شيطانياً في تلك الأحداث التي سمعها مني، ومن ثم من ساريا. ولم يكن ليصدق وجود قوة فوق طبيعية يمكن أن تخرِّب أو تدمر على هذه الأرض، عدا قوة الإنسان وما اخترعه من وسائل للقضاء على الآخرين. كان يردد في نفسه "ألا يكفي ما نراه من بشاعة داخل عقولنا ونفوسنا وما نطوره من وسائل لتدمير هذا الكوكب، حتى تأتينا قوة أخرى، خارجة عن القوانين الفيزيائية والكيميائية، لتدلو بدلوها في تحديد قدرنا ومحو الخير من حياتنا؟". وخلال أحاديثه مع ساريا أحس بأنها تعاني من خوف كبير، فأسهب في عرض مساوئ الخوف والشك وقال إنهما يدمران النفس والحياة، وإن الناس الخائفين لا ينتجون لأن الخوف يطفئ جذوة إبداعهم وتقدمهم وطموحهم.

قال لها "الاستسلام للخوف والشك، يا ساريا، لن يكونا الحل لأي مشكلة".

قالت ساريا:

ـ لا يحدث الخوف ما لم يكن هناك مثير أو باعث له، كظهور شبح او تصرف جنوني يهدد الحياة.

ـ بالطبع. أوافقك.

ـ عندما تعيش في خوف لا تخرج منه إلا مع زوال سببه.

ـ الخوف لا يحدث فقط بسبب ظهور شيء مخيف هناك خوف من الحاضر والمستقبل. وقد تكون جوديا تخاف الماضي وتكرهه وبالتالي تخاف الحاضر وما يمكن أن يحمله. وهنا تكمن المشكلة.

ـ في الماضي كان أبي مصدر خوفنا واليوم أصبحت جوديا مصدر خوف آخر.. نحن دائما محاصرون بالخوف.. إنه مثل عباءة نرتديها ولا نستطيع نزعها..

في طريقها إلى البيت راحت تفكر في خوفها وفي حربها مع الماضي. تريد أن تحرق تلك المدن القديمة وتبني مدناً أخرى جديدة. تريد أن تغير العالم إنما العالم هو الذي يغيرها، وملفات القضايا في المحاكم تتزاحم في رأسها فتزيد من أرقها وتلاطمها. هل هي تتعمد الغرق داخل تلك القضايا؟ أتهرب إليها لكي تنسى. وكيف وهي أقسى من واقعها**!** تسقط عميقاً في جحيم هذه الأرض وحرائقها. حرائق تجول في داخلها غدواً ورواحاً. ما أكثر أوهام البشر. ساجدة، تلك المرأة التي قتلت زوجها بسكين ضخمة وهو نائم ثم قطعت جسده أجزاء ودفنتها في أرض الحديقة، تقف خلف القضبان ولا تجد من يدافع عنها. إنها مجرمة.. قاتلة.. يجب أن تُعدم، وحتى محمود السامري رفض تسلم قضيتها لأنها قضية

خاسرة. هل من مبرر للقتل؟ وائل قال "لا شيء في القانون يبرر القتل على الإطلاق وإذا خُفف الحكم سيكون سجناً مدى الحياة".
لم يفهم أحد معاناة ساجدة وآلامها. الرجل كان يشوه جسدها عشرين مرة في الشهر. قالت إنه كسر ساقها وأسنانها وكاد يفقأ عينها. قالت إنه كان يعذبها ويأخذ مالها ويضرب أطفالها. ومع هذا قال القانون لا يحق لها أن تزهق روحاً. كانت تسأل نفسها "هل تستحق هذه الروح الحياة؟ كان يجب أن تجد وسيلة أخرى. لكن الرجل أزهق روحها كل يوم.. كانت تموت كل يوم.. "

تتذكر ساريا والدها فريد، لم يكن بهذه القسوة لكن أمها انتحرت. لم ترد هذا النوع من الحياة. كانت أرقَّ من أن تتحملها. وهذه المرأة فضلت السجن المؤبد أو ربما الإعدام. أيهما أكثر شجاعة أمها أم ساجدة التي ذبحت زوجها؟ على الأقل تلك المرأة انتقمت لنفسها، إنما أمها انتقمت من نفسها. كيف يحدث هذا؟ لماذا لم تفعل أمها الشيء نفسه؟ لكن النتيجة واحدة. الموت**!**

ومريم التي اكتشف أخوها حامد أنها على علاقة بشاب، وجدت نفسها يوماً وجهاً لوجه أمام أخيها وهي برفقة الشاب في بيته. صفعها وشج رأس الشاب برزمة مفاتيح أخرجها من جيبه ثم سحبها من يدها إلى البيت. ما إن وصلا إلى داخله حتى تلقاها بالصفعات والركلات ثم تناول قضيباً سلخ جلدها وروحها بضرباته وسارع إلى المطبخ ليحضر سكيناً ويجز عنقها فهرعت إلى الشرفة وألقت بنفسها من الطابق الثالث إلى الأرض وفارقت الحياة. مَثُل حامد أمام القضاء وقال إن ما قام به كان دفاعاً عن الشرف وأنكر أنه أراد قتلها، وأصرَّ على أن الهدف كان تلقينها

درساً فقط. هي انتحرت بإرادتها وهذا ليس ذنبه، وخرج حامد بريئاً من الجريمة.

ونجوى، المرأة التي هاجمت زوجها بالمطرقة وكسرت يده ثم جرحت عنقه بكأس مكسورة. كادت تقضي عليه، وجدته الشرطة ينزف بشدة. هربت نجوى واختبأت عند صديقة لها لكن الشرطة عثرت عليها واعتقلتها. قالت إنه كان يضربها، وهذه المرة شدَّها من شعرها وجعلها تركع ثم تسجد لتقبل حذاءه. اعترفت أن الهدف كان رأسه وليس يده، لكن المطرقة أخطأت الهدف. أرادت قتله وفشلت. كانت المعارك بينهما لا تتوقف. هو عاطل عن العمل وهي مسؤولة عن نفقات البيت وحياة طفليها وحتى عن سجائره، فقط من بضع ليرات تحصل عليها من خلال الخدمة في البيوت. تقول نجوى إنها فقدت أي قدرة على تحمل هذا الرجل وهذه الحياة فقررت إنهاءها. كان الطفلان في المدرسة عندما خططت لقتله. وجريمتها أمام القضاء، الشروع في القتل وقد تسجن مدى الحياة.

يا إلهي، كيف يمكن أن تتحول المرأة إلى كائن عنيف هكذا؟ كانت ساريا تردد في عقلها. العنف النسائي يجتاح ماجرسان. إنه ثورة على الرجال؟ أمها لم تكن كذلك.. كانت في منتهى الرقة والشفافية ومع ذلك لم تسلم من أذى الرجل.. ربما لو كانت أقوى لاختلفت الأمور.. ربما يجب على النساء أن يتلقين دروساً في الكونغفو والتايكاندو أو يتعلمن المصارعة ليتخلصن من ضعفهن ويتمكنَّ من الدفاع عن أنفسهن، ورد الأذى النفسي والجسدي الذي يسببه لهن الرجال ليتغلبن على قوتهم العضلية، عندها يمكن لهن أن ينافسن هذا الكائن على السلطة والقوة والنفوذ وكل ما يتقاتل الرجال من أجله "آه يا ماجرسان كيف حمل أهلك خطاياهم

وأخطاءهم معهم إليكِ. كيف شوهوا سكينتك وبراءتك ووداعتك بقسوتهم وتلوثهم بقذارة الحياة. كيف عاد الرجال وحوشاً والنساء متمردات ناقمات. كنتِ جبالاً ووديانًاً وأنهاراً غافية على ضفاف الزمن تقدس عذريتها وتأنس لهدوئها، فلطخوكِ. كنتِ بألف خير قبل أن يهاجروا إليك. كنتِ حلماً نتوق إليه، وعندما فتحتِ لنا ذراعيك وقلبك دسنا طيبتك بنعال إرثنا المتحجر ودنسنا طهرك بآثامنا.. ها نحن عدنا لنكرر ذاتنا ولنكون لا شيء سوى نحن.. وأنا، يا إلهي، كيف أصبحتُ شريرة وقاسية هكذا مثلهم؟ ألهذه الدرجة أصبحت الحياة عبثية؟ قتل وانتقام وحقد وصراع؟ الرجال يقاتلون بعضهم ويتقاتلون مع النساء. وكأن الدنيا معركة بين جنسين مختلفين تماماً في كل شيء. هل هناك أزواج سعداء حقاً؟ أم أن أحدهما يتنازل للآخر لكي تمضي الحياة؟ على الأغلب هو كذلك. على الأغلب المرأة هي التي تتنازل لأنها الأضعف عضوياً، وهذا خطأ.. لا يمكن لي أن أتنازل لوائل، إذا كنت مقتنعة أني على حق، لأني أضعف جسدياً.. هذا هراء.. وائل مختلف.. أكيد هو مختلف.. ليس كبقية الرجال كما تقول جوديا. يجب أن تخرج من كل هذا وتفكر الآن في كيفية رأب الصدع الذي حصل مع أختها والتقارب معها من جديد وتهدئتها وهذا هو الأهم. تساءلت وخطواتها تتسارع نحو البيت فيما إذا كانت جوديا ستستفيق من غفوتها يوماً، فيتوارى رفضها وتتقبل أمر زواجها في نهاية المطاف، فتحدث معجزة تقلب كل شيء رأساً على عقب. لعل وابلاً من فرح يهطل فوق يباس روحها. ما أجمل الأمنيات والآمال عندما تسفح فوق جبال اليأس. هل ستحدث تلك المعجزة؟

هل ستبارك جوديا زواجها في يوم أم أن الأقدار حكمت عليهما بالسجن معاً وراء قضبان الماضي؟

الفصل الثاني عشر

"إلى متى تواصلين تجنبي، يا جوديا؟ أنا أختك وأقرب الناس إليك! ولا أكن لك سوى المحبة".

كانت ساريا تخاطب أختها، وجوديا تتأمل وجهها الحاني طويلاً. ذلك الوجه الذي اعتادته وأدمنته وأحبته، وكان جزءاً منها ومن وجودها وطفولة ذاكرتها وشبابها. كيف لها أن تمحو تلك الملامح الطيبة من دفاتر حياتها بممحاة النقمة؟ كيف لها أن تتخلى عن ساريا، الحب الوحيد والحقيقي في داخلها؟ كيف لها أن تقطع ذلك الرباط الروحي المتين الذي لم تستطع الأحداث ولا الأيام أن تقطعه "لا يمكنني أن أكون أنا بعد موت أمي" كانت تردد في عقلها "لا يمكنني أن أعود الى نفسي بعدما فقدتها، واليوم لا يمكنني إلا أن أعود جوديا القديمة الصغيرة عندما يتعلق الأمر بأختي التي أحب.. أمطاري لا تهطل إلا في أرضها، وفرحي لا ينعتق إلا في سمائها، وطيوري لا تغرد سوى فوق أغصانها. إنها كتاب قديم وجميل ورثتُه من ماضٍ سقيم. إنها لحن يمسد وجعي، وصوت يهدهد جروحي. ساريا أنتِ حلم ملون في شمسي الرمادية. أنت أجمل ما تختزنه الذاكرة وكل ما تبقى فيها هموم وأحزان. أنت عطر يتسلل بين سحبي الدخانية. أنت نصفي الطيب والطاهر الذي فقدته. إذا رحلتِ يا ساريا يجب أن أرحل معك.. يجب أن نرحل معاً.. لا وجود لإحدانا دون الأخرى.. يجب أن يغلق كتاب حياتنا معاً لكي يوصد باب بيتنا الحزين إلى الأبد.. ".

اغرورقت عيناها بالدموع وضمت أختها إلى صدرها وسرعان ما أجهشت بالبكاء، وانتقلت عدواه إلى ساريا. تعانقتا طويلاً تبكيان دون توقف. اختلطت دموعهما كما اختلاط الذكريات المتشبثة بأفقهما، والألم المكتظ داخلهما، أشبه بقاربين تائهين يسبحان في مسافات الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

رددت ساريا "أريدك يا جوديا أن تري أولادي وأن تتزوجي يوماً فأرى أولادك.. سيلعبون معاً ويعيشون حياة سعيدة.. أريد أن يتربى أولادي في كنف أب يفرحون لمجيئه كل مساء.. يعانقونه طويلاً كلما دخل من باب البيت عائداً من عمله.. يشتم رائحتهم الملائكية ويطير بهم بين ذراعيه إلى السماء.. أريد أن أسمع ضحكاتهم وهو يمازحهم ويلاعبهم ويداعبهم، ويتظاهر بالهزيمة لدى ملاكمتهم.. ويسابقهم في الجري بحديقة منزلنا الآمن.. أريد أن أكوِّن أسرة سعيدة.. لا أن يكون زوجي كهوف خوف لا نملك مغادرتها.. أريد أن أصبح عجوزاً وأنا في كنفه.. أنعم بالحنان والاطمئنان.. تلك هي آمالي يا جوديا.. ليست كبيرة أو مستحيلة".

رغم أن الدموع سواقي تغسل النفس من أدرانها، ورغم أن ساريا تنغسل بدموعها من شوائب الحزن والتيه، وتتوق للخروج من حلكة ظلام منتشر في قفار حياتها، والهروب من حيرة تطل برأسها من ثنايا الفجر وجهمة الليل، فإنها تأمل في داخلها أن ينبثق نور يضيء سماء جوديا ووجودها، وأن تطفئ تلك الدموع نيرانها ونقمتها مرة وإلى الأبد، إلا أنها لم تكن تعلم أن دموع أختها إنما هي طوفان حزن جديد وبشائر ألم قادم وحرائق ستأتي على كل شيء.

ذهبت ساريا إلى عملها تحمل في جعبتها الكثير من الراحة والتفاؤل بعد أن ألقت عن صدرها حملاً ثقيلاً وكشفت سرها أمام أختها جوديا "لم أعد أخشى شيئاً. سأمضي نحو اختياري، ولن يقف الماضي حائلاً دون ذلك. اليوم تحررتُ منه تماماً.. اليوم هناك شمس في سمائي..".

كانت ساريا على يقين بأن جوديا ظلت دائماً العائق الذي يقف في وجه الحاضر والمستقبل، وهي التي تركت نفسها وأختها أسيرتين في قفص زمن مضى، تعيدان قراءة تاريخ بلا هوية سوى هوية الموت، إنما لم يخطر في بالها إطلاقاً أن تتحول جوديا إلى كائن يمنع الماضي من المضيّ، لا بل ويجره إلى الحاضر بقوة فوق طبيعية اتخذت لبوس القتل والتدمير.

رأى وائل فرحاً في وجهها. أخبرته أن جوديا تقبلت الأمر في نهاية المطاف، وأنها ستبارك زواجهما. لم تخبره أنها ستزور ساجدة في السجن في ذلك اليوم. وكأنها أرادت بتلك الزيارة أن تبرهن لنفسها أن هناك ما هو أقسى وأكثر وجعاً في الحياة مما حدث لها ولأختها، علّ نفحة من ارتياح تتسرب إليها بعد أن تخيلت أحداث حياتها أقسى ما يمكن أن يحدث لبشر. نظرت إليها المرأة بعينين حزينتين وتمتمت "هو الإعدام.. أليس كذلك؟ على الأقل سأموت وأنا حرة".

لم تجب ساريا بل مكثت تتأملها وكأنها تحاول أن تشفي وجعها بألم أكثر إيلاماً. همست لنفسها "فكرت أنه كل البلاوي ياللي بالدنيا نزلت فوق راسي.. طلعت مالي شايفة منها غير جزء صغير أو مالي شايفة شي أبداً".

بالأمس تراها ساريا فقدت حريتها في ظل رجل مخيف واليوم فقدت حريتها وراء القضبان. وأيهما أصعب؟ فتجيبها ساجدة "حتماً سجن الخوف أصعب من سجن الجسد" ثم أردفت "أرجو أن تساعدي أولادي في الدخول إلى الميتم. ليس لهم من أحد سوى الله". وعدتها ساريا بالمساعدة ومضت تستجمع مزيداً من الترياق للشفاء من سم الحياة.

لم يخطر لها على بال أن جوديا على الطرف الآخر كانت تأكل نفسها، وتزيد حرائقها اضطراماً. تنفخ نيراناً في شرايينها وأوردتها كحطب التنور، فيتمدد غيظها حمم بركان منصهرة، ويضج سكون البيت بصراخها الصامت المزلزل.

ما إن غادرت أختها المنزل حتى توجهت إلى غرفة والدها. فتحت بابها بقوة ونظرت في كل اتجاه ثم راحت ترمي بمحتويات الغرفة في كل مكان، وتضرب الجدران بالكتب والأقلام والأسطوانات المدمجة وكل ما وصلت إليه يداها، جاءت بمطرقة كبيرة وراحت تحطم مكتبه بكل ما أوتيت من قوة إلى أن تكسر أجزاء، وكذا فعلت بكرسيه ونظاراته وأشيائه. طالت ثيابه من الخزانة ومزقتها إرباً، وأخرجت بعضاً منها إلى الشرفة وأضرمت النار فيها، ووقفت ترقبها إلى أن أصبحت رماداً هشيماً. حولت الغرفة إلى ساحة حرب وأعلنت انتصارها. كانت تقتص من بقاياه وتطمس وجوده الراحل بتحويله إلى ركام ورماد. أرادت أن تصلبه على صفحات أسطورة مخيفة تتربع على هامش الحياة وتتحدث عن الجنون والدنس والتعذيب والقيود، وتستحضر منها صراعاً بين الخير والشر. كانت تريد للآخرين أن يفكروا كما تفكر. إنها الضد في كل شيء منشطرة إلى جزئين، إلى نفسين

متلاطمتين، الأولى حزينة محطمة ثائرة والأخرى وديعة مسالمة. لن تعتذر نفسها الأولى، وليدة العواصف والنقمة والتقيح الروحي، من نفسها الثانية. تصرخ في وجه مرآتها "جوديا أنت عظمتي وقدرتي وأنت غريمتي وجهنمي". يتناسل الحقد في أصقاعها، كما تناسل البشر والحيوانات. تحمِّل المعاني والأحداث على ركيزة التأويل إلى أحداث الماضي بعنفوانها وفوضاها، وكأنها تحدث اليوم. تعبث بأوراق حياتها وتقلبها ورقة ورقة ثم تحرقها الواحدة تلو الأخرى بلا رحمة.

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بقوة وغادرت المنزل إلى الجامعة.

هناك، وعند الباب الفرعي المؤدي إلى داخل الكلية التَقَتْني. وقفنا وجهاً لوجه، عيناي تتفحصانها بقوة وعيناها تحدقان في وجهي تنبثق منهما سموم ترديني وتفتتني أجزاء. لم ينبس أي منا بكلمة. بل مرت الدقائق ونحن واقفان دون حراك. ما الذي يمكن لي أن أفعله أو أقوله في مثل هذه اللحظة. وجدت نفسي أقول فجأة "سأجعلهم يكتشفونكِ.. سأجعلهم يعرفون حقيقتك.. ".

فإذا بها تجيب بعينين ازدادتا اتساعاً "سأجعلك تموت، يا نمير، قبل أن تفعل.. ".

دخلنا قاعة المحاضرات، ولا يزال كل منا ينظر بطرف عينه إلى الآخر. كنتُ أدرك أن بإمكانها قتلي وأن حياتي أصبحت فعلياً في خطر، وتعجبتُ لحالي كيف يمكن أن تتحول الفتاة التي أحب وخفق قلبي لها إلى تنين ينفث النيران في كل اتجاه.

تحلَّق عدد من الطلاب حول جواد وعبير مهنئين ومباركين بعد أن أعلنا خطبتهما ونيتهما الزواج. كان الجميع في السنة الأخيرة من دراستهم الجامعية في تلك المرحلة.

قرار جواد جاء مفاجئاً وهو الذي عُرف بعشقه لجوديا، وكنت أنا أتساءل فيما إذا كانت مشاعره تجاهها قد تبددت ودخل مرحلة النسيان، أم أنه يكابر ويجد في عبير سلواناً لنفسه علَّه يبرأ من ذلك المرض الذي كان يسميه الحب المستحيل. لم يكن أحد يعرف سبب هذه الخطوة المفاجئة، ولكنني كنت متأكداً أن جواداً لا يحمل أية عواطف لعبير وأن زواجه منها إنما هو هروب إلى الأمام بعد يأس وإحباط شديدين. ولم أكن أدرك كيف يمكن أن تقبل عبير بمثل هذا الزواج وهي التي عرفت وسمعت عن عشق جواد لجوديا على مدى السنتين الماضيتين.

كانت جوديا جالسة في مقعدها تنظر بطرف عينها إلى المجموعة إلى أن ناداها همام قائلاً "جوديا.. أو لن تباركي للخطيبين؟".

تأمَّلتْهما جوديا من بعيد وأحستْ أن ضحكة جواد لم تكن من أعماقه، ثم تحولتْ إلى عبير فرأت فرحاً وبهجة داخل عينيها السوداوين الصغيرتين وهي تلتفت إلى المهنئين، عن يمينها ويسارها، وشعرها الأسود الطويل يتأرجح حول وجهها الأبيض، كما الليل يغازل الضوء قبل انتشاره. نهضت جوديا من مكانها وتوجهت إلى الجمع لتصافح العروسين وتهنئهما وأنا أتابعها بعيني وقد سقط قلبي في قدمي. كانت طاقتها كثيفة بذبذبات شديدة الاهتزاز، ونظرتها ثاقبة تخترق عبير وتفتتها أجزاء دون أن يدري أحد بما أرى أو أعرف. كنت أقول لنفسي "يا إلهي، هل

جاء الدور على عبير؟ هل ستكون عبير الضحية القادمة؟ ماذا أفعل كيف يمكن لي أن أمنع ما يمكن أن يحدث في ليلة عرس قادمة؟ مسكينة عبير لا تعرف ما قد ينتظرها.. يجب أن أتصرف.. يجب أن أفعل شيئاً..".

لكن عبير نجت وعاشت وأنجبت، فالأحداث ستسير مستقبلاً في اتجاه دراماتيكي ومعاكس تماماً لما فكرتُ به وما خشيت منه.

في قادم الأيام ومع انتهاء السنة الأخيرة من الجامعة تم الزواج، وبعد نحو ثمانية عشر شهراً تم الطلاق. جاءت عبير في يوم تقول لجواد "علاقتنا ميتة.. لا يمكن أن نستمر هكذا.. " وغادرت في نفس الليلة وطلبت الطلاق. بقي جواد وحيداً عازفاً عن الزواج حتى اليوم. وبعد نحو سنتين تزوجت عبير من رؤوف الرجل الذي أحبها كثيراً ولم تكن تحمل له نفس المشاعر. كان بديناً وطيباً ويعمل مشرفاً في قسم الصيانة بمؤسسة الكهرباء. كانت عبير تردد "من الأفضل أن تتزوج المرأة الرجل الذي يحبها، لا الرجل الذي تحبه". استمر الزواج وكانت ثمرته طفلين.

غادرتْ جوديا الكلية بعد انتهاء المحاضرة وتوجهتْ لقيادة سيارتها الصغيرة والجديدة التي اقتنتها مؤخراً، رأيتها وأنا في طريقي إلى سيارتي أيضاً في المرآب. لم أكن أعرف أنها اقتنت سيارة، ولم يخطر لي هذا الأمر على بال. رأتني، وسرعان ما انعطفت بسيارتها بقوة إلى الجهة التي كنت أسير فيها، وأطلقت العنان لها لتنطلق بالسرعة القصوى نحوي. ذهلتُ وأنا أرى السيارة فجأة قادمة باتجاهي، ولم أعد أدري ما أفعل. وعندما كانت قاب قوسين أو أدنى مني، قفزتُ إلى الرصيف الضيق الذي أوقفت سيارتي قريباً منه، واختبأتُ خلفها لأتفادى الدهس. دارت سيارتها

في مكانها مرتين، وصوت العجلات تجحف الأرض بقوة قبل أن تعود وتنطلق باتجاهي ثانية عندما هممت بركوب سيارتي، ما أجبرني على القفز ثانية إلى الرصيف والاختباء خلفها مجدداً، مرتجف الأوصال محاولاً التشبث بوجودي الذي بدا في تلك اللحظات زئبقياً هلامياً يكاد يفلت من بين يدي. قامت جوديا بمحاولة أخرى لدهسي، وفشلت للمرة الثالثة إلى أن رأيتُها تتوجه خارج المرآب، وغادرت مبتعدة عن المكان، فشعرتُ بارتياح، رغم أن خفقات قلبي تحولت إلى طبول تضرب في رأسي بإيقاع متسارع كاد يفقدني الوعي. جلست في سيارتي محاولاً أن أستجمع قواي وأعصابي التي أصبحت أشبه بخيطان فالتة. توجهتُ إلى البيت وما إن صرت داخله حتى تنفست الصعداء وأغلقت الباب بإحكام، وأنا أفكر بأن حياتي أصبحت على كف عفريت وعليّ أن أتصرف قبل أن تقع الفأس في الرأس ويُقضى عليَّ بيدي المرأة التي عشقتها.

لم تحضر جوديا إلى الكلية ليومين. في اليوم الثالث جئتُ متأخراً. رأيتها في المرسم منشغلة بالرسم كباقي الطلاب. لم تلتفت إليَّ، وقفتُ حائراً لا أدري ما ينتظرني، وقلبي مليء بالتوجس والخوف. انتهت ساعتا التدريس وغادرتُ الكلية مسرعاً. دخلتُ المرآب واستقليت سيارتي، إنما ولدهشتي رأيت سيارة جوديا خلفي تماماً. خرجتُ من المرآب وزدتُ من سرعتي متجاوزاً عدداً من السيارات لكنها سرعان ما لحقت بي وأصبحت ورائي تماماً. استمرتْ المطاردة لنحو نصف ساعة. أنا أحاول الهروب وجوديا في إثري. كنت أتجنب الشوارع الخالية من المارة وأدخل في وسط الازدحام المروري علها تضيّع أثري، إنما كانت تعثر

علي في كل مرة، إلى أن انعطفتُ بسيارتي فجأة إلى أحد الأزقة الضيقة ورحت أدور من حارة إلى أخرى، فضيعتني ولم أعد أراها خلفي. عدت بسيارتي إلى الشارع العام وقفلت راجعاً إلى بيتي.

كانت ساريا مستغرقة في النوم، عندما سمعتْ صوت نداءات بعيدة راحت تقترب تدريجياً، إلى أن استطاعت تمييزها، وسمعتْ اسم جوديا يردده الصدى في الليل. نهضتْ فزعة من سريرها وأضاءت المصباح، ونداءات في أذنيها كأنها تنبعث من الجدران. نداءات في كل مكان تصم أذنيها. إنه صوت أمها لكنه ليس صوتاً واحداً، إنه مجموعة أصوات تتفرق في أرجاء البيت وتعود لتتجمع في مكان واحد، في الطابق الأرضي. هبطتْ السلم مسرعة، وهناك وقفت مذهولة. رأت جوديا واقفة بالقرب من صورة أمها. رمقتها بنظرة حادة دون أن تنبس بكلمة، وصعدت السلم بلمح البصر ودخلت غرفتها وأغلقت الباب. وقفت ساريا حائرة. حاولت أن تقول شيئاً لكنها عجزت "إذن ما كان يراه أبي حقيقة. لم يكن وهماً.. كان يرى جوديا فعلاً في الصالة وكان يسمع صوت أمي في الليالي تنادي جوديا.. يا إلهي ما الذي يحدث؟ وكيف؟ ولماذا بدت جوديا ساهمة، خارج الوعي، لا تنظر ولا تتكلم؟".

تكاد تُجن. هرعتْ إلى الطابق العلوي واتجهت إلى غرفة جوديا ونقرت الباب مرات عديدة، إنما ما من مجيب. حاولت فتح الباب فوجدته موصداً. نادت جوديا ولم يأتها رد. عادت إلى غرفتها ببطء، وأوتار تشد عقلها في كل اتجاه. تدثرت بغطائها وقشعريرة تسري في أوصالها وكأنها في أجواء سيبيريا القارصة،

راحت تنظر حولها بخوف استلب نومها لفترة طويلة من الليل. وعندما قهرها سلطان النوم قبيل الفجر، رأت فيما يراه النائم طوفاناً يكاد يبتلعها. كانت تجري بأقصى سرعتها والمياه في إثرها تكاد تغرقها، تركض لاهثة تلتفت إلى الخلف فترى الطوفان يتقدم. فجأة انحسرت المياه ورأت جوديا واقفة أمام سريرها في شبه العتمة. اقتربت بوجهها منها كثيراً تنظر إليها بعينين مخيفتين. حدقت ساريا في وجه أختها، وعقلها تائه يحاول العودة إلى الجسد عبر صدمات كهربائية متتالية دون جدوى. كان جسدها مشلولاً تماماً.. عاجزاً عن الحركة.. فجأة أصبح جسد جوديا فوقها.. أحست بثقله وحاولت دفعه بعيداً عنها فلم تستطع.. كانت مستيقظة لكنها غير قادرة على الحركة.. تحاول مدَّ يدها.. تحاول تحريك رأسها بجهد كبير دون فائدة.. تحاول أن تصرخ.. الصراخ ضائع ومكبوت يزيد من عذابها.. وفي خضم بلبلة هذا الصراع الجسدي، تباطأ تنفسها تدريجياً حتى كاد يتوقف، فنهضت مذعورة تشهق بصوت قوي لتسترد أنفاسها. تلفتت حولها بفزع إلى كل ركن من الغرفة. لم يكن هناك شيء في المكان سوى السكون. كان كابوساً مخيفاً. وضعت رأسها على الوسادة من جديد، ولم يغمض لها جفن حتى بزوغ الشمس.

أسرعت مع الصباح لارتداء ملابسها وهبطت السلم متعجلة رؤية جوديا. وجدتها في المطبخ تشرب كأساً من الحليب، كعادتها، فقذفتها بوابل من الأسئلة عما كان يجري في منتصف الليل، والأصوات التي كانت تتردد وما الذي كانت تفعله في الصالة.

نظرت إليها جوديا طويلاً قبل أن تجيب إنه لم يكن هناك أي أصوات ولا تدري عن أي شيء تتحدث.

فقالت ساريا بعصبية "جوديا، لا تسببي لي لوثة في عقلي.. كنتِ هناك في الصالة.. وكنتُ أسمع صوتاً يشبه صوت أمي تناديك.. وهل أنا غافلة عنه؟".

اتهمت جوديا أختها بأنها تهذي أو كانت نصف نائمة وتردد نفس الترهات التي كان فريد يرددها، وأن هناك أوهاماً تعشعش في رأسها.

فصرخت ساريا ودموع اندفعت إلى عينيها "لا ليست أوهاماً.. بل حقيقة.. كفاك نكراناً.. مسكين أبي.. كان كل ما يراه حقيقة وكنا نتهمه بالجنون.. كنا نقسو عليه ولا نصدقه.. كنتُ حمقاء مغفلة.. كيف تفعلين بنا هذا يا جوديا كيف؟ ولمَ تفعلينه؟ هيا قولي.. لم أعد أستطيع تحملك.. ".

لم تعد جوديا تنظر إلى أختها، بل حملت حقيبتها وفتحت باب البيت وهي تقول "كفاك جنوناً يا ساريا". توجهت إلى سيارتها، ووقفت ساريا حائرة عند الباب لا تدري أتدخل إلى البيت أم تخرج منه إلى غير ما رجعة. كان عقلها مشتتاً بين تأنيب الضمير لعدم تصديقها ما كان يحدث لوالدها، وبين مجافاة النوم لها لليلة كاملة والكابوس الذي لا تزال تحت تأثيره.

"إنها لعنة مجنونة وخبيثة تلك التي حلَّت على هذا البيت وساكنيه. تحولتُ إلى إنسانة متطيرة هستيرية تلاحقها اللعنة.. هل جننتُ أنا أيضاً؟ إنني أضعف من أتحمل فكرة أن أختي فيها مسٌ شيطاني.. لعنة من حلَّت علينا؟ هل اللعنة تأخذنا إلى الموت؟ فلتسقط اللعنة على جسدكَ وأرضك.. لترَ أقرب الناس إليك

شياطين في عينيك.. فلتنسك الرحمة.. وليمسسك الضر.. وليمس أولادك.. لتلاحق لعنة الوالدين أولادهما.. هو ذلك الوهم الذي عشتُه.. ظننتُ أن أمي وأبي عصيَّان عليك أيها الموت.. الانتحار يقود إلى جهنم.. الجلادون.. الظالمون.. المنافقون.. هم في قعرها.. في أقصى درجات العذاب.. فرعون.. ستالين لينين هتلر موسوليني.. تيمورلينك.. كل الطغاة هناك.. كلما حاولتَ الخروج تدفعك الشياطين إلى الخلف فتعود إلى السائل المغلي المنصهر وتذوب عناصر جسدك الذي ارتكب الخطيئة والإثم.. تتعذب نفساً وجسداً عذاباً أبدياً لا خروج منه.. الشياطين لا تعرف سوى الشر.. جوديا هي الشيطان.. غرفة جوديا.. الجماجم والأقنعة.. الوشوم.. التعويذات.. الرسومات القبيحة من حولي.. شياطين تحمل اللعنة.. "

تهرع ساريا إلى النافذة وتحملق بالطبيعة المسترخية بعيداً، فتلفح الريح وجهها بقوة.

"هناك روح تجوب هذا المكان أو قوة أو سحر يتأتى من تلك الجبال، من الكهوف المظلمة وربما من أسارير البحر. تلك الوديان العميقة الغامضة غاضبة منا، تلقي بسخطها فوقنا.. نحن من أيقظ إغفاءها الأبدي بآثامنا وفسادنا.. نحن من شوَّه اخضرار مروجها بالإسمنت والحجارة.. نحن من لوثنا هواءها بعفننا وسوادنا.. نحن سكاكين حقد تنغرز عميقاً في أحشائها.. إنها غاضبة، وغضبها وجوم الوجوه في ماجرسان وتعاسة النفوس وغياب الفرح. حلَّت عليهم اللعنة في الحلِّ والترحال، في الوطن والمهجر، وتركتهم منغرسين أوتاد حزن عقيم في ثنايا الجبال. تعساء.. حاضرهم يتخبط ما بين ماضيهم ومستقبلهم.. يعيدون

أنفسهم.. لا فائدة.. كيف لي أن أصدق ما يحدث.. هذا الأمر خارج عن العقل.. لا أصدقه.. لو بقيتُ أقنع عقلي بوجود لعنة في بيتنا، فستحدث. العقل هو كل شيء ونحن نتاج عقلنا.. نحن عقلنا ولا شيء آخر. يجب ألا أفكر هكذا.. يجب أن أهدِّئ من روعي وأطلق روحي لتغنِّي: ربَّاه، أنت نوري ومخلصي، هبني من لدنك رحمة تنجيني.. لا تدعني أسيرة أوهامي، أمشي تائهة على غير هدى.. اضفِ عليّ من نورك الأبدي لأرى طريقي.. لا تتركني أواصل المشوار مع العميان والتائهين".

الفصل الثالث عشر

لم تعد ساريا تدري أهي التي تسوق الأيام أم أن الأيام تسوقها! أهي التي أصابها مسٌ أم أن الزمن هو المجنون! كانت كمن يسير في نومه، وإذا بالحياة تصفعها بكف الخداع والتشفي فتستفيق؟ لسعتها بقوة فغرقت في أوجاعها. تمسح بيديها غبار الأيام وتفرك أرضية الوجود بكل ما لديها من منظفات علَّه ينكشف عن مساحات نظيفة هانئة. تُرى هل تعاقبها الحياة؟ ولكن عن أي شيء؟ هل أخطأتْ إذ تفكر بالارتباط فيما أصابت جوديا؟ كل ما تعرفه أنها قابلت الأشياء ببساطة، فإذا بها تتعقد وتتشابك وتخفي عنها شكلها الحقيقي خلف غبش انتشر في كل مكان. راحت تبحث عن الوجه الآخر لذاتها، علها تجد طريقاً للوئام مع الناس والظروف والزمن. ويبدو أنها فشلت.

تطفو على سطح ذاكرتها طفلة تطفئ الشموع في عيد ميلادها وتهمس لنفسها بأمنيات، وجوديا تزاحمها وتدفعها ليكون لها نصيب في إطفاء شمعة أو اثنتين فتتركها تحقق رغبتها بحماس وطيبة خاطر. تذكر عندما كانت تنفخ فقاعات في الهواء من ثقب عصا صغيرة، فيحلق قلبها معها كلما ارتفعت في المدى وتتطاول جوديا لالتقاطها وفرقعتها وهما تضحكان وكأنهما طالتا السماء. تتذكر كيف كانت جوديا تترك فقاعة تستقر على كفها وتتأمل شفافيتها طويلاً، ثم تقول مبتسمة إنها ستنزلق داخل إحداها يوماً لتحملها إلى الفضاء وإنها ستصطحب أمها وساريا فقط. كانت

تحس أختها هلامية شفافة تتوق للانعتاق. كانت جوديا تضع شال أمها على كتفيها وتقفز إلى الأعلى من فوق كنبة قائلة:

"أنا البنت الخارقة.. كل شيء حيكون تحت أمري لأني بقدر طير.. بدي خوِّف أبي متل مابيخوفنا".

فتضحك ساريا وتشرد في عقلها الطفولي متسائلة كيف يمكنها أن تفعل! تذكر كيف كانت جوديا تصنع طائرات ورقية وترسم عليها أشكالاً غريبة وتطيِّرها بخيط إلى الأعلى في الحديقة ثم تصرخ "تعالي يا ماما.. تعالي يا ساريا.. بدنا نركب الطيارة ونهرب من هون.. رح نشوف الأرض من فوق.. من السماء، وبالليل رح نشوف النجوم وننزل على واحدة منها.. ".

ثم تسأل أمها "ماما.. لو نزلنا فوق نجمة صغيرة يمكن تهتز وتوقع فينا؟".

فتجيبها أمي "لا.. هي ثابتة يا جوديا.. ما بتتحرك".

"شوفي ماما.. هي بتلمع وتبرق دائماً.. معناها رح نعيش بالضو على طول يعني ما في ليل.. مو هيك؟".

"لا يا جوديا.. يمكن هي كوكب متل الأرض.. فيها ليل ونهار".

يكسو الحزن وجه جوديا وهي تقول "لا.. لا ما بدي تكون النجمة متل الأرض.. ليش هي متل الأرض؟ ما بدي روح عالنجمة لكان.. ".

وتسحب طائرتها الورقية ببطء وهي تشعر بخيبة الأمل. كانت تتوق لعالم آخر مختلف.

تذكر ساريا كيف كانت تتخلى طواعية عن لعبة أحبتها جوديا، لكي لا ترى دمعة في عينها. كانت تعتبرها كائناً خاصاً مختلفاً.

ما الذي حدث؟ أين هي تلك الأمنيات والضحكات؟ أين هما هاتان الطفلتان؟ لمَ تغيرَ كل شيء على نحو دراماتيكي صادم، لم تكن تتصوره يوماً؟ لمَ ترى جوديا اليوم روحاً مكسورة مهشمة، فقدت شكلها ولم يبق منها سوى حواف مدببة تدمي الآخرين؟ يتردد في قلبها وعقلها صوت أغنيات تستدعي البكاء، وصور ذكريات طفولية ملونة. واليوم تجد نفسها تعاني وحدها فقدان أمها وأبيها اللذين قدَّما استقالتهما للحياة هروباً إلى وجود آخر يستوطنه سكون الأرواح، وربما إلى زمن انعتاق مجازي يركن إلى ضفاف رقيقة، على هامش حقيقة موجعة انقرضت فيها صفات البشرية وتشرَّد أهلها في مجاهل الخصام والغضب والاقتتال، فغرقا معاً في بحور الرفض لوجودهما. فيما جوديا ماضية ترقص رقصة النار وتمتطي خيول الجموح مع ولادة كل فجر.

جاءتا إلى الحياة طفلتين جميلتين تعانقان الكون كله وكأنه ساحة لهما وحدهما تلعبان بها، تحتضنان الحياة بلهفة وإذا بالحياة تبتلعهما معاً. كل شيء تلاشى عدا الخوف والشكوك التي باتت قيداً يجبرهما على التخلي عن كل ما كان جميلاً. إنه الخوف من الحياة الذي لم تتوقف ساريا عن منعه من إيقافها، إلى أن وصلت إلى نقطة اللاتقدم واللاتراجع. لم تعد تسمع تلك الأصوات التي تناهت إليها مرة في الليل، وراحت تتساءل فيما إذا كانت وهماً أم حقيقة. رأت جوديا على الجانب الآخر تواصل حياتها بصمت. كانت تذهب إلى الكلية وتعود إلى البيت بقسمات جامدة لا حياة فيها. أهملت نفسها واكتفت غالباً بارتداء ملابس رياضية فضفاضة، بشعر معقوص إلى الخلف ووجه خالٍ من أية زينة، ونظارات كبيرة أخفت عينيها ومعالم وجهها. قضت جلَّ وقتها

خارج المنزل أو منزوية في غرفتها تتفاعل مع ريش الرسم. تنهال بالألوان على اللوحات وترشقها بالأخضر والأحمر بعصبية هنا، وتبعثر الأصفر والأزرق هناك، إلى ما لا نهاية. كانت الأختان تجتمعان عند العشاء، والحديث بينهما فارغ من أي معنى. وكثيراً ما سألتها ساريا فيما إذا كانت غاضبة منها، فتجيب "لا لست غاضبة من أي شيء" أو "أنا على ما يرام. أنتِ اخترتِ طريقك ولا شأن لي في ذلك". لكن ساريا لم ترتح يوماً لهذا الجواب، بل أحست أنه عقوبة تسلخ جلدها، وأنها تصارع لغزاً لا تملك مفتاحاً لحلِّه. تستجدي مواصلة الأخوة عبثاً وتحارب في الفراغ.

فجأة قررت أن تغير كل شيء، وأن تنحرف بقلبها ومشاعرها لتعود من حيث بدأت. لقد هُزم انتصارها. ليس لها أن تنتهك ذلك القانون الذي اختطته وجوديا منذ زمن بعيد "لا رجال في حياتهما" والخروج عن هذا القانون يعني الدمار. ليس لها أن تنكث بهذا الوعد. تحمل لافتة على صدرها "أنا أنثى يتيمة ووفية أحرقت عالم الذكور".

التقت وائلاً في المكتب، قالت "وائل، يجب أن ننسى كل شيء.. يجب أن ننهي هذا الأمر.. لا أستطيع الزواج منك.. سأطلب نقلي الى مكتب آخر.. آسفة ليس في يدي ما أقدر على فعله.. سامحني.. ".

تركته واجماً حائراً وغادرت مسرعة. لحق بها محاولاً إيقافها، لكنها لم تشأ أن تصغي إليه. حثَّت الخطى دون أن تلفت. وقف ساهماً في أسفل المبنى ينظر إليها تبتعد. كانت تتجاوز الناس، وتصطدم بأحدهم دون أن ترى وجهه أو تعتذر، وتقطع الشارع

دون أن تأبه لخطر السيارات القادمة. كانت الرياح القوية تعبث بشعرها بشراسة، والدموع في عينيها غيوم تعتصر أمطارها، إلى أن وصلت إلى المكان الذي تركن فيه سيارتها، فانطلقت بها باكية "صلبنا على جدران الماضي.. آلاف المحطات مغلقة لا يمكننا العبور.. جئنا من زمن له طعم الموت.. ذاك الرجل المنتظر عبثاً عند مفترق طريق يتراكم في أعماقي شوقاً وبعداً.. هم أبعدوني عنكَ.. هم يرسخونني وتداً في عمق الماضي لأفقد طريقي وهويتي.. أنا مثلك ظُلمتُ.. أنا مسلوبة الإرادة.. متشظية".

أخبرتْ جوديا أن كل شيء قد انتهى بينها وبين وائل، لكنها لم تلقَ أي رد فعل منها. وظل سؤال واحد في ذهنها "ماذا يدور في رأس جوديا؟".

كانت جوديا أغلب الوقت تتوجه بسيارتها من الكلية إلى أحياء فقيرة سقطت من ذاكرة الزمن لم ترها من قبل، تبحث عن أماكن متهمة ببقاء الانتماء، تنقلها إلى لوحاتها في البيت، ملحاً ومرارة ورفضاً ومتنفساً لاحتقان نفسي وروحي. تنظر من خلف نظارتها السوداء في الوجوه المارة وتغرق في بحر الصور. تتفحصها بعمق لترسم خطوطاً عامة لمسرحية الرصيف كما هو ديدنها، وهي جالسة في مقعد السيارة دون حراك.

صبي صغير جالس على حافة رصيف وأمامه صندوق لطلاء الأحذية. تعربشَ السوادُ فوق يديه وشقت الخشونة أخاديد لنفسها في طفولته. الطلاء الأسود تسلق وجنتيه الغضتين. عيناه تلاحقان الغادين والرائحين دون كلل. تسمعه يردد بصوت فقد حماسة الحياة، وهو يرفع الفرشاة الى الأعلى "بويا.. بويا..". تخرق كلمة "بويا" الحادة طبلتي أذنيها فتغدو قهقهة زمان يسخر من كل شيء.

تلاحق عيناها الزوايا. المجنون في كل مكان. يهرول على الرصيف، كما عادته، فيغدو نصباً تذكارياً للمكان والزمان والإنسان، والأطفال وراءه يصرخون بحماس "أبو حسون المجنون". يتلمس جسده وقفاه، ويدور حول نفسه ثم يدور برأسه إلى الخلف يريد أن يرى ظهره. يعجز فيتلمس مؤخرته بكفيه والأطفال يضحكون فيزيدونه استفزازاً، يلوح بالعصا ويتراجعون. انحنى عند عتبة محل وأخرج حجارة من سطله وراح يصفُّها خطاً واحداً على مهل ثم وضع قسماً منها فوق بعضها بعضاً وراح يصرخ "عمَّرت البيت.. عمَّرت البيت". اقترب منه طفل ورفس الحجارة بقدمه فتبعثرت في كل مكان. نهض المجنون يصرخ "قصفوا البيت.. قصفوا البيت" ثم هرول باكياً ومبتعداً.

رجل كهل يبيع أدوات خردة منخرط في جدل مع أحد المتسوقين محاولاً إقناعه بشراء آلة تسجيل صغيرة. صوته الأجش يقهر الضجيج، والرجل يحجم عن الشراء، فيقول له "لا تظن أنك ستجد مسجلاً أرخص.. هذا أرخص مني..". لكن الرجل مضى دون أن يلتفت إلى الوراء. على مسافة منهما جلست امرأة متسولة بأسمال بالية، تضع طفلاً في حضنها وتمد يدها إلى المارة. الطفل يحبو في الجوع والبكاء، يمرِّغه الرصيف بالتراب، وصوتها أضعف من نحولها يزحف في الهواء أنشودة لا تنتهي، علها تلمح بقايا إنسان "أعطوني من مال الله.. أعطوني يعطيكم الله". وعاؤها أمامها أضنته رحلة التعب والانتظار وبضع قروش يرميها الكادحون. عند منعطف، رجل وبضع صناديق تكدست فيها الخضراوات، وعدة أشخاص حوله تجمعوا للشراء. سيارة

شرطة تفرمل فجأة أمام الحشد ويترجل منها سريعاً شرطيان يحتجزان بعض الصناديق ويرفسان أحدها بأرجلهما، فتتبعثر حبات البندورة في كل اتجاه.. بداية يوم جديد وتاريخ جديد لخسارة بورصات الكادحين. وصرخات الجراح "حرام والله حرام.. لا تفعلوا بي هذا".. لم تخنه الذاكرة صاحب الحذاء الثقيل ينفِّذ بنعله حكم البشر "حذرناك من قبل ما توقف هون، لكنك حمار ما بتفهم، وكيف بدك تفهم وأنت بدون مخ.. المرة الجاية رح أرميك بالسجن.. فهمت؟".

تقفل جوديا راجعة إلى البيت محملة بأحزان الرصيف وأحزانها، ترنو إلى لوحتها ساهمة ثم تتناول الريشة وتبدأ بنثر الألوان تباعاً. يتلون وجهها بالسواد وتلهث متعبة الكتفين ومحدودبة الظهر مع ماسح الأحذية الصغير الذي غاب بجسمه الضئيل تحت صندوق طلاء ضخم يحمله على ظهره وينوء تحت ثقله. تهرول مع المجنون ضاحكاً يحمل بيتاً يهدهده بين ذراعيه وديناصورات الحروب تبتلعهما معاً، وطائرات وقذائف وبيوت، وبائع الخردوات جالساً على الأرض وفمه آلة تسجيل وعيناه مصباحان مهترئان لا يخترقان الشرور ولا يجيدان الرؤية في زمن القحط والحرب، وأنفه مفك براغي لا يفكك شيئاً سوى طلاسم الفقر. المرأة المتسولة تحمل طفلها وتنظر باكية إلى شجرة عملاقة محملة بالتفاح لا تصل إليها. تقفز معها علها تصل وتلتقط واحدة دون جدوى تبكي المرأة وتبكيان. يموت طفلها فتشيعانه معاً، ولا تزالان تنتحبان معاً. وبائع الخضار يركض فاغراً فاهه ومحملقاً بعينيه إلى الأعلى خلف صناديق خضراوات تحلق عالياً في الهواء، تحس بركلات العسكر في ظهرها وساقيها ويهوي

الشرطي على مؤخرة البائع بهراوته "اللعنة عليك أيها الشرطي.. اللعنة عليك". تركض معه في أرض على رصيف نبتت فوقه مسامير مدببة.

عادت في يوم إلى البيت لتفاجأ بوجود وائل في زيارة إلى ساريا، نهض يسلم عليها بحرارة فردت تحيته بفتور. جلست تنظر إليهما دون أن تنبس بكلمة. سألها وائل عن أحوالها، فهزت رأسها قائلة "تمام". انسحبت إلى غرفتها.

ساد صمت فقالت ساريا:

ـ لم أردكَ أن تأتي الى هنا يا وائل. لماذا أتيتَ؟ لا فائدة من أي حديث، لن تكون لهذا الحب نهاية سعيدة. لن تكون جوديا راضية حتى ولو تظاهرت بذلك. تمنتْ شيئاً آخر غير ما يحدث. وأنا لا أريد أن أكون سبباً في تعاستها.

فقال وائل:

ـ ساريا.. رسمتِ صورة حب جميلة في أعماقي وكتبتِ لي قصة شيقة عن الإخلاص والمشاعر واليوم تريدين الابتعاد وترتجين النسيان. لا أصدق ما يجري وأنا الذي لم أؤمن يوماً بالمشاعر ولا بالحب إذا بي أستجديه اليوم. أنت من أيقظ هذه الأحاسيس وحلق بي إلى عوالم لم أتخيلها يوماً.

ـ أنا عاجزة عن فعل شيء أو اتخاذ قرار.. أنا تائهة.

ـ لا تتركي أحداً يصنع لك حياتك. لا يحق لجوديا أن تتحكم بحياتنا؟ ابعدي كل هذا التشويش عن ذهنك، وواصلي ما دمت مقتنعة بما تقومين به.

ـ أتخيل أحياناً أن ماضينا هو الذي فقط يصنع حاضرنا ومستقبلنا، ولن يترك لنا خياراً لنصيغ شكل أيامنا القادمة.

ـ لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام، يا ساريا.. الماضي انتهى بكل أحداثه وظروفه وليس له أن يتحكم بالحاضر. كوني قوية وثبتي أقدامك على المسار الذي اخترته دون تردد. لم أعد أرى ابتسامتك الجميلة أو أسمع ضحكتك ترن في أذني كزقزقات العصافير. لم أعد أرى سوى تجهم وعبوس في ملامحك وذبول في محياك.. أين تلك الفرحة التي غمرتنا معاً عندما تعاهدنا على الحب والزواج؟ لمَ أراك مستسلمة لرفض جوديا القاسي؟ كفاك يا ساريا! جئتُ لكي نحدد على الفور موعد زواجنا دون أي تردد. دعيني أتحدث الى جوديا. يجب أن نضع النقاط على الحروف.

نهض فجأة وراح ينادي جوديا بشكل متواصل، وساريا تحاول ثنيه عن ذلك، إلى أن ظهرت جوديا في أعلى الدرج وسألته عما يجري، فطلب منها النزول للتحدث.

راح يشرح مدى حبه لساريا وبأنها أصبحت حياته كلها. وتوسل لجوديا ألاَّ تكون عقبة في طريقهما. قال إن ساريا تخشى غضبها وهي لن تقدم على هذا الزواج ما لم تكن راضية.

ظلت جوديا تنظر إليه دون أي تعبير على وجهها. فأردف قائلاً "لا يمكنك فرض قناعاتك وإرادتك على الآخرين فهذا مناقض للطبيعة والحياة.. وأنا أريد أن يتم هذا الزواج والجميع سعداء به ومستعدون له".

نقَّلت جوديا عينيها بين أختها ووائل، وأخيراً قالت "من قال إني أقف في وجه هذا الزواج. بل أنا سعيدة لكما".

فقالت ساريا "ولكن لا يبدو أنك كذلك.. بل أشعر أن كل شيء في حياتكِ انقلب رأساً على عقب منذ أن سمعتِ بهذا الزواج.. لا أريد أن أكون سبباً في تعاستك..".

فقالت جوديا "لا تضخمي الأمور.. إنك تبالغين. على العكس كل شيء على ما يرام، وأنا الآن منشغلة برسم بعض اللوحات. هذا كل ما في الأمر".

في الكلية لم أعد أرى من جوديا إلا القليل. كانت تتغيب عن معظم المحاضرات، وعندما تأتي تجلس صامتة منزوية دون تواصل مع الآخرين. تدوِّنُ أو ترسم أو تنحت بعينين ساهمتين ووجه شاحب ثم تغادر، وكأنها شبح طاف على المكان لبرهة ثم اختفى. لكن ذلك زاد من وساوسي التي لم تتوقف لحظة. توجهتُ للقاء وائل وسألته كيف تتطور الأمور، فأبلغني أنه وساريا قررا الزواج خلال أسبوعين، وأن جوديا لن تقف عائقاً. فقلت "يجب أن تكونا حذرين، لا يمكن لنا أن نتكهن كيف ستكون ردة فعل جوديا في ذلك اليوم. قد ترتكب عملاً جنونياً".

أجابني وائل "الحذر واجب.. ولكن يتهيأ لي أنك تسبغ عليها صفات ليست موجودة فعلاً. قد تكون جوديا تحمل عقداً، ولكن لا يمكن أن تصل إلى حد القتل. أحس أحياناً أنك تحمل عليها لأنها لم تستجب لك.. ". سكت قليلاً ثم أردف "لربما خذلتك عاطفياً أو جنسياً، يا نمير، ولم تستجب لعلاقة معك".

انتفضتُ وقلت بلهجة غاضبة "هل جننتَ؟ كيف يمكنك أن تطلق مثل هذه الأحكام جزافاً. قلت لك إنها حاولت قتلي.. إنها تملك قدرات غير طبيعية ويمكنها أن تقتل. ألم تحاول أن تقتل نفسها وساريا في السيارة في ذلك اليوم وها أنت تشكك فيما أقول ولا تزال غير مصدق لما أخبرتك به".

فقال "جوديا.. قد تقتل، هذا احتمال.. ولكن أن تمتلك قدرات فوق طبيعية، كلا. هذا منطق لا يقبله العقل السليم. ومع ذلك

أستبعدُ تماماً أن تقدم جوديا الفتاة الرقيقة والجميلة على ارتكاب جريمة قتل. ربما كان ما قامت به نتيجة ثورة غضب وصلت إلى حد التهور".

سكت وائل قليلاً وهو ينظر في وجهي مستكشفاً نظرتي الحادة ثم أردف "حسن، سأحذر ساريا من احتمالات قيام جوديا بعمل غير متوقع. ولكن في نهاية الأمر أنا لا أؤمن بإمكانية وجود ما هو غير طبيعي".

غادر وائل يتساءل في عقله عن سبب تلك الحوادث التي وقعت. قد يكون ما حدث نوع من الوهم أو الخداع أو بمحض الصدفة. نمير يعلن أن جوديا تمتلك قدرات غير طبيعية. إن من يعلن عن شيء عليه إثباته. لا يمكن أن تكون أنت نفسك في كائنين. كائن موجود هنا وآخر موجود هناك. لا يمكنك أن تنفصل عن جسدك وتنظر إليه من خارجه وأنت بعيد. لا يمكنك أن تُخرج عينكَ من محجرها وتعيدها ثانية متى شئت. لا يمكنك أن تخلع ذراعك من كتفك وتضعها جانباً ثم ترجعها. أنت محدود بوجودك وقدرتك وإمكانياتك كما حدود الأرض، وأي شيء سوى هذا هو ضرب من الخيال. الطبيعة تخضع لنظام ثابت هو أساس أي قانون علمي ورفضه هو إلغاء للعقل وللعلم. العلم حتمي لا يقبل الشك أو الاحتمال. كل ما يتعارض مع الواقع الثابت وليس له مبرر عقلي هو خرافة. ربما كان نمير يحتمي خلف ما يسميه ظاهرة غير طبيعية ليطمئن نفسه أو يرضيها أو ليحصل على الأمن الداخلي. لو كانت جوديا تمتلك قدرات خارقة لاستطاعت إظهارها متى شاءت أو شئنا، لكننا لم نر شيئاً من هذا القبيل.

توقف حديث وائل الداخلي برهة لكنه عاد للتساؤل في أن الحتمية المطلقة تغلق باب الشك والاحتمال أمامنا. يجب ألاَّ نغلق باب الاحتمال. فمثلاً حدوث كسوف في الشمس أو خسوف في القمر مرة هو ظاهرة غير طبيعية لا ينفيها أو يدحضها عدم تمكننا من معرفة متى تحدث هذه الظاهرة ثانية. وإذن لو أن نمير شهد مرة حادثة غريبة في علاقته مع جوديا لا ينفي حدوثها عدم تكرارها في الوقت الذي نريده. شيء يدعو للحيرة.. ".

الفصل الرابع عشر والأخير

بدأت الاستعدادات لزفاف ساريا ووائل. الأفكار السيئة لا تتوقف عن التداعي إلى عقلي كصخور تتدحرج بقوة من قمة جبل. أرشف الحيرة والذهول في فنجان قهوتي في الصباح، وفي قعره يرتسم وجه جوديا بين بقايا حبيبات البن المشوشة. لا أنفطم عن هلع يتلوى في أوصالي. متوحد مع نعيق الشك والارتياب كأغنية مملة يرددها عقلي باستمرار. كيف لي أن أخلع عينيها الغازيتين من نفسي وهما تلتهماني كلاً وأجزاء. أغطي رأسي بوسادتي هرباً من أعاصيرها القادمة نحو مساء زفاف. ليس لي أن أنتزع صفحتها وأمضي ممتطياً صهوة النسيان نحو حياة من دون آثار. لقد فات الأوان.

التوجس في عقل ساريا والهواجس تشوه فرحها أيضاً، ووائل لا يمكنه سوى أن يكون هو. كومبيوتره العقلي يدخل البيانات والأفكار، يحصيها ويصنفها ويعالجها، ليحصل على نتائج منطقية وعقلية. وما ذكرتُه له قد يدخل في متاهات الخيال العلمي الذي لا يمكن أن يحدث أو يمكن أن يحدث في أزمنة مستقبلية نتخيلها. يراه انزياحاً نحو اللامنطق الذي يؤمن برؤى صيغت بخيال اللامألوف أو ما يحيد عن المعقول والمعهود والتفسير. كل البيانات والعمليات الحسابية التي أدخلها وائل إلى كومبيوتره، أعطت نتائج تقول إنها ظاهرة تنافي قوانين العقل والمسلمات البديهية وهو لن يقبل بها إطلاقاً.

وأما جوديا، فظلت على حالها، تغرق في الألوان، وتنحت دون توقف شخوصاً داخل حكايا الرصيف في الأحياء الفقيرة. تسرد الزوايا والظلال داخل الأوراق، وتضفي الغرابة والغربة على الأشكال والمجسمات المستعادة في ذاكرتها الصاخبة، فيتدفق اللامتوقع صادماً. ازدادت صمتاً ونحولاً. احتضن وجهها ديمومة شحوب لفظ حيويتها وعنفوانها. وكل ما سمعته ساريا منها ترديدها "لا أريد أن يكون نمير ضمن المدعوين". وافقت ساريا على هذا الطلب، فازدادت الشكوك في عقلي.

في قاعة الزفاف، اضطجعت الورود والأزاهير في سلالها وعلى أقواسها تعانق الأضواء، وترسم لوحات ملونة تطمس الليل المعتم والطرق المقفرة والوجع القديم، وتكتب صفحات جديدة ليس فيها علامات استفهام وهوامش باردة.

توافد قليل من المدعوين، وكان بينهم السامري وزوجته وابنه عصام. ثم جاء مروان، بدا شاحباً غادرته الضحكة والراحة منذ أن رأى حبيبته ناهد مسجاة ميتة في حفل زفافهما. تبدلت حياته وفقد الحماسة لكل شيء. لم يعد طلاب كلية الفنون يرون ضحكته وفكاهته. ما أبرع القدر في تغيير الحياة والأنفس! خط آثاره جروحاً عميقة نازفة يصعب شفاؤها ومضى تاركاً للزمن مهمة النسيان. موتها أدمى روحه. في ليلة زفافها كانت عروساً تزف إلى الموت. رآها ترقد مسجاة في أحضانه مستسلمة لسلطانه. كان الموت بعباءته السوداء ينتظرها في تلك الغرفة المشؤومة. لا يزال يذكر تلك اللحظات الرهيبة، ساعة ضجت طبول الألم في أذنيه وسمع قرعها داخل روحه ورأى أشباحاً ترقص حوله. بعد أن اختطفها الموت وطار بها أحس أن الحياة توقفت ولا يمكن له

أن يواصل، تلك اللوحات والرسومات التي تحمل وجهها تهاجمه في ليالي الأرق فيغرق في شجونها. كم تمنى الموت حينها. إنما صحا فجأة في يوم على صورة بلاد الموت تقفز أمام عينيه. هناك حيث يقتل الناس كل يوم، حيث تشتم رائحة الموت في كل مكان، حيث صورة الأب يفقد كل أفراد عائلته دفعة واحدة في لحظة واحدة ويبتلعهم الركام، ويقف أمام الكاميرات حاملاً جسد طفلته بثوبها الوردي من دون رأس، حيث الأحياء يستعدون لدورهم في الموت وهم يَسحبون من الأنقاض الأم تضم وليدها إلى صدرها تمثالاً ترابياً صنع من الهشيم بإتقان، حيث الأرض مجرد قبور، حيث المجاعة والقحط والبطون الخاوية والأطفال يتقيؤون خيوطاً من اللعاب.

يضع وجهه بين كفيه وهو جالس على طرف سريره وينتحب طويلاً. صورة ناهد المسجاة تنادي صور الموت كلها لتتجمع حوله. كيف له أن ينسى؟ لماذا لا يموت ويرتاح؟

بعد أشهر عديدة بدأ بلسم النسيان يجفف جروحه وروحه المقرحة تدريجياً. هل يريد أن يموت حقاً؟ ابتعدت الفكرة. يتعجب من نفسه ويردد "عجيب هو الإنسان يحزن للموت ويعرف أنه سيموت إنما يستبعد أن يموت وأن الموت لن يطاله هو، بل يطال الآخرين، وأنه لن يسجى في ذلك الصندوق الخشبي الذي يحمله الآخرون ليرقد في مثواه الأخير. ليس الآن، على الأقل ليس الآن. تفكير وشعور مؤجلان يرفضهما العقل دائماً".

ذلك الحزن الذي يحمله مروان في قلبه تحول إلى نوع من الكآبة السمجة تستهلك أفكاره التي تدور كلها حول ذكرياته مع ناهد، الحبيبة التي خسرها، ولكن دون أن تستهلك حياته فعلياً.

ذلك الشعور حاضر دائماً، إنما على مسار منفصل عن مسار حياته اليومية. إنه حزين ويأكل، حزين ويحتفل، حزين ويدفع الفواتير، حزين ويذهب إلى المسرح، حزين ويقبل الدعوة إلى الزفاف. لم يحضر زفافاً منذ موتها. عجيبة وغريبة تلك النفس. "نرتب مآسينا كل على مسار لكي نواصل.. ليس هناك حزن صحيح وحزن خطأ.. إنه ألم الشعور الذي نشترك فيه جميعاً ويشفيه الزمن.. الحياة مثل السفينة الدوارة تتحرك صعوداً هبوطاً دون توقف.. ويمكن لي اليوم أن أجمع كل ذلك الحزن في حقيبة وأضعها جانباً في زاوية من ذاكرتي لكي أتحرك قدماً.. ".

قدم إلى حفل الزفاف وترك حقيبة أحزانه في البيت بعد إصرار من ساريا التي شهدت لوعته وتأثرت بها كثيراً. كل شيء سيذكره بناهد. جوديا، ساريا، المدعوون والأضواء والورود، الأنغام. هل ستنفتح حقيبة الأحزان في هذا اليوم؟

جالت أبصار المدعوين الثريات الفخمة والزينات، وشنفت أسماعهم موسيقى هادئة تنبعث من الزوايا، فحطَّت في صدورهم رضاً وابتسامات.

وفي البيت، وقبل التوجه إلى صالة الزفاف، بدت ساريا بثوب زفافها، وأكليل الزهور الأبيض يزين شعرها، ووشاحها المنسدل خلفها، مثل حلم جميل يتسلل إلى ذاكرة طفل، أو غيمة بيضاء تجول سماء الصيف وترخي براحة على الكون المستسلم لسُبات البياض المضيء والمتناثر، فتحلق الأرواح في مملكة الله تسبيحاً وحمداً.

ارتدت جوديا فستاناً أسود لامعاً كشف عن جزء من ظهرها وصدرها، زُيِّن بحزام فضي متلألئ وعقدة في خلفه في شكل

فراشة فضية كبيرة. حطَّ شحوب في وجهها رغم لمسات الزينة الخفيفة عليه، وسكنت نظرة ساهمة في عينيها.

بدا كل شيء عادياً. ساريا في غرفتها تتأمل نفسها في المرآة بإعجاب، وتضع اللمسات الأخيرة على فرح حلمها. جوديا تنهي زينتها واستعدادها في حجرتها، ووائل ينتظرهما في الطابق الأسفل ليقلهما إلى قاعة الاحتفال وسط المدينة.

ترش ساريا رذاذ العطر من زجاجتها وأنفاسها، فتغرق في الأريج يمسح الذكريات والتاريخ، توقاً لراحة مستدامة خلف ضباب الأيام. تدور حول نفسها وتدخل في الرذاذ، والزجاجة أيقونة تلملم أنفاس الأسى فيهيم فستان زفافها في نشوة العطر سابحاً في جسدها.

فُتح باب غرفتها رويداً، فرأت جوديا به. دخلت بتأنٍ ووقفت طويلاً تنظر ساهمة إلى الفستان الأبيض المترامي في كل اتجاه. ساد صمت منهك. وإذا بجوديا تقول "ساريا.. يا توأم روحي.. أحبك يا أختاه.. ووشائجي لعنة تلاحقني.. حبي لك راحة على عتبات روحي المتعبة.. ذرات تدور في فلكك إلى الأبد وتتعمشق عالمك وليس لك منها خلاص.. أعلم أنك تحبينني بعدد هذه الذرات.. بل وعدد النجوم في السماء.. ".

تغيرت ملامحها، وراحت تقترب من أختها أكثر، قائلة "عندكِ تنطفئ ناري المتقدة، وتنهض آثار سعادتي الذابلة من مرقدها الأبدي.. بذاك الجرح الذي يأبى الشفاء هُزمتُ ولم تُهزمي.. تلملمين أشياءك وسنوات عمرنا الشحيحة بالبهجة من أجل الرحيل.. لم يتبق إلا القليل من الوقت.. ستغادرين يا أختاه بذاكرة هشمتها الأحزان.. أعطني قيثارة لأعزف لحني الكئيب عند

قدميك.. كم يلزم من موت لكي تقتنعي بجدوى هذه الأنشودة العبثية.. نحتُّكِ رفيقةً وفية لا تخون.. أحترق من أجلك وليس لك أن تتجاهلي.. فاحترقي معي في وسط هذي النار..".

توقفتْ، وشرار بدأ ينطلق من عينيها "الأبناء يحملون آثار آبائهم.. الأبناء هم الآباء.. مهما أظهروا من صفات أخرى فإن الآثار باقية.. في النهاية يصبحون آباءهم الذين يخافونهم ويكرهونهم بكل ما فيهم من خطايا.. لا تصدقي عسلي.. لا يا ساريا.. إنه سمٌّ زعاف.. تعطل قطارنا هنا، وفراقنا وبقاؤنا مستحيلان.. الموت ليس مبكراً وليس متأخراً بل هو كما يجب أن يكون.. كما قلت لك يوماً إما أن نبقى معاً أو نموت معاً..".

تقدمت جوديا باتجاهها أكثر، فتراجعت ساريا وهي ترتجف، وقد اتسعت عيناها وسرى الخوف في أوصالها، فقالت:

"ماذا دهاكِ يا جوديا؟ ماذا تقولين؟ لا أفهم.. هل أنت على ما يرام؟".

فواصلت جوديا قائلة ".. سنغرق معاً ما لم تمسك السماء أعاصيرها وتبتلع الأرض سيولها.. ما لم تتقطع جذورنا الممتدة داخل أوحال التعب.. ما لم تزُل بصماتنا عن أغوار الوجود.. ما لم تتمكن عيوننا من رؤية ما لا نرى.. الشفق القطبي الوردي يتلألأ في السماء انتظاراً لولادة صباح آخر..".

اقتربت جوديا منها أكثر وفكت حزامها، فصرخت ساريا "لا.. لا تقتليني.. يا جوديا..". لكن حزام جوديا أحاط بعنق ساريا سريعاً قبل أن تتمكن من فعل أي شيء إلى حد لم تعد قادرة على الصراخ، وإنما صدرت عنها حشرجات مخنوقة، وهي تحاول التملص من قبضة أختها. وإذا بطلقات نارية تهز المكان، وقبضة

جوديا تتراخى. فالرصاصات اخترقت جسدها من الخلف بثقبين نفرت منهما الدماء. التفتت وسط تداعيها إلى الأرض، لتراني واقفاً بالباب والمسدس في يدي، جرّت خطواتها نحوي محاولة الوصول إليَّ، فأطلقتُ مزيداً من الرصاص في صدرها. ترنحت وهي تنظر في وجهي بعينين زائغتين.

الشيء العجيب الذي رأيته في تلك اللحظة هو أن طاقتها تجمعت داخل عينيها في شكل طائر ذهبي انطلق بجناحين عظيمين يرفرفان وحلَّق مبتعداً ثم اختفى قبل أن تغمض أجفانها وتتهاوى مضرجة بدمائها. كانت ساريا تصرخ صرخات هستيرية متتالية بصوت مخنوق، وكفاها يرتجفان فوق شفتيها وأسنانها المصطكة، وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما. سمع وائل صوت الرصاص. هرع إلى الطابق العلوي ودخل الغرفة. وقف لاهثاً فاغراً فاهه كمن تلقى لكمة أفقدته التوازن، يتمعن في المشهد الدموي وينقل بصره بيني وبين ساريا وجوديا على الأرض. صرخ فجأة "ماذا جرى؟ ما الذي حدث؟ كيف حدث هذا؟".

ابتلع كلماته ويداه تسرعان لتسندا ساريا التي كانت على وشك السقوط وعيناه تحدقان بي. انحنيتُ والدموع تندفع إلى مقلتيَّ. وفي وسط بركة الدماء احتضنتُ جوديا بين ذراعيَّ، أنظر إلى شعرها الأشقر الطويل مسدلاً خلف رأسها إلى الأرض، مغمضة العينين وابتسامة ضعيفة على شفتيها. أمسِّدُ وجنتيها بصوتي المتهدج "أنا قتلتها.. أنا قتلتُ من أحببت.. أنا قتلت من كرهتُ.. أنا أنهيتُ الفتاة الوحيدة التي خفق قلبي لها.. أنا سلبتُ حياتها بإصرار.. آهٍ يا جوديا.. سأبقيكِ فرحاً وإبداعاً في ذاكرتي.. لن

تكوني فيها خيبة ولا حرباً ولا موتاً.. كنتِ الجلاد والضحية والبريئة الظالمة.. لم أعد قادراً على أن أكون كما كنتُ قبلكِ.. انظري! أنا اليوم أحتفل بالموت وأنت عاجزة عن إفساد احتفالي.. تخيلي أنا اليوم في دقائق وبضغطة على الزناد حولت عواصفك الهوجاء المدمرة إلى سكون صباحي مزركش بحبات الندى الحمراء.. ستنتقلين إلى كوكبك الوردي كما كنتِ تحلمين.. لن تروي هناك حكايا عن طفولتك الحزينة وحرب صباك الدامية وثورتك المجنونة ضد الرجال.. ستنعمين بالسلام في وطن الأنوثة.. هناك تتوه الكلمات والأحرف على سفوح وجنتيك الغضتين وشواطئ عينيك حيث ينام العشق حالماً بوطن آخر وهوية أخرى.. تركتني هنا بلا وطن ولا هوية أنوء تحت ثقل الذكريات.. كنتُ أريدكِ هكذا طيفاً جميلاً مسالماً يملأ دنياي فرحاً.. لكنك لم تكوني تنتمين إلى هذه الأرض الشقية.. لم تكوني".

انحنت ساريا بجانبها تبكي بحرقة أكبر "أختي جوديا.. وتوأم روحي.. سامحيني.. ".

أمسك وائل بها فوضعت رأسها على كتفه واسترسلت في النحيب، فقال "أشعر وكأني في كابوس. أخبريني يا ساريا ما الذي جرى بالتفصيل".

قالت ساريا "كانت قبضتها قوية لم أكن قادرة على تخليص نفسي بأي شكل.. رأيت الموت يلتهمني قطعة قطعة.. كان الموت في انتظاري لو تأخر نمير ثواني أخرى..".

كنتُ ألاحق جوديا كظلها طوال الفترة الماضية، دون أن تلحظ. تسللتُ قبل ساعات من الزفاف إلى شرفة الطابق العلوي من المنزل، حيث غرفة جوديا، بتسلق ماسورة المياه الممتدة من أسفل

المبنى إلى أعلاه. مكثت قابعاً في زاوية من الشرفة الواسعة ومسدسي في جيبي دون حراك، متوقعاً حدوث ما لا تحمد عقباه. رأيت جوديا تغادر غرفتها بهدوء وتتوجه إلى غرفة أختها. شعرت بنبضات قلبي تتسارع. عندما أصبحتْ خارجها، دخلتُ مسرعاً وتبعتها بخفة ووقفت عند باب غرفة ساريا أنصتُ إلى الحديث كاملاً، إلى أن حاولت ارتكاب جريمتها، فتدخلتُ لإنقاذ ساريا.

أوقفتُ على ذمة التحقيق وتعطل الزفاف وكل شيء. لحظات ضياع وصدمة وبلبلة تحيد عن جادة الحياة وتؤسس لمستقبل آخر ووجود آخر. حالة تكرار، أدت جوديا فيها طقوسها المتشابهة. ناهد وقبلها ليليان وقبلها رنا.

على ساريا أن تعيد جمع كيانها، وكل قطعة منه منفلتة عن الأخرى. عليها أن تعيد جمع الأجزاء المنفصلة من عقلها. وعلى وائل جمع شتاته ولملمة أفكاره ليصيغ نتائج ومحاكمات يقبلها عقله. كل شيء كان صعباً.

التحقيق أثبت أن جوديا حاولت قتل أختها بدليل آثار الحزام على عنق ساريا. وهي من قتل ناهد وقبلها ليليان ورنا، وبنفس الطريقة باستخدام حزامها لخنق ضحيتها. أُغلقت الملفات على أن القاتلة تعاني من علة نفسية مدمرة دفعتها إلى الانتقام من كل فتاة تفكر في الزواج.

مرت أشهر طويلة، والجراح جفَّت لكنها لم تلتئم. كثيراً ما كانت ساريا تردد أنها ميتة وأن وجودها دخل في العدم. قالت لوائل مرة "لم يبق منهم أحد.. رحلوا جميعاً.. تركوني وحيدة في هذا العالم وغادروا.. يجب أن ألحق بهم يا وائل..".

صمتت طويلاً ثم قالت "نحن لا نموت دفعة واحدة، بل نموت بطريقة الأجزاء، كما يقول جبران، عندما رحلت أمي مات جزء مني، وعندما غادر أبي مات جزء آخر بي، وعندما ماتت جوديا مات جزء، وكلما قتل حلم من أحلامنا مات جزء. فيأتي الموت الأكبر ليجد كل الأجزاء ميتة فيحملها ويرحل..".

مرت أشهر طويلة، وقرر وائل وساريا عقد قرانهما بصمت ودون ضجيج، رغم أن ساريا أرادت التأجيل، فهي ما فتئت تكرر أنها لم تبرأ بعد مما حدث. كان وائل يلحظ وجومها وشرودها الدائمين وعدم حماسها للعودة إلى حياة طبيعية، فيحس بغصة ومرارة. لم يكن يدري كيف يخرج بها وبنفسه من أتون ذكريات تركت تشوهاً كبيراً داخلها وربما شرخاً دامياً لن تشفى منه.

حددا يوم الزفاف. ارتدت ساريا فستانها الأبيض ثانية. حضر بعض الأصدقاء المقربين، وكنت أنا من بينهم، المناسبة التي فضلت ساريا أن تكون في بيتها بعيداً عن الضجيج والأضواء. كانت حفلة عشاء عادية. بدت ساريا شاحبة وعيناها غائرتين داخل تشوش مبهم. كانت تنظر بين الفينة والأخرى إلى وائل طويلاً يتحدث إلى الحاضرين، دون أي تعبير على قسماتها.

انفض الجمع وغادر المدعوون وأصبح العروسان وحدهما. جلس وائل مبتسماً على طرف السرير، ينظر إليها واقفة بجانب الباب لا تتحرك. مدَّ ذراعيه في إشارة منه لاحتضانها. ظلت تنظر إليه دون حراك أو أي رد فعل، فقال "ما بك يا حبيبتي؟ هل أنت على ما يرام؟ ساريا.. أرى شحوباً في وجهك.. هل تشتكين من شيء؟".

أدارت ظهرها له لثوانٍ ثم التفتت ثانية وقالت وعيناها تقدحان ناراً "أنا لست ساريا.. أنا جوديا..".

وسُمع دوي إطلاق نار.

شوهد وائل يغادر المنزل تقتاده الشرطة وجثة ساريا بفستان عرسها محمولة على نقالة.

مرَّ شهر. وقفتُ أتأمل المنزل الخاوي عن بعد وفي يدي دفتر جوديا أقلب الصفحات الأخيرة منه،

"اسم أمي في الكوكب الوردي ليس نسرين، إنها نورسيما. وناهد أصبح اسمها نهاريسا وهناك أسماء كثيرة أسمع النساء ينادينها مثل اندرومينا ونوسوار وراميسيا وزهرينا وأميروولا. حدثتني أمي عن راميسيا التي جالت في الفضاء وعادت إلى كوكب الأرض حيث يعيش النساء والرجال. أحبت شاباً وحاولت مساعدته في الدخول سراً إلى الكوكب الوردي، ولكن ما أن ولج الشاب إلى الغلاف الجوي للكوكب حتى اندفعت موجات ضوئية هائلة أشبه بالرادارات في السماء تنذر بدخول طاقة ذكرية إلى الكوكب. وكانت النتيجة هجوماً كاسحاً من قبل الطاقات الأنثوية على راميسيا والشاب قضت عليهما وحولت طاقتهما إلى ذرات صغيرة تلاشت في الفضاء.

طاقة أبي فريد الذي كان يتوق لرؤية أمي نورسيما لم تتمكن من الدخول إلى الكوكب الوردي. تم تدميرها قبل أن تصل وصارت ذرات تسبح في الفضاء ستتلاشى لاحقاً. أسمع موسيقى ناعمة أشبه بصوت الناي تتردد داخل قصور زجاجية تشبه الماس. إنها قصور هلامية متلألئة. أرى صبايا ينزلقن ضاحكات إلى داخلها، ويرقصن على وقع أنغام صوفية غامضة. تنتشر

نجوم صغيرة بألوان كثيرة زرقاء وحمراء وبيضاء وتعلق في الهواء والفتيات يسبحن بينها. كل شيء أشبه بحلم جميل. أخبرتني أمي أنني سألحق بها قريباً أنا وساريا. أنتظر لقاءها بفارغ الصبر. منها سأستمد حياتي الجديدة. إلى اللقاء يا أمي".

أغلقتُ الدفتر ساهماً وعيناي تفيضان بالدموع، وعدت لأتأمل طويلاً المنزل المنتصب في السكون، فإذا بصبي يقترب مني قائلاً:

ـ عمو، هل تنوي شراء هذا المنزل؟

نظرتُ في وجهه طويلاً دون أن أتكلم. فأردف قائلاً:

ـ لا أنصحك.. ابتعد.

قلت:

ـ لماذا؟

قال الصبي هامساً وقد اتسعت عيناه:

ـ لا أحد يرغب بشرائه... يقولون إنه مسكون بالأشباح.

** * **



عندما اختلطت أنفاسنا
سرت حرارة قوية في جسدينا،
وسرعان ما أحسست بحدسي الداخلي
أن تلك الحرارة تحولت بعد لحظات
إلى برودة جليدية في أعطافها.
عجيبة هي الحياة،
كيف يختلط الجمر مع الجليد؟
أغمضتْ عينيها تحاول استدعاء
نشوة هاربة. ورغم حرارة جسدي
لمحتُ طلائع الجبال الجليدية
العائمة في جسدها.
بادرتْ إلى وضع يديها حول
رقبتي وضمتني إليها بقوة.
وفي غمار نشوة تجمدت قبل أن تتفجر،
أطبق كفاها على عنقي بشدة.
نظرتُ في عينيها فرأيتهما
لدهشتي تتقدان شرراً.